

تقديم

الشيخ الدكتور محمد حسن هيتو

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد،

فإن أغرب سؤال وجه إلي في حياتي العلمية هو: هل يعتبر الأشاعرة من أهل السنة والجماعة؟

لقد استوقفتني صيغة هذا السؤال طويلاً، إذ وجدتها فارغة من معنى السؤال العلمي الصحيح، مما يدل على سذاجة السائل وجهله بتاريخ هذه الأمة وعقيدتها.

وذلك أن ما يعرفه كل من شم للعلم رائحة، على مدى تاريخ أمتنا الطويل هو أن الأشاعرة هم أهل السنة والجماعة.

وأنه إذا أطلقت كلمة أهل السنة في كتب العلم - على اختلاف أنواعها - فإنهم هم الذين يرادون بها.

وهم الذين ترددت الخلافات بينهم وبين المعتزلة، أو غيرهم من الفرق الإسلامية في كتب العقيدة، والفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، بل في كتب اللغة، وغير ذلك من كتب العلم التي تعرض للخلاف في العقيدة.

وذلك أن الأشاعرة هم الذين وقفوا في وجه المعتزلة، فزيفوا أقوالهم، وأبطلوا شبههم، وأعادوا الحق إلى نصابه على طريق سلف هذه الأمة ومنهجهم.

وإمام أبو الحسن الأشعري لم يؤسس في الإسلام مذهباً جديداً في العقيدة، يخالف مذهب سلف هذه الأمة، وإنما هداه الله تعالى لالتزام مذهب أهل السنة بعد أن أمضى أربعين سنة من حياته على مذاهب الاعتزال، عرف من خلالها حقيقة مذهبهم، وتمرس بفنونهم وأساليبهم في الجدل، والنقاش، والنظر، مما مكّنه من الرد عليهم، وإبطال شبههم.

فوجد فيه أهل السنة ضالّتهم التي طالما بحثوا عنها فاتبعوه، وساروا على نهجه، لما رأوا فيه من القدرة على إفحام خصومهم، والدفاع عنهم، وتثبيت مذهبهم.

وعقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري التي سار عليها هي عقيدة الإمام أحمد بن حنبل، والشافعي، ومالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وهي عقيدة السلف الصالح، كما نص على ذلك أئمة أهل العلم ممن سار على هذه العقيدة، على كر العصور ومر الدهور.

ولذلك كان الصواب في السؤال أن يقول السائل: من يدخل مع الأشاعرة في أهل السنة الجماعة؟

والجواب على هذا: أنه يدخل معهم كل من سار على نهجهم، وسلك سبيلهم، وإن وقع شيء من الخلاف في بعض المسائل بينهم.

فالماتريديّة من أهل السنة، والأثريون من أهل السنة، إلا أن الذي ظهر من أهل السنة ومثّلهم في كتب العلم هم الأشاعرة، ولذلك كانت كلمة أهل السنة إذا أطلقت انصرفت في الغالب إليهم.

على أن جمهرة أهل السنة منهم.

فالمالكية كلهم أشاعرة...

والشافعية كلهم أشاعرة...

والحنفية كلهم أشاعرة أو ماتريدية ولا خلاف بينهم...

وجملة كبيرة من أئمة الحنابلة المتقدمين من الأشاعرة.

وهذا على الجملة.

وأما على التفصيل فعظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الأشاعرة، كالباقلائي، والقشيري، وأبي إسحاق الشيرازي، وأبي الوفاء بن عقيل الحنبلي، وأبي محمد الجويني، وولده أبي المعالي إمام الحرمين، وحجة الإسلام الغزالي، والقاضي أبي بكر بن العربي، وفخر الدين الرازي، وابن عساكر، والعز بن عبد السلام، وأبناء الأثير، والرافعي، والنسوي، والسبكي وأولاده، والمزي، والعراقي، وابننا حجر-العسقلاني والهيتمي-، والسيوطي، وما لا يحصيه العد مما تنقطع بذكره الأنفاس، ويضيق بعده القرطاس.

فإن كان كل هؤلاء ممن ذكرنا، وأضعافا مضاعفة ممن لم نذكر ليسوا من أهل السنة، فمن هم أهل السنة في التاريخ؟

لم يبق بعد هذا إلا أن يقال: إنهم كانوا وهما جسده الجهل المعاصر، وهكذا تنقلب الحقائق آخر الزمان، فيقذف العالم بالجهل ويترك، ويوصف الجاهل بالعلم فيسأل، ليضل ويضل، وتنقض عرى الإسلام عروة عروة.

وقد سخر الله تعالى الإخوة الذين ألفوا هذا الكتاب لبيان الحق وإظهاره، ودحض الباطل وفضحه بما ذكره من الحقائق العلمية عن الأشاعرة في نشأتهم وعقيدتهم، مما

يحتاج إليه كل من لم يعرف شيئاً عنهم، أو عرف عنهم من الأباطيل التي يروجها
أدعياء العلم والمعرفة، مما يتنافى مع الأمانة العلمية التي أمر الله بها.

وهم لم يتدعوا شيئاً جديداً في هذا الكتاب لأنه ليس الأول من نوعه في هذا
الموضوع وإنما أظهروا فيه ما كان خافياً على من لم يعلم، أو يتعمى عنه من علم،
فجزاهم الله على ما بذلوه فيه خير الجزاء، وأجزل لهم بمنه البذل والعطاء.

وكتبه

الشيخ أ.د. محمد حسن هيتو

تقريظ الشيخ الأستاذ

الدكتور محمد فوزي فيض الله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين. وبعد:

فقد نشرت صحيفة كويتية قبل فترة، مقالاً لأستاذ جامعي، ذكر فيه أن الأشاعرة
والماتريدية والمعتزلة والقدرية والصوفية والجهمية...أنها كلها من الفرق الضالة، وهذا
يعني أن متبعيها من الضالين؛ وهذا كلام خطير جداً لأن معناه أن محصل المسلمين
وجماعتهم على غير هدى من الله، ولم يحدد لنا أهل الهدى والصرط المستقيم؛ وهذا
يشكك المسلمين في دينهم فلا يدرون أنهم من أهل الضلال أو من أهل الهدى!!

فهل يستطيع الكاتب أن يبين لنا من حفظ من العلماء هذا الدين وعقيدته ولغته
وتاريخه من وقت ظهوره إلى يومنا هذا، وهل كانوا من أهل الضلال أم كانوا من أهل
الهدى والرشاد؟

إن أهل السنة والجماعة يبلغون تسعة أعشار المسلمين وهم السواد الأعظم، فإذا
حكمتنا عليهم بالضلال فيماذا نحكم على سائر المسلمين!

وبماذا يصف الكاتب أمثال الإمام الجويني والإسفرائيني والرازي والطبري والغزالي
وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وابن جرير وابن عبد البر والذهبي
والبخاري ومسلم والأوزاعي والدارقطني والخطيب البغدادي وابن حجر والسيوطي
والعيني والسخاوي والمناوي وسيبويه والأخفش والزجاج والمبرد والفارابي والكسائي
والأصمعي وابن هشام والكلاباذي وغيرهم من الأئمة في العقيدة وأصولها وأصول
الفقه والتاريخ والأدب، ممن عددهم العلماء والمؤرخون في تاريخ الإسلام واللغة العربية

ووسمهم لأنهم من أهل السنة والجماعة؛ فهل يصف الكاتب هؤلاء الأعلام بأنهم من أهل الضلال والفرق الضالة؟

وقد أطبقت الأمة ممثلة في علمائها في مختلف العلوم على أنهم كانوا من أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية.

وفي العصر الحديث رأينا من الأعلام في مصر والشام من يفخرون بنسبتهم إلى أهل السنة والجماعة أمثال شيوخ الأزهر: الباجوري والشرقاوي والمراغي وشلتوت وعلي الخفيف وعمداء الكليات كالشافعي الظواهري والسبكي والديناري وبدر المتولي والسايس، وكذلك مصطفى الزرقا ومعروف الدواليبي ومصطفى السباعي والسلطيني وسراج الدين.

وقد أدركت خلال النصف من القرن الماضي "القرن المتمم للعشرين" أكثر أهل العلم ممن يدعو الله تعالى بأن يميته على مذهب أهل السنة والجماعة، فيقول بعد الحمدلة والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم- ما نصه بهذا اللفظ: "اللهم بفضلك العميم عمنا، واكفنا اللهم شر ما أهمنا وأغمنا، وعلى الإيمان الكامل والسنة والجماعة توفنا نلقاك وأنت راض عنا"

فكانت أمنيتهم فراق الدنيا وهم على مذهب أهل السنة والجماعة، الذين عناهم الرسول- صلى الله عليه وسلم- بقوله: "لا تجتمع أمتي على ضلالة" في الحديث المتواتر معني؛ والمتواتر في المعنى كالمتواتر في اللفظ، في قطعية دلالاته.

فلعله اشتبه على كاتب المقال ما رآه في كتب الإمام الأشعري من مطاعن ودسات رخيصة كما نقل المؤلفان الشيخان "حمد السنان وفوزي العنجري" عن الإمام

الكوثري في ص 18 أنه دخل التحريف والنقص والزيادة على "الإبانة" وهي أشهر كتبه.

هدانا الله وإياه إلى اتباع الحق وأهله أصحاب الفرقة الناجية بنص الحديث السابق.

وصلى الله على صفوة خلقه سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلم

الجمعة 9 من شوال 1426هـ

2005/11/11م

الشيخ أ.د. محمد فوزي فيض الله

تقريظ الشيخ الأستاذ

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسل رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن الإمام أبا الحسن علياً بن إسماعيل الأشعري (330-260هـ) واحد من
عيون رجال السلف، ومن أبرزهم علماً واستقامةً على نهج كتاب الله وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم.

فمن تجاهل هذه الحقيقة فقد خاصم التاريخ وتعامى عن الواقع المرئي لكل ذي
عينين.

وإن الإمام الأشعري لم يتدع رأياً، ولم ينشئ مذهباً، وإنما كان مقررًا لمذهب
السلف، مناضلاً عن الحق الذي ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه أصحابه،
شهد له بذلك كل أئمة التفسير والحديث والفقهاء الذين كانوا في عصره.

فمن ركب رأسه في إنكار هذا الذي شهد له به أئمة السلف، فهو مفتئتٌ على
السلف، كاذب في دعوى اقتدائه بهم ومحبته لهم. وإن أتباعه الذين جاؤوا من بعده،
لم يكونوا في سيرهم على نهجه إلا كأتباعه الذين اتبعوه وأحدقوا به في عصره، فمن
سفههم أو انتقصهم أو نسبهم إلى ابتداع، فقد رمى بذلك الأئمة الذين هم لباب
السلف وخيرتهم في عصره، والذين كانوا السواد الأعظم والأمناء على كتاب الله وسنة
رسوله.

وقد سألت واحداً من هؤلاء الذي يبدعون أتباع الإمام الأشعري ويسفهونهم،
ويلقون الكلام في ذلك على عواهنه: ما الذي تنقمة منهم؟ وما البدعة التي ابتدعوها
فسقتهم؟

فقال لي: تعطيلهم القرآن بالتأويل الذي ابتدعوه... قلت له: ما من كلمة أولوها
إلا وفي أئمة السلف من أولها، إذ كان السبيل إلى فهمها اجتهاداً يتسع لأكثر من
فهم واحد.

ألا تعلم أن في السلف من أوّل كلمة "استوى" في مثل قوله تعالى:

(ثم استوى إلى السماء وهي دخان)

ومن اول كلمة "الوجه" في قوله تعالى: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)
وأول "الضحك" في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضحك ربكما الليلة من
فعالكما".⁽¹⁾

وأوّل الفراغ فى قوله تعالى : (سنفرغ لكم أيها الثقلان)

وهل في هؤلاء الذين يعتزون بنسبتهم وخذهم إلى السلف من لم يؤول كلمة
"يحبهم" في قوله تعالى: (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) . ومن لم يؤول
"المعية" في قوله تعالى: (وهو معكم أينما كنتم) . ومن لم يؤول "القرب" في قوله
تعالى: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

فلماذا تبررون لأنفسكم هذا الذي لا تبررونه لمن هم ليسوا أقل منكم علماً، بل
إنكم لتعلمون أنهم القدوة الصالحة لهذه الأمة؟!..

لماذا يكون تأويل الأشاعرة لما برهن الدليل الاجتهادي على صحة تأويله تعطيلاً
وابتداعاً، ويكون تأويلكم لما قد لا تؤيدكم فيه سلفية صافية ملتزمة لا تعطيل فيها ولا
تأويل؟!!

كنا نقول بالأمس: قاتل الله الجهالة، كم تحجب العقل عن الحق، ولكننا نقول
اليوم: قاتل الله العصبية العمياء، كم تحجب العين المبصرة عن رؤية الشمس صافيةً
لألأةً في كبد السماء!..

(1) انظر الأسماء والصفات للبيهقي، وانظر شرح أبي داود للخطابي عند شرحه لحديث: "ضحك ربكما
الليلة من فعالكما".

على كلٍّ، إني أشكر هذين الأخوين جهودهما في إبراز البدهيات والتدليل عليها، وإنهما لجهود شاقّة تقتضي مع الشكر عليها الإعجاب بها، ألم يقولوا من قبل: من أشكل المشكلات إيضاح الواضحات؟! فلقد استطاعا أن يخترقا هذا الإشكال وأن يزيدا هذا الحقيقة الواضحة وضوحاً، وأن يضاعفا من بداهتها أمام سائر العقول والأبصار.

وإني لعلّى يقين بأن الجهل لا يستطيع أن يقاوم هذه البداهة ويتغلب عليها... أما العصبية العمياء فإني لعلّى يقين بأنها على استعداد لأن تكتسح في طريقها كلاً من الدنيا والآخرة، وأن لا تبقي أمامها إلا أطرافاً من الوهم، تتعامل معها وتدافع عنها.

إني بمقدار ما أشكر هذين الأخوين وأدعو الله لهما، أدعو لمن يقبعون في سجن هذه العصبية أن يكرمهم الله بانطلاقه آمنة وسريعة منه، قبل أن يفوت الأوان وَيَدْلِهِمْ من حولهم الليل، ويختلط ظلام السجن الذي يتطوحن فيه بظلام العاقبة التي لا يجدي معها أي شيء.

الشيخ أ.د محمد سعيد رمضان البوطي

تقرير الشيخ الأستاذ

الدكتور عجيل جاسم النشمي

بسم الله الرحمن الرحيم

ما من أمر يجتمع عليه المسلمون أهم من العقيدة، وما من أمر أشد فرقة لرابطتهم واتحادهم من اختلافهم في أمر العقيدة، هذه حقيقة شرعية تاريخية.

لقد قرأت هذا الكتاب فألفيته ذا قيمة علمية كبيرة من حيث توثيق الأقوال ونسبتها، وقوة الاستدلال، وحسن العرض لقضاياه والمناقشات الرائعة مع أدب وسمو عبارة، يزينه جمالاً مقصده في نصرة علماء الأمة، وتوحيد كلمتها في شأن العقيدة الصحيحة، في وقت هي أشد ما تكون إلى ذلك.

والكتاب وإن كان مؤلفاه الشيخان الفاضلان قد ادعيا جهد الجمع والإعداد إلا أن الناظر في جهدهما يجد علماً وفهماً وفقهاً بدا جلياً ليس في الجمع والإعداد فحسب، وإنما في فهم وتوجيه العبارات الفقهية، وسوق الأدلة منها، وترتيب نتائجها العلمية، ثم لم يخل الجهد من التعليق والاستنباط والاستنتاج، وهذا مما لا يحسنه كل أحد إلا علماء فقهاء دربوا على الصياغات الفقهية، وفهم مناهج الفقهاء ومذاهبهم، فجزاهما الله خيراً على هذا الصنيع.

والكتاب في مضمونه تجديده لمعلوم قديم مستقر عند أهل العلم لا يكادون يختلفون فيه، وهو عد الأشاعرة من السلف، أهل السنة والجماعة، كيف لا وعلماءهم فقهاء الأمة وجمهرتهم.

وعقيدتهم - بلا ريب - عقيدة أهل السنة المنضبطة على الكتاب والسنة، ولا يخرجهم من ذلك دعواهم التأويل لآيات وأحاديث الصفات المتشابهات ما دام التأويل وفق ضوابط محددة، ومقاصد مقررّة.

والتأويل ترجيح لا ينكر الخلاف فيه، ولذا لم يعب أحدهم على غيره، ولم يفسقه، أو يبدعه، لأن مبني الاختلاف ههنا ترجيح مسلك على آخر، وكلاهما صحيح، وكلاهما مذهب أهل السنة.

والعناية بذلك وأدلتها مبسوطه في الكتاب، وهي غايته ومبني الموضوع ومحوره.

وأظن أن الكتاب قد حقق مقصوده من الناحية العلمية الفقهية العقدية، وتمكن مؤلفاه من إثبات مرادهم بنصوص موثقة مستندة إلى أدلة ناصعة محررة. فجزاهما الله خيرا.

كتبه

الشيخ أ.د. عجيل جاسم النشمي

تقريظ الشيخ الأستاذ الدكتور على جمعة مفتي الديار المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نور قلوب أحبائه بحسن الاعتقاد، فبصرهم بحقائق الإيمان به فكان عين الإسعاد، فعبدوه مخلصين له الدين فصاروا خير عباد. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي إلى سبيل الرشاد، وعلى آله وصحبه المتزودين بخير زاد.
أما بعد،

فقد أبان الله سبحانه وتعالى لخلقه من مكونات خزائن جوده وكرمه ما أبرز لهم به جميل صفاته وأسمائه فتعرفوا بها وعاشوا فيها متولهين به حباً وشوقاً، فصرف جميل الصفات البارزة تجلياتها في الكون أهل الله عن التفكير في ذاته سبحانه وتعالى، وانشغلوا بالتفكير في آلائه، فكانوا على قدم الاتباع للحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في إرشاده لهم عندما قال: "تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في ذاته". رواه البيهقي في (الشعب) والطبراني في الأوسط.

وسارت على هذا المنهج الأمة المحبة لله سبحانه وتعالى، سلفاً وخلفاً لم يجد عن ذلك إلا غافل أو هالك، وكان هذا المنهج منهجاً وسطاً بين من أسأوا الظن بالله فتفكروا في ذاته، فوقعوا في التجسيم -والعياذ بالله- أو كادوا، وبين من أنكروا صفاته العلية سبحانه وتعالى. وهكذا كان السادة الأشاعرة رحمهم الله سلفاً وخلفاً على المنهج الوسط، والبصيرة التي أبصروا بها حقيقة الوقوف بالأدب في المعاملة مع الله سبحانه. وهذا ما جعل العلماء قاطبة يطلقون على السادة الأشاعرة أنهم أصحاب

المذهب الحق، فكانوا أحق بها وأهلها. واستقر التدريس في كل معاهد العلم العريقة في الأمة الإسلامية مثل الأزهر الشريف، والزيتونة، والقيروان على تدريس مذهب السادة الأشاعرة اعترافاً من المحققين من علماء الأمة بأنه المذهب الحق. وإيمان العلماء هذا هو الذي دفع كثيراً منهم إلى الدفاع عن مذهب السادة الأشاعرة، فألّف الحافظ ابن عساكر كتابه الممتع (تبيين كذب المفتري) في نصرته مذهبهم. وصنّف العلامة أبو حامد المرزوقي - وهو الشيخ العربي التباني - كتاباً أسماه (براءة الأشعرين). فكانت نصرتهم هذه نصرته للحق وأهله، وقد توالى المصنفات من العلماء المحققين في بيان مذهب أهل الحق (الأشاعرة) والدفاع عنهم. ومن هذه المصنفات هذا المصنف المبارك الذي سار على هذا الدرب المبارك من نصرته أهل الحق ومذهبهم. فبارك الله فيه وفي مصنفيه ونفع بهما في الدارين. آمين.

كتبه

الشيخ أ.د على جمعه محمد (مفتي الديار المصرية)

27 رمضان 1425 هـ الموافق 2004/11/10م

تقريظ الشيخ الأستاذ الدكتور محمد عبد الغفار الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين، وصحبه الطيبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فقد عرض عليَّ الأخ الكريم، فضيلة الشيخ حمد السنان - حفظه الله - مسودة الكتاب الذي أعدّه هو وأخوه الشيخ فوزي العنجري - حفظه الله - بعنوان (أهل السنة الأشاعرة شهادة علماء الأمة وأدلتهم).

فرأيت فيه:

١. غيراً على دين الله من أن يتعدى عليه الجاهلون والمغرضون.
٢. انتصاراً لعلماء الإسلام وحماة الدين من تهجم بعض من غرّ بهم من أبناء المسلمين عليهم.
٣. عفة لسان ودعوة صادقة إلى توحيد صفوف المسلمين.
٤. بياناً لعقيدة أهل السنة والجماعة حسب ما تلقاه العلماء الأثبات عبر أربعة عشر قرناً عن السلف الصالح.

لذا أنصح كل طالب علم بالإطلاع عليه، والعمل على نشره بين المسلمين للاستفادة منه.

والله يحفظ الإسلام والمسلمين من كيد أعدائه وجهل أبنائه.
وصلى الله وسلم على سيد الوجود سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
كتبه

الشيخ أ.د محمد عبد الغفار الشريف

تقريظ الشيخ الأستاذ

الدكتور وهبة الزحيلي

أخوي الكريمين الأستاذ حمد السنان والأستاذ فوزي العنجري أيدهما الله.
الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:
أشكر لكم رسالتكما الكريمة، وأقدر لكم تقديراً بالغاً هذا الجهد الطيب الذي بذل في جمع مقالات العلماء والأئمة الثقات حول الأشاعرة والإمامين أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي.

لقد أنصفتهم الحقيقة، وأوضحتم وجه الحق وطريق السداد والصواب، وبيان تاريخ نشوء هذين المذهبين المتقاربين جداً، من غير خلاف جوهري، وقد شاع بين المسلمين قاطبة اتباع هذين الإمامين، لأن القرآن حمّال أوجه، والنصوص الشرعية محتملة، ويستحيل على أهل المعرفة والعلم إنكار وجود المجاز في القرآن والسنة النبوية. ومن أنواع المجاز النصوص المتشابهة، ولكن مع التزام النص وتفويض الشأن إلى الله عز وجل، فلا تعطيل كالجهمية، ولا تشبيه كالمجسمة، ولا مساس بجوهر الاعتقاد بالذات العلية والإيمان بالأسماء الحسنى والصفات العلية، في ضوء الآية الكريمة: (ليس كمثلثه شئ وهو السميع البصير) . [الشورى: 11].

لكن ابتليت الأمة الإسلامية بفئة تسرعت في التخطئة، وبادرت إلى القول بالتضليل، دون تثبيت ولا رويّة، مع أن أهل السنة والجماعة كلهم يفوضون إلى الله تعالى بيان المراد القطعي، ونحن مع جمهور السلف في التفويض، والتأويل اجتهاد، وسندنا فيه ما اتجه إليه جماعة من الصحابة، علماً بأنه لو كان هناك خطأ واضح أو مساس بالاعتقاد لأنكر الصحابة الكرام على من جنح إلى التأويل المقبول من غير مساس بمدلول النصوص الواردة ولا خروج عنها، فما أجدرنا وأحرى بفئة تكفير أو تضليل بقية المسلمين أن يترثوا ويتندوا، حتى لا يقعوا في الكفر.

هدانا الله وإياهم سواء السبيل

الشيخ أ.د. وهبة الزحيلي

تقريظ الشيخ الدكتور عبد الفتاح البزم مفتي دمشق ومدير معهد الفتح الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القديم الذي لا أول لوجوده، الباقي الذي لا نهاية لبقائه، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، المنفرد بالإيجاد والإعدام، المنزه عن صفات النقص، المتصف بصفات الكمال.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، إمام المرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فقد أرسل إليَّ الأستاذان الجليلان حمد السنان وفوزي العنجري كتأبهما (أهل السنة الأشاعرة شهادة علماء الأمة وأدلتهم) وطلبا مني -وهما يحسنان الظن بي- أن أبدي الرأي بعد الإطلاع على علمهما المبرور إن شاء الله تعالى، فنزلت عند رغبتهما- مستعينا بالله- فخرجت بنتائج لعل من أهمها أن المؤلفين حرصا على بيان الحقيقة دون تجريح أو تعريض بفرقة أو طائفة أو جماعة، غير دامين ولا قادحين ولا منتقصين بل ملتزمين المنهج العلمي من حيث الشكل والمضمون، ينسبون الأقوال إلى أصحابها مع العزو والتوثيق، بلغة سليمة صحيحة بعيدة في تراكيبها عن الحشو والتعقيد، فجاء هذا الصنيع المشكور سِفراً ثميناً منضمّاً إلى سلسلة مباركة من أعمال مبرورة نذر أصحابها أنفسهم للدفاع عن الحق وأهله أهل السنة والجماعة الفرقة

الناجية التي سلكت ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، والتي استثنائها عليه الصلاة والسلام من سائر الفرق التي افرقت عليها أمته، ولقد أجمع كثير من أهل العلم على أنها أهل السنة والجماعة من أشاعرة وماتريدية وسلف ومحدثين وفقهاء وأصوليين خلا مذهبهم من الأهواء والبدع، وقد أورد المؤلفان في ذلك قول صاحب (لوامع الأنوار البهية)، فقال: هم ثلاث فرق: الأثرية وإمامهم أحمد بن حنبل، والأشعرية وإمامهم أبو الحسن الأشعري، والماتريدية وإمامهم أبو منصور الماتريدي. رحمهم الله جميعاً ونفعنا بهم وبجميع العلماء العاملين المخلصين. وإني لجد شاكر للأستاذين الفاضلين ما بذلاه من جهد محمود في بيان عقيدة الأشاعرة وفضل إمامهم أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى. سائلاً الله سبحانه أن يتقبل عملهم، وأن ينفع به، وأن يجعل هذه الأسطر التي أجزاها على يدي خالصة لوجهه الكريم. إنه سبحانه خير سميع وخير مجيب. والحمد لله رب العالمين.

الشيخ الدكتور عبد الفتاح البزم (مفتي دمشق)

ومدير معهد الفتح الإسلامي بدمشق

تقريظ الشيخ الدكتور حسين عبد الله العلي

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار وعلى آله وأصحابه
المصطفين الأخيار.

أما بعد،

فهذا الكتاب النافع المبارك إن شاء الله تعالى كاشفٌ ومبَيِّنٌ لما كان عليه شيخ
الإسلام وإمام الأئمة أبو الحسن الأشعري - رحمه الله تعالى - من العقيدة التي سلكها
ودافع عنها وصفاها من بين فرث التجسيم ودم التعطيل ألا وهي عقيدة السلف
الصالح، وقد أظهر هذا الكتاب بحق مزيداً من وضوح الرؤية في هذا الجانب؛ لما
اشتمل عليه من الحجج الدامغة، والنقول المعتبرة، فهو إذاً سهم مرميٍّ يُضَمُّ إلى
الكتب التي أُلِّفت في الدفاع عن ساحة الإمام؛ إذ من المعلوم أن كبار علماء الأمة من
محدثين ومتكلمين دافعوا عنه كابن عساكر في كتابه (تبيين كذب المفتري)، والبيهقي
في التصريح في كتبه (الاعتقاد) وغيره، مبيناً فيها أن تأويل بعض الصفات جائز
ومنقول عن سلف هذه الأمة، والمعرضون وأهل الأهواء يُلغون في مقدار هذا الإمام،
وينسبون إليه ما لم يقله!

والكتاب الذي بين أيدينا شاهدٌ حقٌّ على درء تلك الشبهة المنسوبة إليه، والذي
حملهم على ذلك التعصب والهوى؛ ولو جئتهم بكل آية!

وقد شهد شاهد وهو إمام في مذهبهم وهو ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - في
كتابه (دفع شبه التشبيه): أن المجسمة من الحنابلة كابن حامد والفراء وأبي يعلى وابن

الزاغوني لطخوا مذهب الإمام أحمد- رحمه الله تعالى- بما قالوه، وجلبوا له عاراً لا
يمحى إلى يوم القيامة. أو بمعناه!

فجزى الله المؤلفين خيراً على غيرتهما على عقيدة السواد الأعظم من أهل الإسلام
بجمعهما هذا الكتاب المبارك، ليكون تبصرة ومرشداً لمن أراد معرفة الحقيقة التي لا
يصح غيرها.

هدانا الله إلى اتباع الحق واجتناب الباطل. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وأصحابه أجمعين.

الشيخ الدكتور حسين عبد الله العلي

الكويت- ضحى الأربعة

17 من شعبان 1426هـ

الموافق 2005/9/21م

تقريظ الشيخ الداعية على زين العابدين الجفري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد،

فقد أمسكت بهذا الكتاب عندما كنت في الطائرة متوجهاً من عمان إلى أبو ظبي لإلقاء محاضرة (حي في قلوبنا P) ثم أعود في اليوم التالي إلى عمان للمشاركة في مؤتمر دعاة المسلمين الصحفي الثاني حول موضوع الرسومات الكرتونية التي تجرأت على جناب سيدنا محمد P في إحدى الصحف الدنمركية وهو وقت ضجت فيه الأمة ولا تزال إلى حين كتابة هذه الأسطر.

فترددت في كتابة المقدمة التي طلبها مؤلفا الكتاب الشيخان الفاضلان حمد سنان وفوزي العنجري. وهو من باب حُسن ظنهم وإلا فلست أهلاً لذلك، والسبب في هذا التردد هو أن الأمة الآن تشهد اجتماعاً غير مسبوق منذ قرون، فجميع أتباع المذاهب على قلب واحد، واجتمع الحكام والشعوب في قضية واحدة، حتى التاجر والمستهلك اصطلحا على نصره رسول الله P.

وعنوان الكتاب يتعلق بقضية حدثت منذ قرنين فقط وما زالت محل نزاع بين مجاميع من المسلمين، وكل منهم يرى أنه هو أهل السنة!

فهل يا تُرى يكون هذا الوقت مناسباً لطرح هذا النزاع!

فلما سرحت نظري في الكتاب ولاحظت الأسلوب العلمي الرصين مع الأدب الراقبي، وجدت أنه من المهم نشر مثل هذا البحث الذي يسعى نحو تصحيح وتوسيع.

أما التصحيح: فكل من قرأ هذا الكتاب سيتضح له بما لا يدع مجالاً للشك أن الأشاعرة هم غالبية علماء أهل السنة، وبالتالي هم غالبية الأمة، وليس كما يتم نشره الآن من أن الأشاعرة من الفرق الأخرى أو من الفرق الضالة.

أما التوسيع: فهو نتاج للتصحيح، على أن من يتضح له أن مفهوم أهل السنة غير محصور على مدرسة معينة لها صلة بأهل السنة، وإنما مفهوم السواد الأعظم من الأمة سوف يجد اتساعاً في دائرة أهل السنة ليتمكن من خلاله أن يستوعب التعامل مع الشريحة الأكبر من الأمة، وهي خطوة نحو التقريب بل نحو الوحدة الإسلامية.

لهذا سارعت في كتابة هذه الأسطر على عجل وفي سفر رغبة في التأكيد على هذين المفهومين وكذلك رغبة مشاركة الإخوان في هذا الخير والأجر.

وأسأل الله أن يعظم النفع بهذا الكتاب، وأن يبارك في مؤلفيه، وأن يتقبل منهما، إنه هو ولي ذلك والقادر عليه.

وكتبه الأفل

الشيخ الداعية على زين العابدين الجعفري

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً كبيراً يبلغ رضاه، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه ومصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

فأصل هذا البحث ونواته ورقات مختصرة أجبنا فيها على بعض الأسئلة التي وردتنا من بعض طلبة الجامعة عن حقيقة الأشاعرة، وهل هم من جملة أهل السنة والجماعة؟

وكنا نظن أن تلك الورقات ستروي الغلة وتشفي العلة، لكننا تبيننا خطأ ذلك الظن حين تتابعت التساؤلات حول نفس الموضوع، بعد أن أصبح يلقي على أسماع عوام الناس واثقفيهم، وقد تفاقم الأمر وتعاضم الخطب حتى بلغ إلى حد هجر المسلم أخاه المسلم، وعدم التسليم عليه والصلاة خلفه لكونه من الأشاعرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فأصبح مذهب أهل السنة الأشاعرة تهمة وسببة يتبرؤ منها من نسبت إليه أو نسب إليها!

هذا المذهب الذي ما فتى رافعاً لواء أهل السنة والجماعة، منافحاً عن ثواب الأمة وعقائدها، واقفاً في وجه طوفان البدع والزيغ وأهله.

هذا المذهب الذي هو في حقيقة الأمر امتداد لما كان عليه الصحابة والتابعون ومن بعدهم من أهل السنة.

هذا المذهب الذي يدين به تسعة أعشار أمة الإسلام وسوادها الأعظم وعلمائها ودهماؤها.

مما اقتضى كتابة هذا البحث مساهمة منا في إزاحة سحف الجهالة التي عشت

على العقول المسلمة في أمور هي من الأهمية بمكان، أمور كانت بالأمس معلومة للكافة، فباتت في عصرنا من القضايا التي لا يكاد يعرفها أحد.

وساهم في هذه الجهالة والظلم الذي وقع على هذا المذهب قوم أرادوا أن يحسنوا فأساءوا، قوم لم يفهموا حقيقة مذهب الأشاعرة في التأويل والتفويض فأساءوا في الحكم عليه بالضلال في قضية لا تستلزم كل هذا التهويل والتضليل.

فقضية التأويل والتفويض لم تكن يوماً تشكل خطراً يهدد الأمة ويقض مضجعها، ولم تكن مشكلة أمام علماء المسلمين تستوجب التراشق بالتهمة والتنازع بالألقاب، وكلٌّ من التأويل والتفويض قد نقل عن علماء السلف الصالح ولم يترتب على ذلك بينهم تضليل ولا تبديع، فلماذا نجعله الآن سبياً لذلك؟! لماذا نجعله عقبة أمام وحدة أهل السنة والجماعة في وقت نحن فيه في أمس الحاجة إلى الوحدة؟!!

ولقد كنا قبل نتحاشى الخوض في هذه القضايا خشية أن ندخل العامة في متاهات لا حاجة بهم إلى الدخول فيها، سيما موضوع صفات الله تعالى والنصوص المتشابهة التي نهى السلف الصالح عن الخوض فيها، وأمرنا الناس بإمرارها وإرجاعها إلى الآيات والنصوص المحكمة، أما وقد خاض فيها البعض ووصفوا الله تعالى بما لا يليق وبما يستحيل في حقه تعالى، وأدخلوا العامة في ذلك، وضللوا أعلام الدين وعلماء الأمة فلا مناص من ولوج هذا الباب - ولو كنا كارهين - لبيان الحق في ذلك، والدفاع عن علماء الأمة.

إن أسباب الوحدة التي تملكها أمتنا لا تملكها أمة أخرى على الأرض، ودواعي الاجتماع والوفاق كثيرة جداً، وإنه لمن أشد الظلم والتجني أن نحمل كل هذه الأسباب والموجبات الجامعة الموحدة ونتجاهلها، ثم نركز على أمور فرعية في الفقه والعقائد ونجعلها من الأصول التي يبني عليها الدين، وتقوم عليها عقائد المسلمين.

إننا اليوم لفي أمس الحاجة إلى الوحدة والتجمع لكي تتخطى أمتنا عصر الظلمات الذي تتخبط فيه، ولن يتم لنا ذلك من خلال مناهج التبديع والتفسيق - جزافاً وبغير حق - لأعلام تاريخنا الذين هم بمنزلة العُمد والأسس لثقافتنا وحضارتنا، كما لن يتم لنا ذلك من خلال إشاعة المزيد من أسباب الفرقة المفتعلة، وتصنيف المسلمين إلى ضلال ومبتدعين وزنادقة وقبورين.. و.. و.. إلخ.

نعم، لن يتم للأمة خلاصها إلا بالرجوع إلى المنابع، والعودة إلى الأصالة والجدور، وإنشاء أجيال مسلمة تعرف للدين وعلماء الأمة أقدارها، أجيال تدرك قيمة الحوار للوصول إلى الحق، وتتسع صدورهم للاختلاف الذي هو من طبيعة البشر.

وهو ما كنا دائماً نسعى إلى ترسيخه في جميع بحوثنا، وهو أيضاً ما نَصَبُوا إليه في هذا البحث، معرضين عن كل ما قد يثيره البعض، ضارين عنه صفحاً، موقنين بأن الحوار الهادئ المعتضد بالدليل والحجة والبرهان هو أقصر طريق للحقيقة.

ولقد اعتمدنا في هذا البحث على جمع أقوال الأئمة الأعلام، وعزونا كل نصّ إلى قائله حرصاً على نزاهة المنهج، ولم يكن لنا من جهد. في الغالب. إلا في التبويب والترتيب وبعض التعليقات هنا وهناك، وما سوى ذلك فهو نصوص العلماء وكلماتهم موجهة إلى القارئ الكريم مخاطبة لعقله.

وعلى الجملة فإن الموضوع أكبر من أن تحيط به صفحات معدودات، بيد أن هذا ما سمح به المقام مراعاةً (لحساسية) الموضوع وخطورته!!.

وأخيراً.. فهذا البحث جهدُ المقلِّ عسى الله تعالى أن يبارك فيه وينفع قارئيه، كما بارك في الرسائل والبحوث التي سبقته، وأن يوفق تعالى إلى بحوث أخرى تساعد في إنارة الطريق إلى الله تعالى، وتساهم في توعيةٍ شرعيةٍ أصيلةٍ.

وبالله الحول والقوة، وإليه المفرج في درك كل طَلِبَةٍ، به نعتضد وعليه نعتمد، هو



حسبنا ونعم الوكيل.

* * * * *

مصطلح الأشاعرة

لفظ الأشاعرة يطلق على من سلك مسلك الإمام أبي الحسن الأشعري في الاعتقاد، لا تقليداً بل اهتداءً، فمثل الإمام أبي الحسن - رحمه الله تعالى - كمن عقد على طريق السلف لواءً ليهتدي به من يراه، فالانتساب إليه بمنزلة الانتساب إلى الإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد - رضوان الله عليهم - في الفروع الفقهية، إذ مع كونهم مختلفين في طرق الاستنباط واستخراج الأحكام، إلا أنهم متفقون على المصادر التي يصدرون عنها والموارد التي يردونها، وكذلك الإمام أبو الحسن الأشعري في أبواب أصول الدين، إنما هو أخذ من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وسائر على طريق السلف، والانتساب إليه إنما هو من حيث كونه أضاء تلك الطريق ونصب عليها نطاقاً وشهرها في الأمة بعد أن حاول طمسها أصحاب البدع والأهواء.

قال الإمام تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى (الطبقات 3/ 365):

(اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأياً ولم ينشئ مذهباً، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقاً وتمسك به وأقام الحجج والبراهين عليه فصار المقتدي به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً) اهـ.

ثم قال رحمه الله تعالى مبيناً أن هذه الطريقة عليها جل الأمة:

(وقد ذكر شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام أن عقيدته - يعني الأشعري - اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة، ووافقه على ذلك من أهل عصره شيخ المالكية في زمانه أبو عمرو بن الحاجب، وشيخ الحنفية جمال الدين الحصري) اهـ.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي رحمه الله تعالى وهو من الطبقة الثالثة من أتباع الإمام الأشعري (تبيين كذب المفتري 103، الطبقات الكبرى للتاج السبكي 397/3):

(.. إلى أن بلغت النبوة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمه الله فلم يحدث في دين الله حَدَثًا، ولم يأت فيه ببدعة، بل أخذ أقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في أصول الدين فنصرها بزيادة شرح وتبيين، وأن ما قالوا وجاء به الشرع في الأصول صحيح في العقول، بخلاف ما زعم أهل الأهواء من أن بعضه لا يستقيم في الآراء، فكان في بيانه تقوية ما لم يدل عليه من أهل السنة والجماعة، ونصرة أقاويل من مضى من الأئمة كأبي حنيفة وسفيان الثوري من أهل الكوفة، والأوزاعي وغيره من أهل الشام، ومالك والشافعي من أهل الحرمين، ومن نحوهما من الحجاز وغيره من سائر البلاد، وكأحمد بن حنبل وغيره من أهل الحديث، والليث بن سعد وغيره وأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري وأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري إمامي أهل الآثار وحفاظ السنن التي عليها مدار الشرع رضي الله عنهم أجمعين) اهـ.

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى (تبيين كذب المفتري ص 359):

(.. ولسنا نُسَلِّمُ أن أبا الحسن اخترع مذهباً خامساً، وإنما أقام من مذاهب أهل السنة ما صار عند المبتدعة دارساً، وأوضح من أقوال من تقدمه من الأربعة وغيرهم ما غدا ملتبساً، وجدد من معالم الشريعة ما أصبح بتكذيب من اعتدى منطمساً، ولسنا ننتسب بمذهبنا في التوحيد إليه على معنى أنا نقلده فيه ونعتمد عليه، ولكننا نوافقه على ما صار إليه من التوحيد لقيام الأدلة على صحته لا لمجرد التقليد، وإنما ينتسب منا من انتسب إلى مذهبه ليطمئن عن المبتدعة الذين لا يقولون به من أصناف المعتزلة والجهمية والكرامية والمشبهة والسالمية، وغيرهم من سائر طوائف المبتدعة وأصحاب المقالات الفاسدة المخترعة، لأن الأشعري هو الذي انتدب للرد عليهم حتى قمعهم

وأظهر لمن لا يعرف البدع بدعهم، ولسنا نرى الأئمة الأربعة الذين عنيتهم في أصول الدين مختلفين، بل نراهم في القول بتوحيد الله وتنزيهه في ذاته مؤتلفين، وعلى نفي التشبيه عن القديم سبحانه وتعالى مجتمعين، والأشعري - رحمه الله - في الأصول على منهاجهم أجمعين، فما على من انتسب إليه على هذا الوجه جناح، ولا يرجى لمن تبرأ من عقيدته الصحيحة فلاح، فإن عدتكم القول بالتنزيه وترك التشبيه تمشعراً فالموحدون بأسرهم أشعرية، ولا يضر عصاة انتمت إلى موحد مجرد التشنيع عليها بما هي منه بريئة) اهـ.

فانظر - رحمك الله - كيف جعل الانتساب إلى الإمام الأشعري تمييزاً عن أهل البدع والأهواء، وأنه ومن انتسب إليه على ما كان عليه السلف الصالح من الأربعة وغيرهم.

وقال أيضاً رحمه الله تعالى (المصدر السابق 397):

(وهم - يعني الأشاعرة - المتمسكون بالكتاب والسنة، التاركون للأسباب الجالبة للفتنة، الصابرون على دينهم عند الابتلاء والخنة، الظاهرون على عدوهم مع اطراح الانتصار والإحنة، لا يتركون التمسك بالقرآن والحجج الأثرية، ولا يسلكون في المعقولات مسالك المعطلة القدرية، لكنهم يجمعون في مسائل الأصول بين الأدلة السمعية وبراهين العقول، ويتجنبون إفراط المعتزلة ويتنكبون طرق المعطلة، ويَطْرَحُونَ تفريط المحسمة المشبهة، ويفضحون بالبراهين عقائد الفرق المموهة، وينكرون مذاهب الجهمية وينفرون عن الكرامية والسلمية، ويبتلون مقالات القدرية ويرذلون شُبُهَ الجبرية... فمذهبهم أوسط المذاهب، ومشرهم أعذب المشارب، ومنصبهم أكرم المناصب، ورتبتهم أعظم المراتب فلا يؤثر فيهم قدح قادح، ولا يظهر فيهم جرح

جارج) اهـ.

وقال الإمام المرتضى الزبيدي رحمه الله تعالى (إتحاف السادة المتقين 7/2):

(وليعلم أنّ كلاً من الإمامين أبي الحسن وأبي منصور - رضي الله عنهما -
وجزأهما عن الإسلام خيراً لم يبدعا من عندهما رأياً ولم يشتقا مذهباً إنما هما مقرران
لمذاهب السلف مناضلان عما كانت عليه أصحاب رسول الله ' ... وناظر كل
منهما ذوي البدع والضلالات حتى انقطعوا وولوا منهزمين) اهـ.

هؤلاء هم الأشاعرة أتباع الإمام أبي الحسن الأشعري، فمن هو هذا الإمام الفذ

الذي انتسبوا إليه؟

* * * * *

ترجمة الإمام أبي الحسن الأشعري

هو الإمام الحبر، التقي البر، ناصر السنة، وعلم الدين، وشعار المسلمين، علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن صاحب رسول الله . أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري . رضي الله عنه .

شيخ طريقة أهل السنة والجماعة وإمام المتكلمين، ولد رحمه الله سنة ستين ومئتين، وتبع أول أمره مذهب الجبائي المعتزلي، واستمر على الاعتزال أربعين سنة أو قريبا من ذلك، وبرع فيه حتى صار للمعتزلة إماماً، وعلى خصومهم حساماً، فلما أراد الله نصر دينه، وتأييد سنة نبيه ، بصره ببطلان مذهب الاعتزال فكانت تعرض له إشكالات على عقائد المعتزلة، فيسأل عنها أستاذيه فلا يجد عندهم أجوبة شافية، وهكذا إلى أن أراه الله تعالى وجه الحق، فخرج إلى الجامع وصعد المنبر وصاح بأعلى صوته: أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله تعالى لا يرى في الآخرة بالأبصار، وأن العباد يخلقون أفعالهم، وهأنا تائب من الاعتزال معتقد الرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم، معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي شيء على شيء، فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتيبي هذه، ولقد انخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبي هذا، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به، ودفع للناس الكتب التي ألفها على مذاهب أهل الحق، وطريقة الجماعة من الفقهاء والمحدثين.

قال العلماء: إن أهل البدع قبل الإمام أبي الحسن قد رفعوا رؤوسهم فلما ظهر عليهم رحمه الله حجزهم في أقماع السمسم.

وقد أخذ عنه رحمه الله خلق كثير من أعلام الأمة مثل الإمام أبي الحسن الباهلي البصري رحمه الله تعالى، والإمام أبي عبد الله بن مجاهد البصري رحمه الله تعالى، والإمام أبي محمد الطبري المعروف بالعراقي رحمه الله تعالى، والإمام أبي بكر القفال الشاشي رحمه الله تعالى، والإمام أبي سهل الصعلوكي النيسابوري رحمه الله تعالى وغيرهم.

وأخذ عن أصحابه أعلام وأئمة في الإسلام، مثل الإمام القاضي أبي بكر الباقلاني رحمه الله تعالى، والإمام أبي الطيب بن أبي سهل الصعلوكي رحمه الله تعالى، والإمام أبي علي الدقاق رحمه الله تعالى، والإمام الحاكم النيسابوري رحمه الله تعالى، والإمام أبي بكر بن فورك رحمه الله تعالى والحافظ أبي نعيم الأصبهاني رحمه الله تعالى، وغيرهم ممن تتزين بذكرهم المنابر، وتتعطر بسيرهم الدفاتر وكلهم خلف تلامذة هم إلى اليوم أعلام الدنيا ونجوم الهدى.

وعلى الجملة فقد انتهض لنصرة مذهبه أهل السنة والجماعة في جميع الأرض، وبلغ مذهبه ما بلغ الليل والنهار، لِمَا كان عليه من اقتفاء لآثار السلف رضوان الله عليهم، ورفعٍ للواء السنة.

ترك من المؤلفات شيئاً كثيراً، قيل إنه بلغت مؤلفاته أكثر من مئتين كتاب (1) توفي رحمه الله تعالى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وكل أهل السنة باكون عليه،

(1) انظر طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي 360/3 .

متوجعون لفقده، وكل أهل البدعة مرتاحون منه. رحمه الله ورضي عنه (1).

* * * * *

(2) اقتبسنا ترجمته رحمه الله تعالى من تبين كذب المفترى، وطبقات الشافعية للسبكي، ومفتاح السعادة.

هل مات الإمام علي عقيدة غير العقيدة التي كان عليها بعد توبته من الإعتزال؟

يرى البعض أن الإمام أبا الحسن الأشعري رحمه الله تعالى قد مرّ في حياته بثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة الاعتزال التي دامت إلى ما يقرب من سن الأربعين.

والثانية: مرحلة اتباعه لعبدالله بن سعيد بن كلاب.

والثالثة: مرحلة رجوعه إلى عقيدة السلف وأهل السنة.

ويبنون على هذه الدعوى أن الأشاعرة اتبعوا الإمام الأشعري في مرحلته الثانية فقط وهي التي كان فيها متبعاً لعبدالله بن سعيد! إذ عندهم أن عبدالله بن سعيد بن كلاب ليس من أهل السنة، وأن الأشاعرة متبعون له لا للإمام أبي الحسن لأن الإمام رجع عن عقيدة ابن كلاب في مرحلته الثالثة، وألّف على عقيدة السلف كتابه الإبانة وبعض كتبه الأخرى.

هذا تقرير هذه الدعوى، وقبل الشروع في إثبات بطلانها تاريخياً وعلمياً نفصل ما ورد فيها من قضايا، ثم نشرع في تفنيدها، لقد تضمنت هذه الدعوى ثلاث قضايا:

• **الأولى:** الإمام الأشعري مر بثلاث مراحل في حياته، الاعتزال ثم اتباعه لابن كلاب ثم أخيراً رجوعه إلى منهج السنة والجماعة، وهذه هي القضية الرئيسية، وهي تتضمن القضيتين التاليتين.

• **الثانية:** عبد الله بن سعيد بن كلاب ليس على منهج أهل السنة والجماعة.

• **الثالثة:** كتاب الإبانة يمثل المرحلة الأخيرة من حياة الإمام الأشعري⁽¹⁾، وهي مرحلة العودة إلى طريق السلف الصالح.

وللرد على القضية الأولى: وهي مرور الإمام بثلاث مراحل أو ثلاث حالات في حياته نقول:

إن الإمام الأشعري رحمه الله تعالى عَلَّمَ من أعلام المسلمين يشار إليه بالبنان، وتعد على كلماته الخناصر، فهو ليس بنكرة من الناس، ولا برجل مجهول يخفى على الناس أمره لا سيما في قضية مثل هذه التي نحن بصدددها، فلو كان الأمر كما جاء في الدعوى، وأنه مر بثلاث مراحل في حياته فلا بد أن يكون المؤرخون قد ذكروا هذا وبينوه، ولكان . حتماً. قد اشتهر عنه وانتشر كما ذاع وانتشر أمر رجوعه عن الاعتزال إذ لم يَبْقَ أحد ممن ترجم له إلا وذكر قصة صعوده المنبر وتبرّيه من الاعتزال، فهل ذكر أحد من المؤرخين شيئاً عن رجوع الإمام عن منهج عبدالله بن سعيد بن كلاب؟.

عند الرجوع إلى كتب التاريخ لا نجد أي إشارة إلى هذا لا من قريب ولا من بعيد، بل نجد المؤرخين كلهم مطبقين على أن الإمام أبا الحسن بعد هجره للاعتزال والمعتزلة رجع إلى مذهب السلف الصالح، وصنف على طريقتهم كتبه اللاحقة الإبانة وغيرها من الكتب التي صنفها في نصره مذهب أهل الحق.

(1) نحن نقول هذا من باب التسليم الجدلي، وإلا فإن الذي رجحه المحققون من الباحثين أن كتاب اللمع ألّفه الإمام الأشعري بعد الإبانة. انظر مقدمة كتاب اللمع للأستاذ حمودة غرابة. وانظر قول العلامة الكوثري في تعليقه على السيف الصقيل (ص 123)، وفي تعليقه على تبين كذب المفتري (ص 392)، والمقدمة التي وضعها الدكتورة فوقية حسين على كتاب الإبانة ص 79-80 وما بعدها.

قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى (تبيين كذب المفتري ص 127):

انتقل الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه من مذاهب المعتزلة إلى نصرته مذاهب أهل السنة والجماعة بالحجج العقلية، وصنّف في ذلك الكتب.. اهـ.

وقال عنه ابن خلكان (وفيات الأعيان 284/3):

(هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب السنة... وكان أبو الحسن أولاً معتزلياً ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة) اهـ.

وفي سير أعلام النبلاء (89/15) قال عنه الذهبي:

(وبلغنا أن أبا الحسن تاب وصعد منبر البصرة، وقال: إني كنت أقول بخلق القرآن... وإني تائب معتقد الردّ على المعتزلة) اهـ.

وعند العلامة ابن خلدون رحمه الله (المقدمة ص 853):

(إلى أن ظهر الشيخ أبو الحسن الأشعري وناظر بعض مشيختهم. أي المعتزلة. في مسائل الصلاح والأصلح، فرفض طريقتهم وكان على رأي عبدالله بن سعيد بن كلاب وأبي العباس القلانسي والحارث المحاسبي من أتباع السلف وعلى طريقة السنة) اهـ.

فأثبت أن الإمام بعد رجوعه عن الاعتزال كان على رأي عبدالله بن كلاب والقلانسي والمحاسبي وهؤلاء كلهم على طريقة السلف والسنة.

وهكذا كل كتب التاريخ التي ترجمت للإمام أبي الحسن، مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وطبقات الشافعية للسبكي وشذرات الذهب لابن العماد والكامل لابن الأثير وتبيين كذب المفتري لابن عساكر وترتيب المدارك للقاضي عياض وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة وطبقات الشافعية للأسنوي والدياج المذهب لابن فرحون ومرآة الجنان لليافعي وغيرها، كلها مطبقة على أن الإمام أبا الحسن بعد توبته من الاعتزال رجع إلى مذهب السلف والسنة.

أضف إلى ذلك، أن رجوع الإمام المزعوم هذا لو ثبت عنه لكان أولى الناس بمعرفته ونقله هم أصحابه وتلامذته، لأن أولى الناس بمعرفة الرجل هم خاصته وأصحابه وأتباعه الملازمون له، فهؤلاء هم أقرب الناس إليه وأعرفهم بأحواله وأقواله وآرائه، لا سيما في قضية مهمة مثل هذه القضية التي تتوفر الدواعي على نقلها، وتتحفز الأسماع على تلقفها، خاصة من إمام كبير مثل الإمام أبي الحسن، وعند الرجوع إلى أقوال أصحابه وأصحاب أصحابه أيضاً لا نجد أي إشارة تفيد ذلك، بل نجدهم متفقين على أن الإمام كان بعد هجره للاعتزال على منهج السلف والسنة الذي كان عليه المحاسبي وابن كلاب والقلاسي والكرابيسي وغيرهم، فهذه مؤلفات ناصر مذهب الأشعري القاضي أبي بكر الباقلاني رحمه الله تعالى كالإنصاف والتمهيد وغيرها، ومؤلفات ابن فورك ومؤلفات أبي بكر القفال الشاشي وأبي إسحق الشيرازي وأبي بكر البيهقي وغيرهم من أصحاب الإمام وأصحاب أصحابه وتلاميذهم ليس فيها أي ذكر أو إشارة لهذا الأمر الذي هو من الأهمية بمكان، فهل يعقل أن يرجع الإمام عن مذهبه ويهجره ثم لا يكون لهذه الحادثة المهمة أي ذكر عند أحد من أصحابه وتلاميذه وهو من هو جلاله وقدره؟! أم ثراه قد رجع عن ذلك سرّاً وهو الذي حين قرر هجر مذهب المعتزلة اعتلى منبر المعتزلة نفسه ليعلم ذلك على الملأ؟!!

كلا، ليس الأمر كما جاء في هذه الدعوى، بل الحق الذي لا مزية فيه هو أن الإمام لم يمرّ في حياته إلا بمرحلتين، الاعتزال ثم الرجوع إلى طريق السلف، وليس لمن يقول بخلاف هذا الأمر من دليل ولا شبهة دليل.

ومن يقول بهذه الدعوى يعتمد في قوله هذا على أسلوب الإمام في تأليف كتاب الإبانة وبعض الرسائل الأخرى، فقد اتبع الإمام فيها طريق التفويض الذي هو طريق جمهور السلف، فبنوا على هذا الأسلوب مخالفة الإمام الأشعري لآراء ابن كلاب الذي يتهمونه بأنه لم يكن على طريق السلف.

تُرى هل ما في الإبانة التي هي على طريق جمهور السلف، وهي من أواخر كتب الإمام أو هي آخرها⁽¹⁾، ما يناقض ما كان عليه عبدالله بن سعيد بن كلاب؟ أو بتعبير آخر، هل كان ابن كلاب على خلاف طريق السلف الذي ألف الإمام الأشعري الإبانة عليه؟

وهذا يجزئنا إلى القضية الثانية.

الرد على القضية الثانية:

هل كان عبدالله بن سعيد بن كلاب منحرفاً عن طريق السنة والسلف؟
نسلم أولاً أن الإمام الأشعري بعد تركه للاعتزال كان على طريق عبدالله بن سعيد بن كلاب، وهذا أمر يوافقنا عليه أصحاب الدعوى، ولكنهم يخالفوننا في أن طريق ابن كلاب وطريق السلف هما في حقيقة الأمر طريق واحد، لأن ابن كلاب كان من أئمة أهل السنة والجماعة السائرين على طريق السلف الصالح.

قال التاج السبكي في الطبقات (الطبقات 2 / 300):

(1) انظر الهامش ص 18.

(وابن كلاب على كل حال من أهل السنة... ورأيت الإمام ضياء الدين الخطيب والد الإمام فخر الدين الرازي قد ذكر عبد الله بن سعيد في آخر كتابه "غاية المرام في علم الكلام" فقال: ومن متكلمي أهل السنة في أيام المأمون عبد الله بن سعيد التميمي الذي دمر المعتزلة في مجلس المأمون وفضحهم ببيانه) اهـ.

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى (تبيين كذب المفتري ص 405):

(قرأت بخط علي بن بقاء الوراق المحدث المصري رسالة كتب بها أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني الفقيه المالكي - وكان مقدّم أصحاب مالك رحمه الله بالمغرب في زمانه - إلى علي بن أحمد بن إسماعيل البغدادي المعتزلي جواباً عن رسالة كتب بها إلى المالكيين من أهل القيروان يظهر نصيحتهم بما يدخلهم به في أقاويل أهل الاعتزال، فذكر الرسالة بطولها في جزءٍ وهي معروفة، فمن جملة جواب ابن أبي زيد له أن قال: ونسبت ابن كلاب إلى البدعة، ثم لم تحك عنه قولاً يعرف أنه بدعة فيوسم بهذا الاسم، وما علمنا من نسب إلى ابن كلاب البدعة، والذي بلغنا أنه يتقلد السنة ويتولّى الردّ على الجهمية وغيرهم من أهل البدع يعني عبدالله بن سعيد بن كلاب) اهـ.

وهذه شهادة عظيمة من الإمام ابن أبي زيد رحمه الله لابن كلاب أنه يتقلد السنة ويردّ على المبتدعة، وأنه لم يعلم من نسب إليه البدعة.

وعلق العلامة الكوثري رحمه الله تعالى في هامش الصفحة معرّفياً بابن كلاب قال (المصدر السابق): (.. كان إمام متكلمة السنة في عهد أحمد، وممن يرافق الحارث بن أسد، ويشنع عليه بعض الضعفاء في أصول الدين..) ثم بيّن المسائل التي يشنع عليه بسببها وأن كلامه فيها ليس ببعيد عن الشرع والعقل.

وقال ابن قاضي شهبة (طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة 1 / 78):
(كان من كبار المتكلمين ومن أهل السنة، وبطريقته وطريقة الحارث
المحاسبي اقتدى أبو الحسن الأشعري) اهـ.
وقال عنه جمال الدين الأسنوي (طبقات الشافعية للأسنوي 2 / 178):
(كان من كبار المتكلمين ومن أهل السنة... ذكره العبادي في طبقة أبي
بكر الصيرفي، قال: إنه من أصحابنا المتكلمين) اهـ.
وقال الإمام الحافظ الذهبي (سير أعلام النبلاء 11 / 175):
(والرجل أقرب المتكلمين إلى السنة، بل هو في مناظرهم) اهـ.
علّق الشيخ شعيب الأرنؤوط على هذا الكلام قائلاً: (كان إمام أهل السنة في
عصره، وإليه مرجعها، وقد وصفه إمام الحرمين في كتابه " الإرشاد " بأنه من
أصحابنا) اهـ.
ولقد مر معنا قول العلامة ابن خلدون (المقدمة ص 853):
(إلى أن ظهر الشيخ أبو الحسن الأشعري... وكان على رأي عبد الله بن
سعيد بن كلاب وأبي العباس القلانسي والحارث المحاسبي من أتباع السلف
وعلى طريقة السنة) اهـ.
فوصفه بأنه من أتباع السلف، وأن الإمام الأشعري كان على رأيه ورأي
القلانسي والمحاسبي وهؤلاء من أتباع السلف وعلى طريق السنة.
وقال العلامة كمال الدين البياضي رحمه الله تعالى (إشارات المرام من عبارات الإمام
ص23):
(لأن الماتريدي مفضّل لمذهب الإمام . يعني أبا حنيفة . وأصحابه المظهرين قبل

الأشعري لمذهب أهل السنة، فلم يخلُ زمان من القائمين بنصرة الدين وإظهاره.. وقد سبقه . يعني الأشعري . أيضاً في ذلك . يعني في نصرة مذهب أهل السنة . الإمام أبو محمد عبدالله بن سعيد القطان.. اهـ.

أي أن الإمام ابن كلاب كان قبل الإمام أبي الحسن في نصرة الدين وإظهار السنة.

وقال الحافظ ابن حجر في (لسان الميزان 3/ 291) في ترجمته، بعد أن نقل قول ابن النديم: إنه . يعني ابن كلاب . من الحشوية.

قال الحافظ: (يريد من يكون على طريق السلف في ترك التأويل للآيات والأحاديث المتعلقة بالصفات، ويقال لهم المفوضة) اهـ.

وقال الإمام الشهرستاني رحمه الله تعالى (الملل والنحل ص81):

(حتى انتهى الزمان إلى عبدالله بن سعيد الكلابي وأبي العباس القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي وهؤلاء كانوا من جملة السلف، إلا أنهم باشروا علم الكلام وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين أصولية، وصنّف بعضهم ودرّس بعضٌ، حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري وبين أستاذه مناظرة في مسألة من مسائل الصلاح والأصلح، فتنحاصما وانحاز الأشعري إلى هذه الطائفة، فأيد مقالتهم بمنهج كلامية، وصار ذلك مذهباً لأهل السنة والجماعة، وانتقلت سمة الصفاتية إلى الأشعرية) اهـ.

بل نزيد على ما مرّ ونقول: ليس الإمام الأشعري وحده الذي كان على طريق الإمام ابن كلاب، كلا، بل كان على نفس المعتقد أئمة كبار مثل الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى (الفتح 1/293):

(البخاري في جميع ما يورده من تفسير الغريب إنما ينقله عن أهل ذلك الفن كأبي عبيدة والنضر بن شميل والفراء وغيرهم، وأما المباحث الفقهية فغالبيتها مستمدة له من الشافعي وأبي عبيد وأمثالهما، وأما المسائل الكلامية فأكثرها من الكرابيسي وابن كُلاب ونحوهما) اهـ.

هذه نصوص واضحة بينة في أن الإمام عبدالله بن سعيد بن كلاب كان على طريق السلف والسنة.

القرآن كلام الله غير مخلوق، واللفظ به مخلوق:

فيذا كان الأمر كذلك كما بيّن هؤلاء الأئمة، فما السبب في اتهام عبدالله بن سعيد بن كلاب بمخالفة طريق السلف؟

يقول ابن عبدالبر في بيان شيء من ذلك أثناء ترجمة الإمام الكرابيسي (الانتقاء ص165):

(وكانت بينه . يعني الكرابيسي . وبين أحمد بن حنبل صداقة وكيدة، فلمّا خالفه في القرآن عادت تلك الصداقة عداوة، فكان كلُّ واحد منهما يطعن على صاحبه، وذلك أن أحمد كان يقول: من قال القرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال القرآن كلام الله ولا يقول غير مخلوق ولا مخلوق فهو واقفي، ومن قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع. وكان الكرابيسي وعبدالله بن كُلاب وأبو ثور وداود بن علي وطبقاتهم يقولون: إن القرآن الذي تكلم الله به صفة من صفاته لا يجوز عليه الخلق، وإن تلاوة التالي وكلامه بالقرآن كسب له وفعل له وذلك مخلوق وإنه حكاية عن كلام الله... وهجرت الحنبلية أصحاب أحمد بن حنبل حسيناً الكرابيسي وبدّعوه وطعنوا عليه وعلى كل من قال بقوله في ذلك) اهـ.

هذا هو سبب الطعن والتشنيع على عبدالله بن كلاب ووصفه بأنه لم يكن على طريق السنة والسلف، إلا أن هذا القول الذي بُدع بسببه لا يقتضي وصفه بالبدعة أو أنه على غير طريق السلف، لا سيما أن مسألة اللفظ بالقرآن كان يقول بها ثلة من أكابر أمة الإسلام مثل الذين ذكرهم ابن عبدالبر، وممن كان يقول بذلك أيضاً الإمام البخاري والإمام مسلم والحارث المحاسبي ومحمد بن نصر المروزي وغيرهم، وما الفتنة التي حدثت بين البخاري وشيخه الذهلي إلا بسبب هذه المسألة، نعني مسألة اللفظ، ولقد صنّف الإمام البخاري في هذه المسألة كتابه "خلق أفعال العباد" لإثبات رأيه فيها والردّ على مخالفيه.

أما الإمام مسلم فقد كان يظهر القول باللفظ ولا يكتمه. (انظر سير أعلام النبلاء 453/ 12 وما بعدها، 572/12).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في ترجمة الكرابيسي (طبقات الفقهاء الشافعيين 133/1):

(وأن أحمد بن حنبل كان تكلم فيه بسبب مسألة اللفظ، وكان هو أيضاً يتكلم في أحمد، فتجنّب الناس الأخذ عنه لهذا السبب. قلت: الذي رأيت عنه أنه قال كلام الله غير مخلوق من كل الجهات إلا أن لفظي بالقرآن مخلوق، ومن لم يقل [أي يعتقد]: إن لفظي بالقرآن مخلوق فهو كافر. وهذا هو المنقول عن البخاري وداد بن علي الظاهري، وكان الإمام أحمد يسدّ في هذا الباب لأجل حسم مادة القول بخلق القرآن) اهـ.

وممن كان يقول باللفظ أيضاً الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى، وهي من المسائل التي نقم عليه بسببها بعض متعصبة الحنابلة، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى (المصدر السابق 226/1):

(كان قد وقع بينه - الطبري - وبين الحنابلة أظنه بسبب مسألة اللفظ، واتهم بالتشيع، وطلبوا عقد مناظرة بينهم وبينه، فجاء ابن جرير لذلك ولم يجيء منهم أحد، وقد بالغ الحنابلة في هذه المسألة وتعصبوا لها كثيراً، واعتقدوا أن القول بها يفضي إلى القول بخلق القرآن، وليس كما زعموا، فإن الحق لا يحتاط له بالباطل، والله أعلم) اهـ.
(وانظر في محنة ابن جرير مع الحنابلة البداية والنهاية 145/11، الكامل لابن الأثير 8/7، السير 272/14 . 277، الوابي بالوفيات 284/2).

نعم، فإن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق وهو صفة من صفات ذاته العلية، إلا أنه لا يصح أن يحتاط لهذا الحق بالباطل الذي هو إنكار حدوث وخلق ما قام بالمخلوق، ثم التشنيع على من يقول بذلك!

على أية حال الحق في هذه القضية مع الكرايسسي وابن كلاب والبحاري ومسلم وأبي ثور وداود والمحاسي والطبري وغيرهم ممن كان على طريقتهم، أما الإمام أحمد رضي الله عنه - ومن قال بقوله - فكلامه محمول على سدّ باب الذريعة لكي لا يتوسل بالقول باللفظ إلى القول بخلق القرآن.

قال الإمام الذهبي (السير 82/12، وانظر أيضاً السير 510/11):

(ولا ريب أن ما ابتدعه الكرايسسي وحرره في مسألة اللفظ وأنه مخلوق هو حق، لكن أباه الإمام أحمد لثلاً يُتذرع به إلى القول بخلق القرآن فسدّ الباب) اهـ.
وقال أيضاً (ميزان الاعتدال 544/1): (وكان يقول . يعني الكرايسسي . القرآن كلام الله غير مخلوق، ولفظي به مخلوق، فإن عنى التلّفظ فهذا جيد، فإن أفعالنا مخلوقة، وإن قصد الملفوظ بأنه مخلوق فهذا الذي أنكره أحمد والسلف وعدّوه تجهماً) اهـ.
ولا ريب أن مراد الكرايسسي وابن كلاب والبحاري ومسلم وأبي ثور وداود ومن

كان على قولهم لاريب أن مرادهم هو الأول، وعلى الجملة فإن القضية أهون من أن يُبدع من أجلها.

وقال أيضا (السير 510/11) بعد أن نقل قول المحافظ أبي بكر الأعيان: مشايخ خراسان ثلاثة: قتيبة، وعلي بن حجر، ومحمد بن مهران الرازي، ورجالها أربعة: عبدالله بن عبدالرحمن السمرقندي ومحمد بن إسماعيل البخاري قبل أن يظهر منه ما ظهر... الخ

قال الذهبي معلقاً عليه: (والذي ظهر من محمد - يعني البخاري - أمرٌ خفيف من المسائل التي اختلف فيها الأئمة في القول في القرآن وتسمى مسألة أفعال التالين، فجمهور الأئمة والسلف والخلف على أن القرآن كلام الله المنزل غير مخلوق وبهذا ندين الله) اهـ.

ولا يلزم من هجر الإمام أحمد لهؤلاء الأئمة أن يكونوا على غير طريق السلف، لا سيما أن الحق معهم فيما ذهبوا إليه كما قرره الإمام الذهبي.

وقال أيضا (سير أعلام النبلاء 290/11):

(فقد كان هذا الإمام [يعني أحمد] لا يرى الخوض في هذا البحث خوفا من أن يُتدرّع به إلى القول بخلق القرآن، والكف عن هذا أولى. آمنا بالله تعالى وبملائكته وبكتبه ورسوله وأقداره والبعث والعرض على الله يوم الدين. ولو بسط هذا السطر وحُرِّرَ وقُرِّرَ بأدلته لجاء في خمس مجلدات، بل ذلك موجود مشروح لمن رآه. والقرآن فيه شفاء ورحمة للمؤمنين. ومعلوم أن التلفظ شيء من كسب القارئ غير الملفوظ، والقراءة غير الشيء المقروء، والتلاوة وحسنها وتجويدها غير المتلو، وصوت القارئ من كسبه فهو يُحدث [يعني يفعل، وليس الإحداث المرادف للخلق كما تقول المعتزلة] التلفظ

والصوت والحركة والنطق، وإخراج الكلمات من أدواته المخلوقة، ولم يحدث كلمات القرآن ولا ترتيبه ولا تأليفه ولا معانيه).

ثم روى عن الحاكم بسنده إلى فوران صاحب أحمد أنه قال :

سألني الأثرم وأبو عبدالله المعيطي أن أطلب من أبي عبدالله [يعني أحمد] خلوة، فأسأله فيها عن أصحابنا الذين يفرقون بين اللفظ والمحكي. فسألته ، فقال : القرآن كيف تُصَرِّفَ في أقواله وأفعاله فغير مخلوق، فأما أفعالنا فمخلوقة. قلت [القائل فوران] : فاللفظية تعدُّهم يا أبا عبدالله في جملة الجهمية ؟ فقال : لا . الجهمية الذين قالوا: القرآن مخلوق اهـ.

وفي الأسماء والصفات للبيهقي ص 266 عن عبدالله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يقول: (من قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن فهو كافر) علق الحافظ البيهقي قائلا : (قلت : هذا تقييد حفظه عنه ابنه عبدالله وهو قوله: يريد به القرآن. فقد غفل عنه غيره ممن حكى عنه في اللفظ خلاف ما حكينا حتى نسب إليه ما تبرأ منه فيما ذكرنا) اهـ.

وقال الإمام البخاري رحمه الله تعالى (خلق أفعال العباد ص 43) :

(فأما ما احتج به الفريقان لمذهب أحمد ويدعيه كل لنفسه فليس بثابت كثير من أخبارهم، وربما لم يفهموا دقة مذهبه، بل المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق وما سواه مخلوق، وأنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنبوا أهل الكلام والخوض والتنازع إلا فيما جاء به العلم وبَيَّنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم) اهـ.

وإننا متيقنون بأنهم رحمهم الله تعالى لم يقولوا هذا القول دون أن تدعو لذلك حاجة، كلا، وحاشاهم أن يتكلموا بشيء سكت عنه الصحابة والتابعون، لكنهم لما

رأوا الناس تقحموا هذا الباب، وخاضوا في هذا الأمر، وحملوه على غير وجهه، اضطروا إلى الكلام فيه تبيناً للحق، وكفّاً للناس عن ذلك.

قال العلامة الكوثري رحمه الله تعالى (في تعليقه على تبين كذب المفتري هامش(2) من الصفحة / 406):

(أما كلام أحمد في ابن كلاب وصاحبه [يعني الحارث المحاسبي] فلكرهته الخوض في الكلام وتورّعه منه، ولكن الحق أن الخوض فيه عند الحاجة متعيّنٌ على خلاف ما يرتبه أحمد) اهـ.

الخلاصة أن الأمر خفيف كما وصفه الحافظ الذهبي، وأن هذه المسألة مما اختلفت فيها أقوال الأئمة، وهم متفقون جميعاً على أن القرآن الذي هو صفة الرحمن وكلامه تعالى غير مخلوق.

بهذا يتبين أن الإمام ابن كلاب لم يكن وحده في هذا الأمر الذي ذهب إليه، بل كان على رأيه كبار أئمة الدين، وبهذا يُعلم أيضاً أنه لم يتدع أو يخالف منهج السلف والسنة، بل هو من أكابر أهل السنة والجماعة السائرين على خطى السلف الصالح كما مرّ من أقوال العلماء فيه.

فإذا كان الأمر كذلك، فمن أين جاء القول بأن الإمام الأشعري قد ترك طريقته وآراءه؟!

وهذا السؤال يجزنا إلى الحديث عن القضية الثالثة.

الردّ على القضية الثالثة:

كتاب الإبانة هو دليل ومعتمد من يقول بمرور الإمام الأشعري بثلاث مراحل في حياته، والذي لا ريب فيه أن الإمام قد سلك في هذا الكتاب وفي غيره من الرسائل

التي نسبت له أسلوباً مختلفاً في التأليف، فهو في الغالب قد سلك مسلك جمهور السلف في المتشابهات، نعني بذلك أنه قد أخذ بطريق التفويض، ففهم البعض من ذلك أن الإمام قد رجع عن طريق ابن كلاب الذي كان عليه إلى طريق السلف! ونحن قد أثبتنا في الحديث حول القضية الثانية أن ابن كلاب لم يكن مخالفاً للسلف بل هو منهم وعلى طريقهم وسالكٌ لمسلك التفويض كما مر من قول الحافظ ابن حجر في الرد على ابن النديم حين وصف ابن كلاب بأنه من الحشوية، قال: (يريد من يكون على طريق السلف في ترك التأويل ... ويقال لهم المفوضة) اهـ (لسان الميزان 291/3)، وهذا كافٍ في الرد لمن تأمل وأنصف.

لكننا نزيد على ذلك ونقول:

إن كتاب الإبانة الذي هو معتمد أصحاب هذه الدعوى، وهو الدليل عندهم على رجوع الإمام عن طريق ابن كلاب، نقول: إن هذا الكتاب بذاته ينقض دعوى رجوع الإمام عن هذا الطريق، لأنه مؤلف على طريقة ابن كلاب وعلى منهجه، فكيف يرجع عن طريق ابن كلاب ثم يؤلف آخر كتبه على طريقته؟! قال الحافظ ابن حجر في (لسان الميزان 291/3) (وعلى طريقته . يعني ابن كلاب . مشى الأشعري في كتاب الإبانة) اهـ .

وهذا يزيدنا يقيناً على يقين بأن الإمام ابن كلاب كان على طريق السلف الصالح ومن أئمتهم، لأن الإبانة التي ألّفها الإمام الأشعري في آخر حياته على منهج السلف هي مؤلفة على طريقة الإمام ابن كلاب، وهذا يقتضي قطعاً أن طريق السلف وطريق ابن كلاب هما في حقيقة الأمر طريق واحد وهو ما كان عليه الإمام الأشعري بعد رجوعه عن الاعتزال.

أي أن الإمام لم يمرّ بثلاث مراحل في حياته، بل هما مرحلتان فقط، مرحلة

الاعتزال ثم أعقبتها مرحلة العودة إلى طريق السلف التي كان عليها ابن كلاب والمحاسبي والقلانسي والكرايبيسي والبخاري ومسلم وأبو ثور والطبري وغيرهم، وهي المرحلة التي أَلَّفَ الإمام فيها كتاب الإبانة.

ويُروى أن الإمام الأشعري عندما أَلَّفَ الإبانة رفضها بعض حنابلة⁽¹⁾ بغداد تعصّباً ولم يقبلوها منه (انظر سير أعلام النبلاء 90/15، طبقات الحنابلة 18/2، الوافي بالوفيات 146/12) وهذا يؤيد ما مرَّ من أن الإبانة مؤلَّفة على طريقة ابن كلاب الذي هجره بعض الحنابلة فيمن هجره من الأئمة لأجل مسألة اللفظ وأخذهم بعلم الكلام للرد على المخالفين من المعتزلة وغيرهم.

وهذا الذي ذكرناه عن كتاب الإبانة، إنما أردنا به الإبانة التي صنَّفها الإمام، وليست الإبانة المتداولة والمطبوعة اليوم، وذلك لما حدث على هذا الكتاب من التحريف والنقص والزيادة.

قال العلامة الكوثري رحمه الله تعالى في مقدمة كتاب " تبيين كذب المفتري " :

(والنسخة المطبوعة في الهند من الإبانة نسخة مصحفة محرفة تلاعبت بها الأيدي

(1) قيدنا هذا الرفض بأنه من بعض الحنابلة، لأنه لم تنزل طائفة كبيرة من الحنابلة يوالون الإمام الأشعري ويحبونه وينتسبون إليه، قال الحافظ ابن عساكر في " التبيين " ص 389 أثناء ردّه على الأهوازي الذي استشهد بالقصة من أجل إثبات رفض الحنابلة للإمام الأشعري وكتابته الإبانة، ما نصّه: (فلو كان الأمر كما قال لنقلوه عن أشياخهم وأظهروه، ولم أزل أسمع ممن يوثق به أنه . الإمام . كان صديقاً للتميميين سلف أبي محمد رزق الله بن عبد الوهاب ابن عبدالعزيز بن الحارث، وكانوا له مكرمين، وقد ظهر أثر بركة تلك الصحبة على أعقابهم، حتى نسب إلى مذهبه أبو الخطاب الكلوزاني من أصحابهم، وهذا تلميذ أبي الخطاب أحمد الحربي يخبر بصحة ما ذكرته ويني، وكذلك كان بينهم وبين صاحبه أبي عبدالله بن مجاهد وصاحب صاحبه أبي بكر بن الطيب . الباقلاني . من المواصلة والمؤاكلة ما يدلّ على الاختلاق من الأهوازي..). اهـ. وانظر أيضاً ص 163 من نفس الكتاب.

الأثيمة، فيجب إعادة طبعها من أصل موثوق) اهـ.

وقال أيضاً (مقدمته على كتاب إشارات المرام من عبارات الإمام للعلامة البيضاوي):

(ومن العزيز جداً الظفر بأصل صحيح من مؤلفاته على كثرتها البالغة، وطبع كتاب الإبانة لم يكن من أصل وثيق، وفي المقالات المنشورة باسمه وقفة) اهـ. (وانظر أيضاً تعليقه على السيف الصقيل ص 155-196).

وهذا أيضاً ما ذهب إليه الدكتور عبد الرحمن بدوي مؤيداً للعلامة الكوثري (مذاهب الإسلاميين 516/1) قال:

(وقد لاحظ الشيخ الكوثري بحق أن النسخة المطبوعة في الهند.. تلاعبت بها الأيدي الأثيمة..) اهـ.

كما لاحظ ذلك غيرهم من الدارسين (انظر مذاهب الإسلاميين 517/1 وما بعدها).

وللشيخ وهبي غاوجي حفظه الله رسالة في هذا الموضوع بعنوان " نظرة علمية في نسبة كتاب الإبانة جميعه إلى الإمام أبي الحسن " أتى فيها بأدلة موضوعية تدل على أن قسماً كبيراً مما في الإبانة المتداولة اليوم بين الناس لا يصح نسبته للإمام الأشعري.

وقد طبع كتاب الإبانة طبعة قوبلت على أربع نسخ خطية بتحقيق الدكتورة فوقية حسين، وهي طبعة وإن كانت أحسن حالاً من المطبوعة قبل إلا أنها لم تخل من التحريف والنقص والزيادة أيضاً، وهذا لعله يصحح ما ذهب إليه العلامة الكوثري رحمه الله تعالى حين قال (ومن العزيز جداً الظفر بأصل صحيح من مؤلفاته على كثرتها البالغة).

وقد نقل الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى في كتاب تبين كذب المفتري فصلين

من الإبانة، وعند مقارنة الإبانة المطبوعة المتداولة مع طبعة الدكتور فوقية مع الفصلين المنقولين عند ابن عساكر يتبين بوضوح قدر ذلك التحريف الذي جرى على هذا الكتاب.

وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

* جاء في الإبانة المطبوعة ص 16 ما نصُّه (وأنكروا أن يكون له عينان مع قوله تجري بأعيننا..). اهـ. هكذا بالثنائية!

* وعند ابن عساكر ص 157 (وأنكروا أن يكون له عين...). بإفراد لفظ العين.

* وجاء في المطبوعة ص 18 (وأن له عينين بلا كيف..).

* وفي طبعة الدكتور فوقية ص 22 (وأن له سبحانه عينين بلا كيف) هكذا، كلاهما بالثنائية!

* وعند ابن عساكر ص 158 (وأن له عيناً بلا كيف..). بإفراد لفظ العين.

والإفراد هو الموافق للكتاب والسنة وأقوال السلف، وهذا نصُّ واضح في التلاعب بنسخ الكتاب، ولفظ العينين لم يرد في القرآن ولا في السنة، ومن ثنى فقد قاس الله تعالى على المحسوس المشاهد من الخلق، تعالى الله وتقدس عن ذلك.

قال العلامة الكوثري رحمه الله تعالى في تعليقه على كتاب الأسماء والصفات للبيهقي في هامش ص 313 : (لم ترد صيغة الثنية في الكتاب ولا في السنة، وما يروى عن أبي الحسن الأشعري من ذلك فمدسوس في كتبه بالنظر إلى نقل الكافة عنه) ثم قال: (قال ابن حزم: لا يجوز لأحد أن يصف الله عز وجل بأن له عينين لأن النص لم يأت بذلك) اهـ.

وقال ابن عقيل معلقاً على حديث الدجال (دفع شبه التشبيه ص 263):

(يحسب بعض الجهلة أنه . صلى الله عليه وسلم . لما نفى العور عن الله عز وجل أثبت من دليل الخطاب أنه ذو عينين، وهذا بعيد من الفهم، إنما نفى العور من حيث نفى النقائص..). اهـ.

وقال ابن الجوزي في الرد على من أثبت لله تعالى عينين (دفع شبه التشبيه ص114):

قلت: وهذا ابتداع لا دليل لهم عليه، وإنما أثبتوا عينين من دليل الخطاب في قوله عليه الصلاة والسلام: " وإن الله ليس بأعور " وإنما أراد نفى النقص عنه تعالى). اهـ.

ومن أمثلة التحريف فيه أيضاً القدح بالإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه: فقد جاء في الإبانة المطبوعة ص57 (وذكر هارون بن إسحاق الهمداني عن أبي نعيم عن سليمان بن عيسى القاري عن سفيان الثوري، قال: قال لي حماد بن أبي سليمان: بلغ أبا حنيفة المشرك أنني منه بريء. قال سليمان: ثم قال سفيان: لأنه كان يقول القرآن مخلوق).

وذكر سفيان بن وكيع قال عمر بن حماد بن أبي حنيفة قال أخبرني أبي قال: الكلام الذي استتاب فيه ابن أبي ليلى أبا حنيفة هو قوله: القرآن مخلوق. قال: فتأب منه وطاف به في الخلق. قال أبي: فقلت له كيف صرت إلى هذا؟ قال: خفت أن يقوم عليّ، فأعطيته التقيّة.

وذكر هارون بن إسحاق قال سمعت إسماعيل بن أبي الحكم يذكر عن عمر بن عبيد الطنافسي أن حمّاداً . يعني ابن أبي سليمان . بعث إلى أبي حنيفة: إني بريء مما تقول، إلا أن تتوب. وكان عنده ابن أبي عقبة، قال، فقال: أخبرني جارك أن أبا حنيفة دعاه إلى ما استتيب منه بعد ما استتيب.

وذكر عن أبي يوسف قال: ناظرت أبا حنيفة شهرين حتى رجعت عن خلق القرآن اهـ.

تري هل نحن بحاجة إلى إثبات كذب مثل هذه الأخبار وأنها مدسوسة في كتاب الإمام الأشعري، أم أنه يكفي عزوها إلى الإبانة المطبوعة لكي يُعلم تحريفها وتلاعب الأيدي فيها؟!!

وفي طبعة الدكتور فوقية ص 90-91 جاء بعد الخبر الأول بعد قول سفيان: لأنه يقول القرآن مخلوق. ما نصُّه: (وحاشى الإمام الأعظم أبو حنيفة رضي الله عنه من هذا القول بل هو زور وباطل فإن أبا حنيفة من أفضل أهل السنة) اهـ.

وجاء فيها بعد قول ابن أبي عقبة: أخبرني جارك أن أبا حنيفة دعاه لما استتيب منه بعد ما استتيب. ما نصُّه: (وهذا كذب محض على أبي حنيفة رضي الله عنه) اهـ.

قال العلامة الكوثري رحمه الله تعالى في تعليقه على كتاب الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة، في هامش ص 49، ما نصُّه (ومن غريب التحريف ما دُسَّ في بعض نسخ الإبانة للأشعري كما دُسَّ فيها أشياء أخر من أن حماد بن أبي سليمان قال "بلغ أبا حنيفة المشرك أني بريء من دينه" وكان يقول بخلق القرآن. فإن لفظ حماد "بلغ أبا فلان" لا أبا حنيفة! كما في أول خلق الأفعال للبخاري، وجعل من لا يخاف الله لفظ "أبا حنيفة" في موضع "أبا فلان" والله أعلم من هو أبو فلان هذا، وما هي المسألة..) اهـ.

وفي كتاب الاعتقاد للبيهقي (ص 112) :

(رَوَيْنَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَابِقٍ أَنَّهُ قَالَ : سَأَلْتُ أَبَا يُوسُفَ فَقُلْتُ : أَكَانَ

أبو حنيفة يقول القرآن مخلوق؟ فقال : معاذ الله، ولا أنا أقوله. فقلت : أكان يرى رأي جهم؟ فقال : معاذ الله، ولا أنا أقوله. رواه ثقات (اهـ).

وقال الشيخ وهبي غاوجي حفظه الله (نظرة علمية في نسبة كتاب الإبانة جميعه...)

ص(20):

(ولا بأس أن نقول: لو كان الإمام الأشعري رحمه الله تعالى نسب حقاً إلى الإمام . يعني أبا حنيفة . القول بخلق القرآن لما كان للإمام الأشعري تلك المكانة العالية عند الحنفية أتباع الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى . فلا تلتفت أيها القارئ إلى تلك النقول المبتورة مبتدأً والباطلة سنداً، وأحسن الظن بالإمام الأشعري كما تحسن الظن بإمام الأئمة الفقهاء وسائر الأئمة رضوان الله تعالى عليهم. وتذكر أنه أُدجِل الكثير من الأباطيل على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، رُكِّبت لها أسانيد باطلة، لكلمات باطلة. كذلك ولا تنس أنه حُشِر في كتب كثير من العلماء كلماتٌ وعبارات وحذف منها كلمات وعبارات حتى في حياة أصحابها) اهـ.

ومن هذه الأمثلة أيضاً ما جاء في الطبعة المتداولة عند ذكر الاستواء ص69 (إن) قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له نقول: إن الله عز وجل مستوٍ على عرشه كما قال (الرحمن على العرش استوى)

وفي طبعة الدكتور فوقية ص105 (.. نقول إن الله عز وجل استوى على عرشه استواءً يليق به من غير حلول ولا استقرار..)

فالعبرة الأخيرة محذوفة من الطبعة المتداولة!!

وفي ص73 من الإبانة المتداولة (فكل ذلك يدل على أنه تعالى في السماء مستوٍ على عرشه، والسماء بإجماع الناس ليست الأرض، فدل على أن الله تعالى منفرد بوحدانيتها مستوٍ على عرشه) اهـ.

وفي طبعة الدكتور فوقية ص 113 (فدل على أنه تعالى منفرد بوحدانيتها مستوٍ على عرشه استواءً منزهاً عن الحلول والاتحاد) اهـ.

إلى غير ذلك من عشرات الأمثلة الدالة دلالة قاطعة على تحريف الكتاب، والقاضية بعدم جواز اعتبار معظمه ممثلاً لعقيدة الإمام الأشعري إلا في ما وافق قول الكافة من أهل العلم والنقل عنه.

فإذا ثبت . كما مرَّ معنا . تاريخياً أن الإمام بعد رجوعه عن الاعتزال كان على منهج السلف وأهل السنة، وإذا ثبت أيضاً أن الإمام ابن كلاب كان من أئمة السلف وعلى نهج السنة، وإذا ثبت أيضاً أن كتاب الإبانة الذي بنيت عليه هذه الدعوى من أساسها هو في حقيقة الأمر مؤلف على طريقة ابن كلاب التي هي ذاتها طريقة السلف، إذا ثبت ذلك ثبت بناءً عليه أن الإمام لم يمرَّ بثلاث مراحل في حياته، وإنما هما مرحلتان مرحلة الاعتزال في بداية حياته ثم مرحلة عودته ورجوعه إلى طريق السلف.

ولا نعلم لمن يقول بهذه الدعوى دليلاً على ما ذهب إليه إلا الاعتماد على أسلوب الإبانة وبعض الرسائل الأخرى والطريقة التي كتبت عليها، لأن الإمام قد سلك في الإبانة طريق التفويض، وهي طريقة جمهور السلف، وهي في حقيقتها لا تنافي بينها وبين طريق التأويل بشرطه، والأشاعة يعتقدون كل ما في الإبانة . نعني الإبانة الصحيحة التي كتبها الإمام وليست الإبانة المخرفة . ويعقدون عليه خصائصهم، إذ كلُّ من التفويض والتأويل حق لا اعتراض عليه، وكلا الطريقتين مأثور عن الصحابة والسلف كما سيأتي بيانه، وكلا الطريقتين متفقان على التنزيه بعد إثبات ما أثبتته الله تعالى لنفسه، وكلاهما متفقان على استبعاد الظاهر وما يعهده الخلق من عالمهم.

قال الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى (التبيين ص 388):

(بل هم . يعني الأشاعرة . يعتقدون ما فيها . أي الإبانة . أسدّ اعتقاد، ويعتمدون عليها أشدّ اعتماد، فإنهم بحمد الله ليسوا معتزلة ولا نفاة لصفات الله معطلة، لكنهم يثبتون له سبحانه ما أثبتته لنفسه من الصفات، ويصفونه بما اتصف به في محكم الآيات، وبما وصفه به نبيّه صلى الله عليه وسلم في صحيح الروايات، وينزهونه عن سمات النقص والآفات) اهـ.

وهذا الذي قاله الحافظ ابن عساكر منطبق على كتاب الإبانة الذي ألفه الإمام، أما ما يوجد اليوم في أيدي الناس منها فلا ثقة به ولا يصح أن يمثل . في الغالب . اعتقاد الإمام أو الأشاعرة كما أثبتنا ذلك، إلا فيما وافق قول الكافة.

وقال أيضاً رحمه الله تعالى (تبيين كذب المفتري ص389):

(ولم يزل كتاب الإبانة مُستصوباً عند أهل الديانة، وسمعت الشيخ أبا بكر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن بشار البوشنجي المعروف بالخسروجردي الفقيه الزاهد يحكي عن بعض شيوخه أن الإمام أبا عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد الصابوني النيسابوري ما كان يخرج إلى مجلس درسه إلا ويده كتاب الإبانة لأبي الحسن الأشعري، ويظهر الإعجاب به، ويقول: ماذا الذي يُنكر على من هذا الكتاب شرح مذهبه⁽¹⁾. فهذا قول الإمام أبي عثمان وهو من أعيان أهل الأثر بخراسان.) اهـ.

فانظر إلى قدر كتاب الإبانة وصاحبه عند أعلام الأمة، فهذا شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني رحمه الله تعالى وهو من هو جلاله وعلمه وزهداً⁽²⁾ يثني هذا الثناء

(1) وهذا المذهب هو ما كان عليه ابن كلاب لأن الإبانة مؤلفة على طريقته، وعليه . يمكن أن

نعتبر ثناء شيخ الإسلام الصابوني هذا على الإبانة وأبي الحسن ثناءً على ابن كلاب - ضمناً - لينضم إلى أقوال الأئمة السابقة في الثناء عليه وتركيبته.

(2) قال عنه التاج السبكي: الملقب بشيخ الإسلام، لقبه أهل السنة في بلاد خراسان، فلا يعنون

العاطر على الإمام أبي الحسن وكتابه الإبانة، ومنه تعلم أن شيخ الإسلام أبا عثمان الصابوني أيضاً كان على طريق الإمام الأشعري، كيف لا وقد تولى تربيته وتهذيبه الإمام أبو الطيب سهل بن أبي سهل الصعلوكي، وهو أبو الطيب. من طبقة أصحاب أصحاب الإمام الأشعري، أي من الطبقة الثانية، وكان يحضر مجالس أبي عثمان أئمة الوقت كالأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني والأستاذ الإمام أبي بكر بن فورك وسائر الأئمة، وهؤلاء من أعلام أمة الإسلام من السادة الأشاعرة، وثنائهم عليه وثنائهم عليهم يدل على أنهم على طريق واحد رحمهم الله تعالى ورضي عنهم. (انظر ترجمة شيخ الإسلام الصابوني في تاريخ مدينة دمشق 3/9، سير أعلام النبلاء 40/18، الطبقات الكبرى للتاج السبكي 271/4).

بعد كل ما مرّ، وبعد كل هذه الأدلة، هل يصح وفقاً للمنهج العلمي للبحث أن تحمل جميع هذه البراهين التاريخية والعقلية والعلمية، ثم يؤخذ بكلام استنباطي لا يرقى إلى مستوى الظن، وليس له ما يؤيده من النقل والعقل؟!!

ولو بالغنا واعتبرنا ما اعتمدت عليه هذه الدعوى دليلاً لما أمكن الأخذ به علمياً لأن الدليل متى ما تطرق إليه الاحتمال كسأه ثوب الإجمال وسقط به الاستدلال، كما هو مقرر في علم الأصول، هذا إذا تطرق إلى الدليل الاحتمال مجرد تطرق، فكيف يكون الحال إذا قارب هذا الاحتمال حدّ اليقين كما مرّ من أدلة تحريف الإبانة؟!!

بيد أننا سنبالغ في الافتراض ونقول: هَبْ - جدلاً - أن كتاب الإبانة المتداول غير محرّف، وأنه ثابت النسبة إلى الإمام الأشعري، وأنه قد رجع فعلاً عن ما كان يعتقده من التنزيه

عند إطلاقهم هذه اللفظة غيره.

فهل يلزم الأمة أن تتابعه في هذا الأمر؟!

إن من يعتقد ذلك يسيء الظن بعقول أكثر من عشرة قرون من العلماء والأئمة، وينسبهم إلى التقليد الأعمى في العقائد، ويغيب عنه أن الأمة نُسبت إلى الإمام الأشعري من حيث كونه وقف حاملاً لواء السنة على طريق السلف في وجه أصحاب البدع والأهواء، لا لأنهم قلّدوه في ما ذهب إليه، فمتى ما رجع عن اعتقاده رجعوا! كلا.

فهم في الحقيقة منتسبون إلى رسول الله ، والسلف الصالح، وما الإمام الأشعري رحمه الله وغيره من أئمة أهل السنة إلا أدلاء على الطريق ، ومن يروج لمثل هذه الدعاوى يريد أن يقول بلسان حال هذه الدعوى وأمثالها أن هذا الذي رجع عنه هؤلاء الأكابر لو كان حقاً ما رجعوا عنه! فالحق عنده يعرف بمن قال به وتبناه وليس بما اعتضد به من أدلة وبراهين! وهل أئبي من أئبي إلا من قبل هذا الأمر الذي هو تعظيم الكبراء إلى الحد الذي أعمى أعينهم عن الأخطاء، فاتبعوهم مقلدين لهم في أخطائهم معتقدين أنها هي الحق الذي لا يأتيه الباطل ولا يتطرق إليه.

ولله دُرُّ الإمام ابن الجوزي ما أصدق عبارته فقد أصاب المحزّ وطبّق المفصل حيث قال (صيد الخاطر ص187):

(قد قال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: من ضيق علم الرجل أن يقلد في دينه الرجال. فلا ينبغي أن تسمع من مُعْظَمٍ في النفوس شيئاً في الأصول فتقلده فيه، ولو سمعت عن أحدهم ما لا يوافق الأصول الصحيحة، فقل: هذا من الراوي، لأنه قد ثبت عن ذلك الإمام أنه لا يقول بشيء من رأيه. فلو قدّرنا صحته عنه فإنه لا يُقلد في الأصول، ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما. فهذا أصلٌ يجب البناء عليه، فلا

يهولنَّكَ ذِكْرُ مَعْظَمٍ فِي النَفُوسِ) اهـ.

لقد أطنبنا في مناقشة هذه القضية، وما كنا لنفعل ذلك لولا أن تمسك بها البعض واعتبرها أمراً مسلماً ثم ذهب يبني عليها ويؤسس، فافتضى الأمر التفصيل، وإلا فإن القضية أهون من ذلك بكثير، إذ كان يكفيها مؤنة النقاش القول المأثور (البينة على من ادعى) ولا بينة ثم ولا قرينة.

ومهما عظم قدرُ القائل بهذه الدعوى فإنه لن يغير من شأن الحقيقة شيئاً، لأن أي دعوى إنما هي تبعٌ للبراهين والأدلة التي تثبتها فتكون حقيقة أو تنفيها فتكون خطأً ووهماً يجب الرجوع عنه، وكلُّ يؤخذ منه ويردُّ عليه إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم، والحق أحق وأثمن ما يطلبه المسلم.

وإذ علمت هذا . وفقنا الله تعالى وإياك . فدعُ عنك من قال إذ الحق لا يعرف بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله، وعليك بما قيل إن كان حقاً، وإلا فالرجوع إلى الحق أولى من التماذي في الباطل.

* * * * *

دعوى رجوع بعض الأئمة عن عقيدة الأشاعرة:

قريب من هذا الذي نسب إلى إمام أهل السنة أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى، ما ينسب إلى بعض الأئمة كالإمام الجويني والغزالي والرازي رحمهم الله تعالى أنهم رجعوا عن معتقد الأشاعرة وتبرءوا منه!
ومن يروج لهذه الدعوى يريد أن يقول: إن هذا المعتقد الذي رجع عنه هؤلاء العلماء لو كان حقاً ما تركوه ولا هجروه!!
فنقول:

إما أن يكون اعتقاد الأشاعرة هذا الذي ينسب إلى هؤلاء الأئمة الرجوع عنه حقاً في ذاته أو باطلاً.
فإن كان حقاً فماذا يضيره أو يضير من تمسك به حتى لو تبرأ منه هؤلاء الأئمة على فرض صحة ذلك عنهم؟! أم أنه صار حقاً حين قالوا به، فلما تركوه انقلب الحق إلى باطل؟!!

وإن كان ما رجعوا عنه باطلاً فواهاً ثم واهماً على أمة الإسلام وقد تبنت طيلة هذه القرون الماضية باطلاً، ثم لم يكتشف بطلانه إلا ثلاثة أو أربعة منهم!!

كلا ليس الأمر هكذا، فعلماء الإسلام ليسوا حفنة من مقلدة العوام تغدو بهم كلمة وتروح بهم أخرى دون تبصر ولا برهان، لكنهم لما رأوا هذين الإمامين الجليلين أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي رحمهما الله قد انتصبا دليلين على طريق السلف الصالح ينافحان عن معتقداتهم ويذبان عن الكتاب والسنة هرعوا لنصرتهم وانتفضوا لتأييدهم ونشر طريقتهم في إثبات عقيدة السلف الصالح، لهذا، ولهذا فقط

نُسبوا إلى هذين الإمامين، وليس . كما يظن البعض . لأنهم يقلدونهما فيما ذهبوا إليه، فلو افترضنا صحة رجوع هؤلاء الأئمة عن معتقد الأشاعرة، بل لو افترضنا رجوع عشرات غيرهم عن الأشعرية ما كان هذا سيغير من الحقيقة التي أطبقت عليها الأمة شيئاً، غاية ما يقال حينها أن هؤلاء الأئمة قد أخطأوا في ذلك.

على أن هؤلاء الأئمة رحمهم الله تعالى لم يرجعوا عن اعتقاد الأشاعرة ولا تبرءوا منه، كيف وهو الامتداد الطبيعي لما كان عليه السلف، وإنما رجعوا عن طريق التأويل في ظواهر المتشابه الذي كانوا يقولون به قبلُ إلى طريق التفويض الذي هو طريق جمهور السلف الصالح بعد تنزيه الله تعالى عما توهمه هذه الظواهر من سمات المخلوق، وكلا الطريقتين التفويض والتأويل بشرطه ثابت عن سلف الأمة . كما سيأتي بيانه وإثباته من قبل العلماء . وكلا المسلكين صحيح لا غبار عليه عند أهل الحق، أما الذي ياباه العقل والنقل فهو نسبة حقائق هذه الظواهر اللغوية لله تعالى، وحمل هذه الظواهر على ما يعهده الخلق من عوالمهم، وهذا قطعاً لم يقل به أحد من هؤلاء الأئمة الذين ينسب إليهم الرجوع عن معتقد الأشاعرة، بل على العكس من ذلك، فنصوصهم وأقوالهم واضحة وصريحة في الردّ على من يقول ذلك، بل ومن هذه الكتب التي ينسب إليهم الرجوع فيها!

فهذا الإمام الجويني الذي ينسبون له الرجوع عن معتقد الأشاعرة في رسالته النظامية، يصرح في نفس هذه الرسالة بإطباق أهل الحق على تنزيه الله تعالى عن ظواهر نصوص المتشابه بقوله (النظامية ص32): (. . وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها وإجراؤها على موجب ما تبتدره أفهام أرباب اللسان منها . .) اهـ.

أضف إلى ذلك أن الرسالة النظامية صنّفها الإمام الجويني رحمه الله للوزير نظام الملك، ولهذا سمّاها بالنظامية نسبة إليه، ولا يخفى أن الوزير نظام الملك أشعري

المعتقد، قال عنه المحافظ الذهبي بعد أن أثنى عليه ثناءً عاطراً (السير 96/19): (وكان شافعيّاً أشعريّاً) اهـ.

تُرى هل سيهدي الإمام للوزير نظام الملك كتاباً في نقض اعتقاده؟!

ثم نقول: ليس في الرسالة النظامية ما يناقض اعتقاد الأشاعرة في شيء، والذي ذكره الإمام الجويني من ترجيح التفويض على التأويل هو أحد مسلكي الأشاعرة مع نصوص المتشابه، وهو ثابت أيضاً عن أئمة من السلف الصالح كما نقله العلماء عنهم كما سيأتي، قال الإمام ابن السبكي رحمه الله تعالى (الطبقات 191/5): (ثم أقول: للأشاعرة قولان مشهوران في إثبات الصفات، هل تمرُّ على ظاهرها مع اعتقاد التنزيه، أو تؤوَّل؟ والقول بالإمرار مع اعتقاد التنزيه هو المعزوُّ إلى السلف، وهو اختيار الإمام . يعني الجويني . في الرسالة النظامية وفي مواضع من كلامه، فرجوعه معناه الرجوع عن التأويل إلى التفويض، ولا إنكار في ذلك ولا في مقابله . يعني التأويل . فإنها مسألة اجتهادية، أعني مسألة التأويل والتفويض مع اعتقاد التنزيه، إنما المصيبة الكبرى والداهية الدهياء الإمرار على الظاهر والاعتقاد أنه المراد وأنه لا يستحيل على الباري ..) اهـ.

ومن يطالع النظامية يعلم موافقتها لاعتقاد أهل السنة الأشاعرة، فمن أمثلة ذلك تنزيه الإمام الجويني لله تعالى عن الجهة والمكان والحيز والحرف والصوت وظواهر المتشابه، وتشديده على القائلين بحوادث لا أول لها في الماضي، إلى غير ذلك من المسائل التي تدل دلالة قاطعة على تمسك الإمام باعتقاد السادة الأشاعرة.

وكذلك الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، فكتابه (إلجام العوام) الذي ينسب إليه الرجوع فيه هو في حقيقة الأمر تأصيل لمسلك السادة الأشاعرة من حيث تنزيه الله تعالى عن سمات الحوادث مثل الجهة والمكان والحروف والأصوات وظواهر المتشابه، بل

هو قائل بالتأويل في مواضع من الكتاب وذلك في شرح الوظيفة الخامسة من الوظائف السبع التي يجب على العوام مراعاتها عند سماع شيء من نصوص المتشابه، وذلك من الصفحة (71) إلى الصفحة (81)، وهو بحق كلام نفيس، وإتًا لنحضر القارئ على مطالعة كتاب (إلجام العوام) والرجوع إليه، فهو كتاب قلّ نظيره في بابه، قد ذكر فيه حجة الإسلام رحمه الله تعالى من الفوائد ما لا مزيد عليه.

ومن يطالع الكتاب يعلم أن الإمام الغزالي رحمه الله تعالى لم يترك مذهب الأشاعرة ولا رجوع عنه، وإنما رجّح مسلك التفويض على مسلك التأويل، وهو ترجيح منه ليس على إطلاقه، كما أنه لا يفهم منه تضليل للقائلين بالتأويل، حاشاه، وهو الذي يعلم أن كلا المسلكين صحيح، وإن كان الأرجح عنده والأفضل. عند عدم الحاجة. هو مسلك التفويض الذي هو مسلك جمهور السلف، بل هو الأرجح والأفضل عند جميع الأشاعرة، وهو ما نراه ونقول به، فالوقوف حيث وقف السلف الصالح بعد تنزيه الله تعالى عمّا توهمه هذه الظواهر هو الأولى بالاتباع، وهذا كما ذكرنا عند عدم الحاجة، أما إذا خاض الناس في المتشابهات فلا بد حينئذ من البيان، ومن أساليب البيان التأويل، والإمام الغزالي رحمه الله لم يأت في كتاب الإلجام بشيء مخالف لما في كتبه الأخرى.

على أنه يلزم من ينسب إلى هؤلاء الأئمة ترك ما كانوا عليه والرجوع إلى منهج السلف أن يقرّ بأن مذهب السلف هو تنزيه الله تعالى عن ظواهر هذه النصوص لأنهم نصّوا على ذلك في هذه الكتب التي ينسب إليهم الرجوع إلى منهج السلف فيها، ونحن لا ننكر رجوع هؤلاء الأئمة إلى مذهب جمهور السلف الذي هو التفويض مع التنزيه عن ظواهر هذه النصوص إذا صح النقل عنهم، كلا، وإنما الذي ننكره وترفضه نصوص هؤلاء الأئمة وغيرهم هو الزعم بأن هذا المسلك ينافي ما عليه معتقد

الأشاعرة، وهذا أمر تبطله كتب هؤلاء الأئمة وجميع السادة الأشاعرة والمنقول عنهم وهم أعلام هذه الأمة في كل فن من فنون الشريعة.

وكذلك ما ينقل عن الإمام الرازي لا يخرج عما ذكرنا سابقاً، بل إن الإمام لآخر لحظة في حياته يوصي بكتبه التي صنّفها قبل، فجاء في وصيته التي أملاها على أحد تلاميذه وهو على فراش الموت كما في (طبقات الأطباء ص469): (.. وأما الكتب العلمية التي صنّفتها أو استكثرت من إيراد السؤالات على المتقدمين فيها، فمن نظر في شيء منها فإن طابت له تلك السؤالات فليذكرني في صالح دعائه على سبيل التفضل والإيناع، وإلا فليحذف القول السيئ فإني ما أردت إلا تكثير البحث وتشحيذ الخاطر.. اهـ).

وما ينقل عنه مثل قوله (مجموع فتاوى ابن تيمية 72/4): (لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات (الرحمن على العرش استوى) (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) . وقرأ في النفي (ليس كمثله شيء) ، (ولا يحيطون به علما) ، (هل تعلم له سمياً).. ومن جرب مثل تجرّبي عرف مثل معرفتي.. اهـ فهذا إذا صحَّ عنه فلا يفيد تركه لمعتقد الأشاعرة لا تصريحاً ولا تلميحاً، غاية ما هنالك أنه رحمه الله تعالى يرى أن أقرب الطرق في إثبات صفة الرب جلّ وعزّ طريق القرآن، وهذا حق لا ريب فيه لا يخالفه إلا زائغ. والإدعاء بأنه رجع عن معتقد الأشاعرة تقويل للإمام ما لم يقله وتحميل للكلام ما لا يحتمل هذا إذا سلمنا صحة هذه الأقوال عن الإمام.

بهذا يتضح أن أقدار أئمة الإسلام أكبر وأجلّ من أن تنقاد في مسائل أصول الدين إلى أحد. غير رسول الله عليه الصلاة والسلام. تقليداً بلا تبصر أو اهتداء، حتى

وإن كان إمام أهل السنة والجماعة أبا الحسن الأشعري، فإن اتباع الأمة له رحمه الله
اهتداءً لا تقليداً، لذا فإن أي محاولة للتشكيك في معتقد الأشاعرة بادعاء رجوع
الإمام أبي الحسن أو رجوع أحد من الأئمة لن تجدي نفعاً ولن تغير من الحق الذي
أطبقت عليه الأمة بعلمائها ودهائها شيئاً، فإن غاية ما يقال في أي دعوى من هذا
القبيل إذا صحت عن أحد من العلماء هو أنه أخطأ فيما ذهب إليه، ولا يقلد في
ذلك، وكلُّ يؤخذ منه ويُردُّ عليه إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم.

* * * * *

أهل السنة والجماعة

أهل السنة والجماعة مصطلح ظهر للدلالة على من كان على منهج السلف الصالح من التمسك بالقرآن والسنن والآثار المروية عن رسول الله ، وعن أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، لتمييز عن مذاهب المبتدعة وأهل الأهواء.

وإذا أطلق هذا المصطلح في كتب العلماء فالمقصود به الأشاعرة والماتريدية وأصحاب الحديث؛ لأنهم هم الذين على ما كان عليه رسول الله ، لم يبدلوا ولم يغيروا كما فعل غيرهم من أهل الزيغ والابتداع.

ولقد وصف رسول الله ، الفرقة الناجية بأنهم السواد الأعظم من الأمة، وهذا الوصف منطبق على الأشاعرة والماتريدية وأصحاب الحديث، إذ هم غالب أمة الإسلام، والمنفي عنهم الاجتماع على الضلالة بنص الحديث المشهور (لا تجتمع أمتي على الضلالة)⁽¹⁾.

قال الإمام تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى (إتحاف السادة المتقين 6/2):

(اعلم أن أهل السنة والجماعة كلهم قد اتفقوا على معتقد واحد فيما يجب ويجوز ويستحيل، وإن اختلفوا في الطرق والمبادئ الموصلة لذلك، أو في لِمِيَّة⁽²⁾ ما

(1) قال الحافظ السخاوي بعد أن عدّد طرق الحديث وأسانيده: (وبالجملة فهو حديث مشهور

المتن، ذو أسانيد كثير وشواهد متعددة في المرفوع وغيره) المقاصد الحسنة حديث رقم 1288.

(2) أصل هذه الكلمة من قولهم (لم)، والمعنى: أي وإن اختلفوا في سبب ذلك وعلته.

هنالك، وبالجملة فهم بالاستقراء ثلاث طوائف:

الأولى: أهل الحديث ومعتمد مبادئهم الأدلة السمعية، أعني الكتاب والسنة والإجماع.

الثانية: أهل النظر العقلي والصناعة الفكرية، وهم الأشعرية والحنفية، وشيخ الأشعرية أبو الحسن الأشعري، وشيخ الحنفية أبو منصور الماتريدي...

الثالثة: أهل الوجدان والكشف، وهم الصوفية، ومبادئهم مبادئ أهل النظر والحديث في البداية، والكشف والإلهام في النهاية) اهـ.

وقال الإمام عضد الدين الإيجي - رحمه الله تعالى - في بيان الفرقة الناجية، بعد أن عدد فرق المهالكين (المواقف ص 430):

(وأما الفرقة الناجية المستثناة الذين قال النبي . ' . فيهم "هم الذين على ما أنا عليه وأصحابي" فهم الأشاعرة والسلف من المحدثين وأهل السنة والجماعة، ومذهبهم خالٍ من بدع هؤلاء) اهـ.

وقال الإمام الجلال الدواني رحمه الله تعالى (شرح العقائد العضدية 1/ 34):

(الفرقة الناجية، وهم الأشاعرة أي التابعون في الأصول للشيخ أبي الحسن... فإن قلت: كيف حكم بأن الفرقة الناجية هم الأشاعرة؟ وكل فرقة تزعم أنها ناجية؟ قلت سياق الحديث مشعر بأنهم - يعني الفرقة الناجية - المعتقدون بما روي عن النبي ' وأصحابه، وذلك إنما ينطبق على الأشاعرة، فإنهم متمسكون في عقائدهم بالأحاديث الصحيحة المنقولة عنه ' وعن أصحابه، ولا يتجاوزون عن ظواهرها إلا لضرورة، ولا يسترسلون مع عقولهم كالمعتزلة) اهـ.

والاقتصار على الأشاعرة في نصوص الأئمة إنما ذلك لكونهم أغلب أهل السنة،

فلا يفهم منه إخراج غيرهم من طوائف أهل السنة من الفرقة الناجية، فمن لم يكن منهم متبعاً للإمام الأشعري فهو موافق له.

وقال العارف بالله الإمام ابن عجيبة⁽¹⁾ رحمه الله تعالى (تفسير الفاتحة الكبير، المسمى بـ " البحر المديد " ص607): (أما أهل السنة فهم الأشاعرة ومن تبعهم في اعتقادهم الصحيح، كما هو مقرر في كتب أهل السنة) اهـ.

قال الإمام تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى (طبقات الشافعية 3 / 365):

(قال الشيخ الإمام - يعني والده التقي السبكي - فيما يحكيه لنا: ولقد وقفت لبعض المعتزلة على كتاب سماه طبقات المعتزلة، وافتتح بذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ظناً منه أنه - برأه الله منهم - على عقيدتهم. قال: وهذا نهاية في التعصب، فإنما ينسب إلى المرء من مشى على منواله. قلت أنا للشيخ الإمام: ولو تم هذا لهم لكان للأشاعرة أن يعدوا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في جملتهم، لأنهم عن عقيدتهما وعقيدة غيرهما من الصحابة فيما يدعون يناضلون، وإياها ينصرون، وعلى حماها يحومون. فتبسم، وقال: أتباع المرء من دان بمذهبه وقال بقوله على سبيل المتابعة والافتقار الذي هو أخص من الموافقة، فبين المتابعة والموافقة بون عظيم) اهـ.

وقال الإمام عبدالقاهر البغدادي رحمه الله (الفرق بين الفرق ص 19):

(.. فأما الفرقة الثالثة والسبعون فهي أهل السنة والجماعة من فريق الرأي والحديث دون من يشتري لهو الحديث، وفقهاء هذين الفريقين وقرآؤهم ومحدثوهم ومتكلمو أهل الحديث منهم، كلهم متفقون على مقالة واحدة... وليس بينهم فيما

(1) أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن عجيبة الحسني الفاسي، العلامة المحقق الفهامة البارع المدقق الصوفي الجامع بين الشريعة والحقيقة، وفاته رحمه الله تعالى سنة 1224هـ. (شجرة النور الزكية ص400، وانظر ترجمته في فهرس الفهارس 2/854).

اختلفوا فيه منها تضليل ولا تفسيق وهم الفرقة الناجية... فمن قال بهذه الجهة التي ذكرناها ولم يخلط إيمانه بشيء من بدع... سائر أهل الأهواء فهو من جملة الفرقة الناجية - إن ختم الله له بها - ودخل في هذه الجملة جمهور الأمة وسوادها الأعظم من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة والأوزاعي والثوري وأهل الظاهر... اهـ.
وقال أيضاً (أصول الدين ص309) بعد أن عدّد أئمة أهل السنة والجماعة في علم الكلام من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى أن قال:

(.. ثم بعدهم شيخ النظر وإمام الآفاق في الجدل والتحقيق أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الذي صار شجراً في حلوق القدرية.... وقد ملأت الدنيا كتبه، وما رزق أحد من المتكلمين من التبع ما قد رزق، لأن جميع أهل الحديث وكل من لم يتمزّل من أهل الرأي على مذهبه) اهـ.

وقال الإمام الزاهد القدوة أبو عمرو الداني⁽¹⁾ رحمه الله تعالى (الرسالة الوافية في معتقد أهل السنة والجماعة ص117): (اعلموا أيّدكم الله بتوفيقه وأمدكم بعونه وتسديده، أن قول أهل السنة والجماعة من المسلمين المتقدمين والمتأخرين من أصحاب الحديث والفقهاء والمتكلمين..)

(1) الإمام أبو عمرو الداني أعرف من أن يعرف، هو الذي يقول فيه الإمام الذهبي رحمه الله: الإمام الحافظ المجرّد المقرئ الحاذق عالم الأندلس. وقال أيضاً: إلى أبي عمرو المنتهى في تحرير علم القراءات وعلم المصاحف، مع البراعة في علم الحديث والتفسير والنحو وغير ذلك. ويعرف قديماً بابن الصيرفي، قال عنه ابن بشكوال: كان أحد الأئمة في علم القرآن رواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه.. وله معرفة بالحديث وطرقه وأسماء رجاله ونقلته.. جيّد الضبط من أهل الذكاء والحفظ والتفنن في العلم دنيماً فاضلاً ورعاً ستيّاً اهـ، توفي رحمه الله تعالى سنة أربع وأربعين وأربع مئة ودفن بمقبرة دانية. سير أعلام النبلاء 77/18، الصلة 405/2، الديباج المذهب 84/2.

ثم شرع ببيان اعتقاد أهل السنة، وقوله (الفقهاء والمتكلمين) يعني بهم الأشاعرة والماتريدية، ورسالته زاخرة بأدلة التقديس رحمه الله، وتأثره بشيخه وأستاذه شيخ أهل السنة القاضي أبي بكر الباقلاني رحمه الله تعالى وبطريقة الإمام الأشعري واضح لا يخفى على من طالع كتبه، بل إن بعض الألفاظ والعبارات هي التي استخدمها الإمام الأشعري في بعض كتبه.

وقال حجة المتكلمين الإمام أبو المظفر الإسفراييني - رحمه الله تعالى -
(التبصير في الدين ص 111) بعد أن شرح عقيدة أهل السنة: (وأن تعلم أن كل من تدين بهذا الدين الذي وصفناه من اعتقاد الفرقة الناجية فهو على الحق وعلى الصراط المستقيم فمن بدّعه فهو مبتدع ومن ضلله فهو ضال ومن كفره فهو كافر) اهـ.

فانظر يا رعاك الله كيف هي خطورة الأمر، لتعلم استهتار الذين يقعون في أعراض الأشاعرة ويثلبونهم ويضللون عقائدهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال الإمام أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله تعالى (طبقات الشافعية 3/ 376):
(وأبو الحسن الأشعري إمام أهل السنة، وعمامة أصحاب الشافعي على مذهبه، ومذهبه مذهب أهل الحق) اهـ.

وناهيك بأبي إسحاق الشيرازي علماً وفقهاً وديانة وورعاً وتقدماً في الدين.

وسئل الإمام ابن حجر الهيتمي - رحمه الله تعالى - عن الإمام أبي الحسن الأشعري والباقلاني وابن فورك وإمام الحرمين والباجي وغيرهم ممن أخذ بمذهب الأشعري، فأجاب:

(هم أئمة الدين وفحول علماء المسلمين، فيجب الاقتداء بهم لقيامهم بنصرة الشريعة وإيضاح المشكلات وردّ شبه أهل الزيغ وبيان ما يجب من الاعتقادات والديانات، لعلمهم بالله وما يجب له وما يستحيل عليه وما يجوز في حقه.....)

والواجب الاعتراف بفضل أولئك الأئمة المذكورين في السؤال وسابقتهم وأنهم من جملة المرادين بقوله ' " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين " فلا يعتقد ضلالتهم إلا أحقق جاهل أو مبتدع زائع عن الحق، ولا يسبهم إلا فاسق، فينبغي تبصير الجاهل وتأديب الفاسق واستتابة المبتدع) اهـ. (الفتاوى الحديثية ص 205).

وقال العلامة السفاريني الحنبلي رحمه الله تعالى (لوامع الأنوار البهية 1 / 73):

أهل السنة والجماعة ثلاث فرق:

- الأثرية، وإمامهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه.
- والأشعرية، وإمامهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله.
- والماتريدية، وإمامهم أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالى) اهـ.

وقال الإمام المرتضى الزبيدي - رحمه الله تعالى - (إتحاف السادة المتقين 2 / 6):

(إذا أطلق أهل السنة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية) اهـ.

وقال أيضاً في موضع آخر (2 / 86):

(والمراد بأهل السنة هم الفرق الأربعة، المحدثون والصوفية⁽¹⁾ والأشاعرة والماتريدية)

اهـ.

ومما يستشهد به في هذا الباب رسالة أبي جعفر الطحاوي - رحمه الله - في العقيدة، المسماة بالعقيدة الطحاوية، التي أجمل فيها اعتقاد السلف رضوان الله عليهم، وهي مما أطبقت الأمة عليه وتلقته بالقبول، وما تضمنته هذه العقيدة هو ما

(1) المراد بالصوفية من كان على نهج الحق أمثال الجنيد ومعروف الكرخي وبشر الحافي وإبراهيم

ابن أدهم وغيرهم من الدالّين على الله ومن جاء بعدهم وسلك مسلكهم باتباع الكتاب والسنة.

يعتقده الأشاعرة، سوى مسائل يسيرة لا تستلزم تضليلاً ولا تفسيقاً.

وقال الإمام العلامة أحمد الدردير - رحمه الله تعالى - في شرحه على منظومته في العقائد المسماة بـ " خريدة التوحيد " (ص 194):

(واتبع سبيل الناسكين العلماء) ثم شرح عبارته فقال (جمع عالم وهو العارف بالأحكام الشرعية التي عليها مدار صحة الدين اعتقادية كانت أو عملية والمراد بهم السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان وسبيلهم منحصر في اعتقاد وعلم وعمل على طبق⁽¹⁾ العلم، وافترق من جاء بعدهم من أئمة الأمة الذين يجب اتباعهم على ثلاث فرق، فرقة نصبت نفسها لبيان الأحكام الشرعية العملية وهم الأئمة الأربعة وغيرهم من المجتهدين، ولكن لم يستقر من المذاهب المرضية سوى مذاهب الأئمة الأربعة، وفرقة نصبت نفسها للاشتغال ببيان العقائد التي كان عليها السلف وهم الأشعري والماتريدي ومن تبعهما، وفرقة نصبت نفسها للاشتغال بالعمل والمجاهدات على طبق ما ذهب إليه الفرقتان المتقدمتان وهم الإمام أبو القاسم الجنيد ومن تبعه، فهؤلاء الفرق الثلاثة هم خواص الأمة المحمدية ومن عداهم من جميع الفرق على ضلال وإن كان البعض منهم يحكم له بالإسلام فالناجي من كان في عقيدته على طبق ما بينه أهل السنة) اهـ.

وقال الإمام العلامة عبد الله بن علوي الحداد رحمه الله تعالى (نيل المرام شرح عقيدة الإسلام للإمام الحداد الصفحة 8):

(اعلم أن مذهب الأشاعرة في الاعتقاد هو ما كان عليه جماهير أمة الإسلام علماؤها ودهماؤها، إذ المنتسبون إليهم والسالكون طريقهم كانوا أئمة أهل العلوم قاطبة على مرّ الأيام والسنين، وهم أئمة علم التوحيد والكلام والتفسير والقراءة والفقهاء

(1) أي: وعمل مطابق للعلم.

وأصوله والحديث وفنونه والتصوف واللغة والتاريخ) اهـ.

وقال أيضاً رضي الله عنه (رسالة المعاونة والمظاهرة والموازرة ص/67 . 68):

(وعليك بتحسين معتقدك وإصلاحه وتقويمه على منهاج الفرقة الناجية، وهي المعروفة من بين سائر الفرق الإسلامية بأهل السنة والجماعة، وهم المتمسكون بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأنت إذا نظرت بفهم مستقيم عن قلب سليم في نصوص الكتاب والسنة المتضمنة لعلوم الإيمان، وطالعت سير السلف الصالح من الصحابة والتابعين علمت وتحققت أن الحق مع الفرقة الموسومة بالأشعرية، نسبة إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري رحمه الله، فقد رتب قواعد عقيدة أهل الحق وحرّز أدلتها، وهي العقيدة التي أجمع عليها الصحابة ومن بعدهم من خيار التابعين، وهي عقيدة أهل الحق من أهل كل زمان ومكان، وهي عقيدة جملة أهل التصوف كما حكى ذلك أبو القاسم القشيري في أول رسالته، وهي بحمد الله عقيدتنا.. وعقيدة أسلافنا من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا.. والماتريدية كالأشعرية في جميع ما تقدم) اهـ.

وقال العلامة ابن الشطي الحنبلي - رحمه الله تعالى - في شرحه على العقيدة السفارينية (تبصير القانع في الجمع بين شرحي ابن شطي وابن مانع على العقيدة السفارينية، الصفحة / 73):

(قال بعض العلماء هم - يعني الفرقة الناجية - أهل الحديث يعني الأثرية والأشعرية والماتريدية) ثم قال بعد ذلك بأسطر:

(فائدة: أهل السنة والجماعة ثلاث فرق، الأثرية وإمامهم الإمام أحمد رضي الله

عنه.

والأشعرية وإمامهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.
والماتريدية وإمامهم أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالى) اهـ.
وقال علامة الكويت الشيخ عبد الله بن خلف الدحيان - رحمه الله تعالى -
تعليقا على تقسيم السفاريني لأهل السنة إلى ثلاث فرق:
(فإذا قلت: لفظ الحديث يقتضي عدم التعدية⁽¹⁾ حيث قال فيه ' ستفترق
أمتي على بضع وسبعين فرقة كلهم في النار إلا فرقة واحدة وهي ما كان على ما
أنا عليه وأصحابي " فالجواب: أن الثلاث فرق هي فرقة واحدة لأنهم كلهم أهل
الحديث، فإن الأشاعرة والماتريدية لم يردوا الأحاديث ولا أهملوها، فإمّا
فوضوها وإمّا أولوها، وكل منهم أهل حديث، وحينئذ فالثلاث فرقة واحدة،
لاقتنائهم الأخبار وانتحالهم الآثار، بخلاف باقي الفرق فإنهم حكّموا العقول
وخالفوا المنقول فهم أهل بدعة وضلالة ومخالفة وجهالة والله تعالى أعلم) اهـ.
(تبصير القائع ص / 73).

وقال الشيخ العلامة الحنبلي محمد بن علي بن سلوم رحمه الله تعالى في شرحه
على العقيدة السفارينية مثل ذلك. (شرح الدرّة المضية، الصفحة / 58).
وقال العلامة المواهبي الحنبلي رحمه الله تعالى (العين والأثر ص/53):
(طوائف أهل السنة ثلاثة: أشاعرة، وحنابلة، وماتريدية، بدليل عطف العلماء
الحنابلة على الأشاعرة في كثير من الكتب الكلامية وجميع كتب الحنابلة) اهـ.
وقال المحدث محمد بن درويش الحوت البيروتي - رحمه الله تعالى - (رسائل في بيان
عقائد أهل السنة والجماعة، الصفحة / 77):

(1) أي أن لفظ الحديث يقتضي قصر النجاة على فرقة واحدة وعدم تعديته إلى ثلاث فرق.

(فائدة: المالكية والشافعية أشعرية وإمامهم أبو الحسن الأشعري من ذرية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، والحنفية ماتريدية وإمامهم أبو منصور الماتريدي، وهما إماما أهل السنة والجماعة، والحنابلة أثرية) اهـ.

وقال الإمام العلامة كمال الدين البياضي - رحمه الله تعالى - (إشارات المرام من عبارات الإمام، الصفحة 52):

(إن الفرقة الناجية هم الجماعة الكثيرة المتمسكون بمحكمات الكتاب والسنة في العقائد، فإنه المنطبق لما عليه الرسول ' ولما عليه الصحابة لا يتجاوزون عن ظاهرها إلا لضرورة مخالفة قطعي من الدليل النقلية والعقلي، فإن حجج الله تتعاضد ولا تتضاد) اهـ.

ومن نظر بعين المعقول وتجرد للوصول إلى الحق علم يقيناً أنه ليس أحد من الطوائف ينطبق عليه هذا الوصف إلا الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث، فهم الذي ملئوا الزمان والمكان، وطبقوا الأرض شهرة وانتشاراً.

قال الإمام عبد القاهر البغدادي - رحمه الله تعالى - (الفرق بين الفرق، 247):

(إن النبي ' لما ذكر افتراق أمته بعده ثلاثاً وسبعين فرقة وأخبر أن فرقة واحدة منها ناجية، سئل عن الفرقة الناجية وعن صفتها، فأشار إلى الذين هم على ما عليه هو وأصحابه، ولسنا نجد اليوم من فرق الأمة من هم على موافقة الصحابة رضي الله عنهم غير أهل السنة والجماعة من فقهاء الأمة ومتكلمي الصفاتية) ثم أخذ رحمه الله يبين وجوه عدم نجات باقي الفرق وضروب انحرافاتهم عن منهج الرسول ' وأصحابه، ثم قال:

(وبان من هذا أن المقتدين بالصحابة من يعمل بما قد صحَّ بالرواية الصحيحة في أحكامهم وسيرهم، وذلك سنة أهل السنة دون ذوي البدعة، وصح بصحة ما ذكرناه

تحقيق نجاحهم لحكم النبي ' بنجاة المقتدين بأصحابه، والحمد لله على ذلك) اهـ.
وقال الإمام ابن حجر الهيتمي - رحمه الله تعالى - (الزواجر عن اقتراف الكبائر 82):
(المراد بالسنة ما عليه إماما أهل السنة والجماعة الشيخ أبو الحسن الأشعري
وأبو منصور الماتريدي..) اهـ.

وقال العلامة طاش كبري زاده - رحمه الله تعالى - (مفتاح السعادة 2 / 33):
(ثم اعلم أن رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام - يعني العقائد -
رجلان، أحدهما حنفي والآخر شافعي⁽¹⁾، أما الحنفي فهو أبو منصور محمد بن محمود
الماتريدي، إمام الهدى...)

وأما الآخر الشافعي فهو شيخ السنة ورئيس الجماعة إمام المتكلمين وناصر سنة
سيد المرسلين والذاب عن الدين والساعي في حفظ عقائد المسلمين، أبو الحسن
الأشعري البصري.. حامي جناب الشرع الشريف من الحديث المفترى، الذي قام في
نصرة ملة الإسلام فنصرها نصراً مؤزراً) اهـ.

وعلى الجملة، فإن أقوال علماء الإسلام متفقة على أن الأشاعرة ومن وافقهم في
الاعتقاد من طوائف أهل الحق هم الفرقة الناجية، وهم المعنيون بقوله ' ما أنا عليه
وأصحابي " وهم الوسط بين الفرق المبتدعة، فقد جانبوا أهل الزيغ وابتعدوا عنهم غاية
البعد بحيث من رام بعداً عن الضلالة أكثر من بعدهم وقع فيها أو مال إليها.

* * * * *

(1) ينازع المالكية في الإمام أبي الحسن ويذكرونه ضمن طبقاتهم، والراجح أنه شافعي، أما المالكي
فهو الإمام أبو بكر بن الباقلاني شيخ الأشاعرة. انظر طبقات الشافعية الكبرى 352/3.

أقوال الأعلام المعاصرين في الأشاعرة

لقد أظننا بذكر أقوال العلماء المتقدمين والمتأخرين التي تفيد قصر مصطلح أهل السنة والجماعة على الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث، وإليك الآن طائفة من نصوص الأعلام المعاصرين ممن سلك مسلك أهل السنة وأشاد بفضلهم:

قال الشيخ الداعية حسن أيوب - حفظه الله تعالى - (تبسيط العقائد الإسلامية

:299)

(أهل السنة هم أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي ومن سلك طريقهما، وكانوا يسرون على طريق السلف الصالح في فهم العقائد، وقد جعلوا القرآن الكريم المنهل العذب الذي يلجأون إليه في تعرف عقائدهم فكانوا يفهمون من الآيات القرآنية مسائل العقائد، وما أشبه عليهم منه حاولوا فهمه بما توحيه أساليب اللغة ولا تنكره العقول، فإن تعذر عليهم توقفوا وفوضوا، وقد سمي أتباع أبي الحسن الأشعري بالأشاعرة، وأبي منصور الماتريدي بالماتريدية) اهـ.

وقال الأستاذ الداعية سعيد حوى - رحمه الله تعالى - (جولات في الفقهاء الكبير

والأكبر ص / 22):

(إن للمسلمين خلال العصور أئمتهم في الاعتقاد وأئمتهم في الفقه وأئمتهم في التصوف والسلوك إلى الله عز وجل، فأئمتهم في الاعتقاد كأبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي... وهؤلاء وأمثالهم كلٌّ في اختصاصه حيث ثبت النقل عنهم قدّم أصفى فهمٍ للكتاب والسنة، ومن ثم أجمعت الأمة على اعتماد أقوالهم وقبولها في خضم اتجاهات لا تعد ولا تحصى من الاتجاهات الباطلة الزائفة، منها الذي مات ومنها الذي لازال حياً) اهـ.

والشيخ سعيد حوى - رحمه الله تعالى - هنا وفي معظم ما كتب إنما ينقل

خلاصة رأي الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى، وهو موافق لما عليه السلف والخلف من تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به سبحانه.

وقال الشيخ سعيد - رحمه الله تعالى - أيضاً (المصدر السابق ص/8):

(وكما وجد في الفقه مؤلفون وكتب، وكما وجد في الفقه أئمة أجمعت الأمة على قبولهم، فكذلك في باب العقائد وجد أئمة أجمعت الأمة على إمامتهم في هذا الشأن كأبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي) اهـ.

ومن أشاد بفضل الأشاعرة من المعاصرين الشيخ الداعية الأستاذ أبو الحسن الندوي (رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص / 137) فقال - رحمه الله تعالى - منوهاً بذكرهم:

(خضع لعلمهم ونفوذهم العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه... وبفضلهم انتقلت قيادة العالم الإسلامي الفكرية وتوجيهه من المعتزلة إلى أهل السنة) اهـ.

وقال أيضاً (ص / 133):

(وقد سار الأشعري في طريقه مجاهداً مناضلاً منتجاً... لا يعبأ بما يقال فيه مؤمناً بأنه هو الطريق الذي ينفع الدين في عصره ويرد إلى الشريعة مهابتها وكرامتها ويجرس للناشئة دينها وعقيدتها، حتى استطاع بعمله المتواصل وشخصيته القوية وعقله الكبير وإخلاصه النادر أن يرد سبيل الاعتزال والتفلسف الجارف الذي كان يتهدد الدين، ويثبت كثيراً من الذين تزلزلت أقدامهم واضطربت عقولهم وعقائدهم، وأن يوجد في أهل السنة ثقة جديدة بعقيدتهم) اهـ.

وقال الشيخ وهي سليمان غاوجي - حفظه الله تعالى - (أركان الإيمان ص / 7):

(وقد كان أول من كتب في أصول الدين ورد شبهات أهل الزيغ في الاعتقاد الإمام الأعظم أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - بطريقتي النقل أو العقل، وتتابع الكتابون في أصول الدين إلى أن استقرت قواعدها على يدي الإمامين العظيمين أبي منصور الماتريدي وأبي الحسن الأشعري رحمهما الله تعالى) اهـ.

هذا هو شأن الأشاعرة وقدرهم عند المتقدمين والمتأخرين، وهذه هي مكانتهم في التاريخ، فلا ينكر فضلهم وجهادهم إلا مكابر، ومهما بالغ البعض بالانتقاص منهم، وجحد فضلهم بلسانه، فإنه لا محالة مضطراً إلى علومهم، إذ ما من متعلم أو معلم إلا وهو عالة على ما أثمرته وأنتجته قرائحهم، وسطرته أيديهم، وهل يستغني عالم أو طالب علم عن كتاب فتح الباري - مثلاً - للإمام الحافظ ابن حجر، أو شرح صحيح مسلم للإمام النووي رحمه الله تعالى؟!!

بهذه النصوص التي نقلناها عن العلماء والأئمة المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين أصبح جلياً من المقصود بأهل السنة والجماعة، ومن هي الفرقة الناجية المعنية بالنصوص الشرعية والمخصوصة بالهداية والنجاة، فكيف يسوغ لمنصف بعد كل ذلك إخراج الأشاعرة والماتريدية من أهل السنة والجماعة؟!!

* * * * *

المتشابه عند السلف والخلف

يصرّ البعض على تضليل الأشاعرة والماتريدية لأن جمهورهم أجاز التأويل

بشروطه في نصوص المتشابه التي تتعلق بصفات الله تعالى، وينسى هؤلاء أن مجلّ الأمة على مذهب التأويل وأن جماعات من السلف قالوا به.

قال الإمام الزركشي - رحمه الله تعالى - مبيناً المذاهب في المتشابه (البرهان في علوم القرآن 2 / 207):

(... والثالث أنها مؤولة، وأولوها على ما يليق به، والأول - يعني مذهب الأخذ بالظاهر - باطل، والأخيران منقولان عن الصحابة... وممن نقل عنه التأويل علي وابن مسعود وابن عباس وغيرهم) اهـ.

وقال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - عن مذهب التأويل:

(مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف، وهو محكي عن مالك والأوزاعي) اهـ. (شرح صحيح مسلم 6 / 36).

* * * * *

مفهوم المتشابه

قال تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات)

المتشابه في الأصل كل ما لا يهتدي إليه الإنسان، والمراد به هنا ما جاء في القرآن والسنة الصحيحة المشهورة من النصوص التي يوهم ظاهرها مشابحة الله تعالى لخلقه.

قال الراغب الأصفهاني - رحمه الله تعالى - (مفردات القرآن مادة " شبه "):

(والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى وأوصاف يوم القيامة، فإن تلك الصفات لا تتصور لنا، إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لا نحسه، أو لم يكن من جنس ما نحسه) اهـ.

ومثال المتشابه من القرآن قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) وقوله عز وجل: (يد الله فوق أيديهم) وقوله سبحانه: (فإنك بأعيننا) ، (ولتصنع على عيني) ، (لما خلقت بيدي) ومثاله من السنة قوله: (ينزل ربنا في الثلث الأخير من الليل...) وقوله: (ضحك الله الليلة من فعالكما) (إن الله خلق آدم على صورته) ونحو ذلك مما يوهم ظاهره مشابهة الله تعالى لخلقه.

وحكم المتشابه من هذه النصوص هو الإيمان به على الوجه الذي أراد الله تعالى، والقطع بأن له معنىً عظيماً شريفاً عند الله تعالى، بعد أن ننزه الله تعالى عن الظاهر المستحيل في حقه سبحانه.

هذا هو القدر المشترك بين العلماء في حكمهم على المتشابه، ثم اختلفوا في ما وراء ذلك، ومنشأ الاختلاف جاء من فهمهم لآية المتشابهات واختلافهم في محل الوقوف في قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون كلٌّ من عند ربنا).

قال جمهور السلف إن الوقوف في الآية على لفظ الجلالة لازم، وعليه، قوله تعالى (والراسخون) الواو فيه استثنائية والجملة بعده مستأنفة، وبناء على ذلك يكون المعنى أنه لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله تعالى، ويفوّض العلم بتأويله إليه سبحانه إذ هو تعالى أعلم بمراده، ولا نشتغل بتأويل شيء من ذلك، هذا بعد قطعهم بأن الظاهر المستحيل في حق الله تعالى غير مراد له سبحانه ولا لرسوله .

أما الخلف فقالوا إن الواو في قوله تعالى (والراسخون) عاطفة وما بعدها معطوف على لفظ الجلالة، وعليه يكون معنى الآية، أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه.

وعلى أية حال فإن كلاً من الفريقين لا يضلّل الآخر، كيف وقد نُقِلَ كلٌّ من المذهبين عن سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

ولقد أجمل حجة الإسلام الغزالي - رحمه الله تعالى - ما يجب على المسلم عند سماعه لهذه النصوص بقوله (إجماع العوام عن علم الكلام ص/4 من الطبعة الأزهرية للتراث سنة 1418هـ):

(اعلم أن الحق الصريح الذي لا مرأى فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف، أعني مذهب الصحابة والتابعين. وما أنا أورد بيانه وبيان برهانه، فأقول:

حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور، التقديس ثم التصديق ثم الاعتراف بالعجز ثم السكوت ثم الإمساك ثم الكف ثم التسليم لأهل المعرفة.

أما التقديس: فأعني به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها.

وأما التصديق: فهو الإيمان بما قاله، وأن ما ذكره حق وهو فيما قاله صادق، وأنه حق على الوجه الذي قاله وأراده.

وأما الاعتراف بالعجز: فهو أن يقر بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته.

وأما السكوت: فأن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه، ويعلم أن سؤاله عنه بدعة، وأنه في خوضه فيه مخاطر بدينه، وأنه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث

لا يشعر.

وأما الإمساك: فأن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى، والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق، بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والتصريف والصيغة.

وأما الكف: فأن يكف باطنه عن البحث عنه والتفكير فيه.

وأما التسليم لأهله: فأن لا يعتقد أن ذلك إن خفي عليه لعجزه فقد خفي على رسول الله ، أو على الأنبياء أو على الصديقين والأولياء.

فهذه سبع وظائف اعتقد كافة السلف وجوبها على كل العوام، لا ينبغي أن يظن بالسلف الخلاف في شي منها) اهـ.

وقال الشيخ العلامة محمود خطاب السبكي - رحمه الله تعالى - (إتحاف الكائنات ببيان مذهب السلف والخلف في المشابهات ص / 167):

(المراد به - يعني المتشابه - هنا كل ما ورد في الكتاب أو السنة الصحيحة موهماً مماثلته تعالى للحوادث في شيء ما، وقامت الدلائل القاطعة على امتناع ظاهره في حق الله تعالى، ولذا أجمع السلف والخلف على تأويله تأويلاً إجمالياً بصرف اللفظ عن ظاهره المحال على الله تعالى، لقيام الأدلة القاطعة على أنه تعالى ليس كمثل شيء، ثم إن السلف لا يعينون المعنى المراد من ذلك النص بل يفوضون علمه إلى الله تعالى بناء على أن الوقف على قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله) والخلف يؤولونه تأويلاً تفصيلاً بتعيين المعنى المراد منه لا اضطرارهم إلى ذلك رداً على المبتدعين الذين كثروا في زمانهم، بناء على أن الوقف على قوله تعالى :
(والراسخون في العلم) اهـ.

وقال الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله تعالى - (تعريف عام بدين الإسلام ص/84):
(بيّن الله في القرآن أن فيه آيات محكمات واضحة المعنى، صريحة اللفظ، وآيات
وردت متشابهات، ولا يَضِحُ . الفعل المضارع من (وضح) . المعنى المراد منها تماماً، وإن على
المؤمن ألا يطيل الغوص في معناها، ولا يتتبعها فيجمعها ليفتن الناس بالبحث فيها،
ومن المتشابه آيات الصفات)

وعلق - رحمه الله - على هذا في الهامش قائلاً: (ومن جمعها كلها وألقاها إلى
التلاميذ فقد جانب طريقة السلف، لا سيما إذا ضمّ إليها أحاديث الآحاد المروية في
مثلها، والتي لا تعتبر دليلاً قطعياً في أمور العقائد) اهـ.
ثم بين - رحمه الله تعالى - موقف المسلمين منها فقال:

(المسلمون الأولون وهم سلف هذه الأمة وخيرها وأفضلها لم يتكلموا فيها، ولم
يخوضوا في شرحها، بل آمنوا بما كما جاءت من عند الله على مراد الله، فلما انتشر
علم الكلام، وأوردت الشبه على عقائد الإسلام، وظهرت طبقة جديدة من العلماء
انبرت لردّ هذه الشبه، تكلم هؤلاء العلماء في آيات الصفات، وفهموها على طريقة
العرب في مجاوزة المعنى الأصلي للكلمة إذا لم يمكن فهمها به إلى معنى آخر، وهذا ما
يسمى المجاز أو التأويل، وقيل في هذا: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أحكم،
وكلهم متفقون على أن هذه الآيات نزلت من عند الله، من أنكر شيئاً منها كفر،
وأن من عطّلها تماماً فجعلها لفظاً بلا معنى كفر، ومن فهمها بالمعنى البشري
وطبقه على الله فجعل الخالق كالمخلوق كفر، والمسلك خطر، والمفازة مهلكة،
والنجاة منها باجتناب الخوض فيها) اهـ.

ولقد أجاد رحمه الله تعالى وأحسن، فالمسلك خطر جدّاً، والنجاة باجتناب
الخوض جملة، وليس من الحكمة في شيء إلقاء مثل هذه النصوص على العامة

وتعريضهم بهذا الصنيع للفتنة، وقد تواردت الأخبار في النهي عن ذلك، منها ما خرّجه مسلم في مقدمة الصحيح عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)، وعند البخاري في " كتاب العلم " باب (من خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا) عن عليّ موقوفاً (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟).

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - (الفتح 272/1) في شرحه للحديث:

(فيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة... وضابط ذلك أن يكون الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يُخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب) اهـ.

ولقد نهي الإمام مالك أن يُحدِّث بما قد يلتبس على الناس كما نقل عنه الإمام ابن أبي زيد رحمه الله تعالى (النوادر والزيادات 14 / 553) (ولا ينبغي لأحد أن يصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه، ولا يشبهه كذلك بشيء، وليقل: له - تعالى - يدان كما وصف به نفسه، وله وجه كما وصف به نفسه. تقف عند ما في الكتاب، لأن الله سبحانه لا مثل له ولا شبيهه له ولا نظير له، ولا يروي أحدٌ مثل هذه الأحاديث، مثلُ " إن الله خلق آدم على صورته " ونحو ذلك من الأحاديث. وأعظم مالك أن يتحدث أحدٌ بمثل هذه الأحاديث أو يُردِّدها).

(وانظر أيضاً في هذا البيان والتحصيل 504/18، والسير 104/8، الموافقات 549/4، فتح الباري 272/1).

هذه نصوص واضحة في النهي عن التحديث بالمتشابهات، منها تعلم مجازفة من يخوض في هذه النصوص، ويلقيها على الناس على أنها مما لا يجوز الجهل به، بل ويزيد على هذا بحملها على ما يعهده الناس من هذه الظواهر، ويضلل من يصرفها

عن ظاهرها المحال، الذي هو قطعاً ليس مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ما فهمه أصحابه رضوان الله تعالى عليهم من خطابه الشريف!!

* * * * *

قال الأستاذ الدكتور الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى (كبرى اليقينيات الكونية ص/137) موضعاً شأن هذه المتشابهات:

(يُشكِل . بحسب الظاهر . آيات في كتاب الله، وأحاديث ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تفيد بظاهر ألفاظها وتعابيرها ثبوت بعض النقائص أو النقائص التي نفيناها عن ذات الله جلّ جلاله، كالجبهة والجسمية والجوارح والأعضاء والتحيز في المكان. كقوله سبحانه وتعالى (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) ، وقوله (يد الله فوق أيديهم) ، وقوله (.. بل يدها مبسوطتان كيف يشاء) وقوله (الرحمن على العرش استوى) وكقوله عليه الصلاة والسلام " إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن " ، وقوله " إن الله خلق آدم على صورته " .

إن هذه النصوص القرآنية من نوع التشابه الذي ذكر الله عزّ وجلّ أن في كتابه آيات منه، والمقصود بالمتشابه كل نصّ تجاذبته الاحتمالات حول المعنى المراد منه، وأوهم بظاهره ما قامت الأدلة على نفيه.

غير أن هنالك آيات تتعلق بصفات الله تعالى أيضاً، ولكنها محكمات أي قاطعة في دلالتها لا تحتل إلا معناها الواضح الصريح، كقوله جلّ جلاله (ليس كمثله شيء) ، وقوله (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم

يكن له كفوا أحد) وقد أوضح الله في كتابه بصريح العبارة ضرورة اتباع المؤمن للنصوص المحكمة في كتابه، وبناء عقيدته في الله بموجبها، ووضع النصوص المتشابهة من ورائها من حيث فهمها والوقوف على المعنى المراد منها... ثم قال:

(وبناء على ذلك فقد اتفق المسلمون كلهم على تنزيه الله تعالى عما يقتضيه ظاهر تلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية من الصفات المنافية لكمال الله وألوهيته... وبعد أن اتفقوا على ذلك . وهذا القدر الذي يجب أن يعتقد المسلم . اختلفوا في موقفهم من النصوص المتشابهة إلى مذهبين: أولهما تمسك به السلف المتقدمون، وثانيهما جرح إليه من بعدهم من المتأخرين) اهـ.

وعلى الجملة، فإنه لم يؤثر عن علماء الأمة في المتشابهة إلا هذان المذهبان المعتربان فقط، مذهب التفويض، وهو مذهب أكثر السلف، ومذهب التأويل، وهو مذهب الخلف وجماعات من السلف، ولا عبرة بمن قال بالأخذ بظاهر نصوص المتشابهة، لمناقضته للمنقول وبداهة العقول.

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - أثناء شرحه لحديث من أحاديث الصفات (شرح مسلم 6 / 36):

(هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان مشهوران للعلماء سبق إيضاحهما في كتاب الإيمان، ومختصرهما أن أحدهما: وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين، أنه يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد ولا يتكلم في تأويلها مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق، والثاني: مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف وهو محكي عن مالك والأوزاعي أنها تتأول على ما يليق بها بحسب مواطنها) اهـ.

فاقتصر رحمه الله تعالى على ذكر هذين المذهبين، ونص على أن مذهب التأويل منقول أيضاً عن السلف رضوان الله تعالى عليهم، وهذا ليعلم من ينحى على الأشاعرة والماتريدية باللوائم ويصفهم بالابتداع لكونهم سَوَّغُوا مسلك التأويل بشروطه أنه على السلف يعيب وإياهم ينتقص.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في مثل هذه النصوص (فتح الباري 13 / 466): (إما تفويض وإما تأويل) اهـ.

وقال أيضاً أثناء رده على أبي إسماعيل الهروي حين اعترض على من أول أحاديث النزول، وذكر - أي الهروي - عدة أحاديث في الصعود زاعماً أنها لا تقبل التأويل، فردّ عليه الحافظ بعد أن وصفه بالمبالغة في الإثبات ونقل طعن البعض عليه بسبب ذلك، قال الحافظ (الفتح 13 / 476): (فهذه الطرق كلها ضعيفة، وعلى تقدير ثبوتها لا يقبل قوله "إنها لا تقبل التأويل" فإن مُصَلِّها ذكّر الصعود بعد النزول، فكما قَبِلَ النزولَ التأويلَ لا يُمنع قبول الصعودِ التأويلَ، والتسليم أسلم) اهـ.

فانظر إلى قوله رحمه الله (والتسليم أسلم) يتبين لك كونهم - رحمهم الله تعالى - ما طرَقوا سبيل التأويل إلا مضطرين ملجئين، ولولا ذلك لوقفوا حيث وقف السلف رضوان الله على الجميع.

وقال الإمام الكرمانى - رحمه الله تعالى - في حديث من أحاديث الصفات (الفتح 13 / 13):

(حكم هذا حكم سائر المتشابهات، إما التفويض وإما التأويل) اهـ.

وقال أيضاً عن حديث آخر (13 / 441):

(هذا الحديث من المتشابهات فيما مفوض وإما مؤول) اهـ.

وقال الإمام بدر الدين بن جماعة عند قوله تعالى (ثم استوى على العرش)

(إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة، طبع دار السلام القاهرة ص/103):

(... واتفق السلف وأهل التأويل على أن ما لا يليق من ذلك بجلال الرب تعالى

غير مراد، كالتعود والاعتدال... فسكت السلف عنه - يعني تعيين المراد - وأوله

المتأولون) اهـ.

وقال الإمام أبو عبد الله الأبي في شرحه على صحيح مسلم عند كلامه على

حديث النزول (2 / 385):

(... ومذهب أهل الحق في جميع ذلك أن يصرف اللفظ عن ظاهره المحال، ثم

بعد الصرف هل الأولى التأويل أو عدمه، بأن يؤمن باللفظ على ما يليق، ويكل علم

حقيقة ذلك إلى الله سبحانه وتعالى... ثم الأظهر من قول أهل الحق التأويل) اهـ.

وقال الإمام العلامة ملا علي القاري - رحمه الله تعالى - بعد أن نقل قول

الإمام النووي المازّ معنا قريباً (مرقاة المفاتيح 2 / 136):

(وبكلامه وبكلام الشيخ الرباني أبي إسحاق الشيرازي وإمام الحرمين والغزالي

وغيرهم من أئمتنا وغيرهم يعلم أن المذهبين متفقان على صرف تلك الظواهر كالجيء

والصورة والشخص والرجل والقدم واليد والوجه والغضب والرحمة والاستواء على العرش

والكون في السماء وغير ذلك عما يفهمه ظاهرها، لما يلزم عليه من محالات قطعية

البطلان تستلزم أشياء يحكم بكفرها بالإجماع، فاضطر ذلك جميع الخلف والسلف إلى

صرف اللفظ عن ظاهره.

وإنما اختلفوا هل نصرفه عن ظاهره معتقدين اتصافه سبحانه بما يليق بجلاله

وعظمته من غير أن نؤوله بشيء آخر، وهو مذهب أكثر أهل السلف وفيه تأويل إجمالي، أو مع تأويله بشيء آخر وهو مذهب أكثر أهل الخلف، وهو تأويل تفصيلي، ولم يريدوا بذلك مخالفة السلف الصالح - معاذ الله أن يظن بهم ذلك - وإنما دعت الضرورة في أزمتهم لذلك، لكثرة المجسمة والجهمية وغيرها من فرق الضلال، واستيلائهم على عقول العامة، فقصدوا بذلك ردعهم وبطلان قولهم، ومن ثم اعتذر كثير منهم وقالوا: لو كنا على ما كان عليه السلف الصالح من صفاء العقائد وعدم المبطلين في زمنهم لم نخض في تأويل شيء من ذلك) اهـ.

وقال الإمام الزركشي - رحمه الله تعالى - (البرهان في علوم القرآن 2/ 207):

(اختلف الناس في الوارد منها - يريد المتشابهات - في الآيات والأحاديث على

ثلاث فرق:

أحدها: لا مدخل للتأويل فيها، بل تجرى على ظاهرها، ولا نؤول شيئاً منها، وهم المشبهة.

والثاني: أن لها تأويلاً ولكننا نمسك عنه مع تنزيه اعتقادنا عن الشبه والتعطيل ونقول لا يعلمه إلا الله، وهو قول السلف.

والثالث: أنها مؤولة، وأولوها على ما يليق به. والأول باطل، والأخيران منقولان عن الصحابة... وممن نقل عنه التأويل علي وابن مسعود وابن عباس وغيرهم) اهـ.

وقال العلامة محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله تعالى عند شرحه لحديث النزول من الموطأ (أوجز المسالك 4/334): (فالعلماء في ذلك على قسمين: الأول المغوّضة... والقسم الثاني: المؤولة) اهـ.

بهذا يكون الصبح قد استبان لذي عينين، وثبت أن التفويض والتأويل هما المذهبان الصحيحان في المتشابه من نصوص الصفات. بقي أن نبين سبب ورود مثل هذه الألفاظ في الكتاب والسنة مع كونها مثاراً لاختلاف ومزلة قدم، فنقول: لا يبعد أن يكون ورود مثل هذه الألفاظ اختباراً وابتلاءً للناس، ليتبين من يلتزم الحد ويقف حيث أمر، ومن يتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وتضليل الخلق، قال تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون كلٌّ من عند ربنا ، وما يتذكر إلا أولوا الألباب)

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى (إجماع العوام ص/49):

(إن قال قائل ما الذي دعا رسول الله ' إلى إطلاق هذه الألفاظ الموهمة مع الاستغناء عنها، أكان لا يدري أنه يوهم التشبيه ويغلط الخلق ويسوقهم إلى اعتقاد الباطل في ذات الله تعالى وصفاته، وحاشا منصب النبوة أن يخفى عليه ذلك، أو عرف ولكن لم يبالي بجهل الجاهل وضلالة الضالّ، وهذا أبعد وأشنع لأنه بُعِثَ شارحاً لا مبهماً ملتبساً ملغزاً، وهذا إشكال له وقع في القلوب حتى جرّ بعض الخلق إلى سوء الاعتقاد فيه، فقالوا: لو كان نبياً لعرف الله ولو عرفه لما وصفه بما يستحيل عليه في ذاته وصفاته، ومالت طائفة أخرى إلى اعتقاد الظواهر، وقالوا لو لم يكن حقاً - أي هذه الظواهر المحالة - لما ذكره كذلك مطلقاً، ولعدل عنها إلى غيرها أو قرنها بما يزيل الإيهام عنها في سبيل حلّ هذا الإشكال العظيم.

فالجواب: أن هذا الإشكال مُنْحَلٌّ عند أهل البصيرة، وبيانه أن هذه الكلمات ما جمعها رسول الله دفعةً واحدة وما ذكرها، وإنما جمعها المشبهة، وقد بيّنا أن جمعها

من التأثير في الإيهام والتلبيس على الأفهام ما ليس لآحادها المفترقة، وإنما هي كلمات لهج بها في جميع عمره ' في أوقات متباعدة، وإذا اقتصر منها على ما في القرآن والأخبار المتواترة رجعت إلى كلمات يسيرة معدودة، وإن أضيفت إليها الأخبار الصحيحة فهي أيضاً قليلة، وإنما كثرت الروايات الشاذة الضعيفة التي لا يجوز التعويل عليها، ثم ما تواتر منها إن صح نقلها عن العدول فهي آحاد كلمات وما ذكر ' كلمة منها إلا مع قرائن وإشارات يزول معها إيهام التشبيه، وقد أدركها الحاضرون المشاهدون، فإذا نُقلت الألفاظ مجردة عن تلك القرائن ظهر الإيهام، وأعظم القرائن في زوال الإيهام المعرفة السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول هذه الظواهر، ومن سبقت معرفته بذلك كانت تلك المعرفة ذخيرة له راسخة في نفسه مقارنة لكل ما يسمع، فينمحق معه الإيهام انمحاقاً لا يشك فيه، ويعرف هذا بأمثلة:

الأول: أنه ' سمي الكعبة بيت الله تعالى، وإطلاق هذا يوهم عند الصبيان وعند من تقرب درجتهم منهم أن الكعبة وطنه ومثواه لكن العوام الذين اعتقدوا أنه في السماء وأن استقراره على العرش ينمحق في حقهم هذا الإيهام على وجه لا يشكون فيه، فلو قيل لهم: ما الذي دعا رسول الله ' إلى إطلاق هذا اللفظ الموهم المخيل إلى السامع أن الكعبة مسكنه؟ لبادروا بأجمعهم وقالوا: هذا إنما يوهم في حق الصبيان والحمقى أما من تكرر على سمعه أن الله مستقر على عرشه فلا يشك عند سماع هذا اللفظ أنه ليس المراد به أن البيت مسكنه ومأواه، بل يعلم على البديهة أن المراد بهذه الإضافة تشريف البيت أو معنى سواه غير ما وُضع له لفظ البيت المضاف إلى ربه وساكته. أليس كان اعتقاده أنه على العرش قرينة أفادته علماً قطعياً بأنه ما أريد بكون الكعبة بيته أنه مأواه، وأن هذا إنما يوهم في حق من لا يسبق إلى هذه العقيدة، فكذلك رسول الله ' خاطب بهذه الألفاظ جماعة سبقوا إلى علم التقديس ونفي

التشبيه وأنه منزه عن الجسمية وعوارضها، وكان ذلك قرينة قطعية مزيلة للإيهام لا يبقى معه شك، وإن جاز أن يبقى لبعضهم تردد في تأويله وتعيين المراد به من جملة ما يحتمله اللفظ ويليق بجلال الله تعالى) اهـ.

ثم أخذ الإمام الغزالي رحمه الله يزيل كل توهم في هذه القضية ببيانه المحكم وعبارته الفصيحة، فليراجع فهو غاية في الأهمية.

وبهذا يعلم أن من قال بظواهر هذه النصوص قد خالف السلف والخلف، وأتى بقول مبتدع ليس له نصيب من الحق، إذ ليس في هذه المسألة إلا التفويض أو التأويل، كما يعلم أيضاً بأن التأويل ليس بدعة في الدين كما يروجه البعض - جهلاً - على العامة، بل هو مذهب حق ثابت عن سلف الأمة، وجارٍ على سنن لغة العرب.

فلماذا كل هذا التهويل في أمر لا يستلزم ذلك، لا سيما والحق فيه مع الأشاعرة والماتريدية؟!!

ولماذا كل هذا الإصرار على تفريق الأمة والفتن في عضدها وخضد شوكتها؟!
وكأن الأمة لا يكفيها ما تنحُّ تحت وطأته من مصائب وإحن؟!!

* * * * *

الخلاف في العقيدة

هل كل خلاف في العقيدة سواء كان في الأصول أو في الفروع يترتب عليه الكفر أو الضلالة، والبدعة والفسق؟

وهل وقع بين الصحابة وعلماء السلف الطيب خلاف في العقائد؟
وهل وقع بينهم رضي الله عنهم على إثر ذلك الخلاف تضليل لبعضهم أو تفسيق؟

عند الإجابة على هذه الأسئلة يتضح خطأ الذين يجازفون بتضليل الأشاعرة والماتريدية وعلماء الأمة وأعلامها وكل من خالفهم بغير علم ولا روية.
وكان الأجدر بهم - وحال الأمة من التفكك والتشردم يدمى له قلب كل غيور - أن يُحمل الخلاف إذا وجد على محامل حسنة تتفق مع صدر ديننا الرحب، ويُلمس العذر قدر المستطاع كي لا يزيدوا في فرقة الأمة وتشتتها، ويعينوا عليها أعداءها، كالتّي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

وليبيان قضية الخلاف في العقيدة نقول:

إن العقيدة تنقسم إلى أصول وفروع، والأصول تنقسم كذلك إلى أصول الدين وأصول مذهب أهل السنة والجماعة، أما أصول الدين، مثل: وجود الله تعالى ووحدانيته وبقاؤه وقدمه، وحدوث العالم، وهو كل ما سوى الله تعالى من الموجودات، وصدق الرسل والأنبياء، ونحو ذلك من القضايا، فحكم المخالف فيها الخروج من الملة بلا خلاف لكونها أعمدة الدين وأسسها التي ينبني عليها، ومثال المخالفين فيها أصحاب الديانات والنحل الأخرى كاليهودية والنصرانية والمجوسية والبوذية.. الخ

نقل الإمام النووي - رحمه الله تعالى - عن الإمام المتولي قوله (روضة الطالبين 10 /

:64)

(من اعتقد قدم العالم أو حدوث الصانع أو نفى ما هو ثابت للقلم بالإجماع، ككونه عالماً قادراً، أو أثبت ما هو منفي عنه بالإجماع، كالألوان، أو أثبت له الاتصال والانفصال، كان كافراً، وكذا من جحد جواز بعثة الرسل، أو أنكر نبوة نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، أو كذبه، أو جحد آية من القرآن مجعماً عليها، أو زاد في القرآن كلمة واعتقد أنها منه، أو سبَّ نبياً أو استخف به، أو استحل محرماً بالإجماع، كالخمر والزنى واللواط، أو حرم حلالاً بالإجماع، أو نفى وجوب مجمع على وجوبه، كركعة من الصلوات الخمس، أو اعتقد وجوب ما ليس بواجب بالإجماع، كصلاة سادسة وصوم شوال، أو نسب عائشة رضي الله عنها إلى الفاحشة، أو ادعى النبوة بعد نبينا، أو صدق مدّعياً لها، أو عظم صنماً بالسجود له، أو تقرب إليه بالذبح باسمه فكل هذا كفر) اهـ.

وهنا قضية هامة وخطرة لا بد من التعرّيج عليها قبل الانتقال إلى الخلاف في أصول أهل السنة والجماعة بشيء من البسط حسب ما يقتضيه المقام، وهي قول الإمام المتولي (أو أثبت له الاتصال أو الانفصال) فجعل إثبات الاتصال والانفصال لله تعالى من الأمور المكفّرة ووافقه على ذلك الإمام النووي، وسيأتي معنا أقوال العلماء التي تنزه الله تعالى عن الاتصال والانفصال والمكان والحيز والجهة وكل ما لا يليق به من صفات المخلوقين.

والاتصال والانفصال هو الدخول والخروج الذي ينزه أهل السنة الله تعالى عن الاتصاف بأحدهما.

هذه القضية من الأهمية والخطورة بمكان، ولولا عدم الفهم لها فهماً صحيحاً من قبل هؤلاء الذين ينكرون على الأشاعرة لأجلها ما أدرجناها هنا لدقتها، بيد أننا سنحاول أن لا ندخل في تفاصيلها وسنكتفي بالبيان الإجمالي وبنقل أقوال العلماء

المخذرة من وصف الله تعالى بأي شيء من ذلك، ومن أراد الاستزادة والتفصيل فليراجع المسألة في مظانها من كتب العقائد.

كثيراً ما نقرأ أو نسمع من البعض التصريح بوصف الله تعالى بأنه (بائن من خلقه بذاته!!) وهذا القول هو ما حذر العلماء منه، لأن البينونة بالذات هي الانفصال الذي حكم العلماء بجرمة وصف الله تعالى به كما مر من قول المتولي وإقرار النووي رحمهما الله، وكما سيأتي من نصوص غيرهما من العلماء، فهذا القول - وهو قولهم بائن بذاته - فضلاً عن كونه قولاً ممتنعاً عقلاً فهو أيضاً قولٌ مبتدع لم يرد في كتاب ولا سنة ولا على لسان أحد من الصحابة أو التابعين.

وإليك أقوال العلماء في إنكار لفظه (بذاته):

قال الحافظ الذهبي أثناء ترجمة ابن الزاغوني (سير أعلام النبلاء 607/19):

(قد ذكرنا أن لفظه بذاته لا حاجة إليها، وهي تشعب النفوس، وتركها أولى، والله أعلم) اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني عند شرحه لحديث "إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن ربه بينه وبين القبلة..." الحديث، قال: (وفيه - أي الحديث - الرد على من زعم أنه على العرش بذاته) اهـ.

وقال الحافظ الذهبي في كتاب (العلو / ص 263) بعد أن نقل قول يحيى بن عمار: (بل نقول هو بذاته على العرش وعلمه محيط بكل شيء) قال الذهبي (قولك "بذاته" من كيسك) اهـ.

وقال أيضاً في ترجمة الحافظ أبي القاسم إسماعيل بن محمد التيمي (سير أعلام النبلاء 86/20):

قلت: الصواب الكف عن إطلاق ذلك، إذ لم يأت فيه نص، ولو فرضنا أن المعنى صحيح فليس لنا أن نتفوه بشيء لم يأذن به الله خوفاً من أن يدخل القلب شيء من البدعة. اللهم احفظ علينا إيماننا) اهـ.

وافترض الذهبي لصحة المعنى محمول على ما ذكره صاحب الترجمة من المعاني الصحيحة للفظ (بذاته) لا على المعنى الظاهر المتبادر إلى الذهن منها.

وقال الإمام بدر الدين بن جماعة رحمه الله تعالى في كتابه (إيضاح الدليل ص/107):

(فمن جعل الاستواء في حقه تعالى ما يفهم من صفات المحدثين وقال: استوى بذاته، أو قال: استوى حقيقة فقد ابتدع بهذه الزيادة التي لم تثبت في السنة ولا عن أحد من الأئمة المقتدى بهم) اهـ.

وقال الحافظ الذهبي في (العلو/ ص 256):

(وقد نعموا عليه . يعني ابن أبي زيد القيرواني . في قوله بذاته . فليته تركها) اهـ.
هذا مع اليقين بأن الإمام ابن أبي زيد القيرواني لم يُردّ بهذه اللفظة - إذا صحّت عنه⁽¹⁾ - المعنى الذي يريده البعض من ذكرها، كما هو بيّن وجليّ من أقوال شراح رسالته، وهو أشعري محب للإمام أبي الحسن كما هو واضح من جوابه لمن لأمه في حُبّه، قال: (ما الأشعري إلا رجل مشهور بالردّ على أهل البدع وعلى القدرية والجهمية متمسك بالسنن) اهـ، وقد ذكره التاج السبكي ضمن الطبقة الثانية من الأشاعرة الذين فات الحافظ ابن عساكر ذكرهم في كتابه " التبيين " (تبيين كذب

(1) قال العلامة الكوثري رحمه الله في تعليقه على تبيين كذب المفتري في هامش ص/123 (يطبق شرح رسالته على أن هذه اللفظة إما مدسوسة أو من قبيل الاحتراس بالرفع أي: المجيد بذاته لا بالخدم والحوّل).

المفتري ص/123، طبقات الشافعية الكبرى 3/368، 372).

وقال الإمام ابن عبدالبر رحمه الله (الاستذكار 8/153):

(وقد قالت فرقة منتسبة إلى السنة: إنه - تعالى - ينزل بذاته! وهذا قول مهجور، لأنه تعالى ذكَّره ليس بمحل للحركات ولا فيه شيء من علامات المخلوقات.) اهـ.

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى (السير 20/331، في ترجمة كوتاه):

(وكذا قوله (وجاء ربك) ونحوه، فنقول: جاء، وينزل، ونهى عن القول: ينزل بذاته، كما لا نقول: ينزل بعلمه، بل نسكت ولا نتفصح على الرسول صلى الله عليه وسلم بعبارات مبتدعة، والله أعلم) اهـ.

وبهذا يتضح أن لفظة بذاته غير ثابتة عن سلف الأمة الطيب وأبائها العقل والنقل. فأى حجة أقوى من هذه الحجة ونصوص الأئمة لا تحمل معها أي معنى آخر، ونحن إذ ثبت هذا لا نحتم على مخالفينا اتباع ما نقول، كالأئمة، وإنما حسبنا أن يكفوا عن إساءتهم لعلماء الأمة وأئمة الهدى الذين لا يفتأون يُجرِّحونهم ويقعون في أعراضهم!! قال أبو الحسين ابن المنادي - رحمه الله - كما نقله ابن الجوزي من خطه (دفع شبه التشبيه 192):

(ولسنا نختلف أن الجبار لا يعلوه شيء من خلقه بحال، وأنه لا يحلّ بالأشياء بنفسه، ولا يزول عنها، لأنه لو حل بها لكان منها، ولو زال عنها لنأى عنها.) اهـ.

وقول ابن المنادي (وأنه لا يحلّ بالأشياء بنفسه ولا يزول عنها) هو عين ما يعنيه العلماء بقولهم: إن الله تعالى لا يوصف بالاتصال والانفصال والدخول والخروج.

وابن المنادي هو الإمام أحمد بن جعفر المقرئ الحافظ كما وصفه الذهبي (السير

15 / 361) قال: (قال عنه الدائني: مقررئ جليل غاية في الإتقان، فصيح اللسان، عالم بالآثار، نهاية في علم العربية، صاحب سنة ثقة مأمون). اهـ.

قال العلامة ابن خلدون رحمه الله تعالى (المقدمة ص/868):

(يقع كثيراً في كلام أهل العقائد من علماء الحديث والفقهاء أن الله تعالى مبين لمخلوقاته، ويقع للمتكلمين أنه لا مباين ولا متصل، ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه... فلنبين تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحد منها حتى تتضح معانيها، فنقول: إن المباينة تقال لمعنيين أحدهما: المباينة في الحيز والجهة، ويقابلها [أي المباينة بهذا المعنى] الاتصال، وتُشعر هذه المقابلة على هذه التقيّد بالمكان إما صريحاً وهو تجسيم، أو لزوماً وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة، وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح بهذه المباينة، فيحتمل غير هذا المعنى، ومن أجل ذلك أنكر المتكلمون هذه المباينة، وقالوا: لا يقال في الباري أنه مبين مخلوقاته ولا متصل بها، لأن ذلك إنما يكون للمتحيّزات، وما يقال من أن المحلّ لا يخلو عن الاتصاف بالمعنى وضده [أي نقيضه] فهو مشروط بصحة الاتصاف أولاً، وأما مع امتناعه فلا، بل يجوز الخلو عن المعنى وضده كما يقال في الجماد لا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ولا كاتب ولا أمي، وصحة الاتصاف بهذه المباينة [أي المباينة في الحيز والجهة] مشروط بالحصول في الجهة، على ما تقرر من مدلولها، والبارئ منزّه عن ذلك، ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع لإمام الحرمين، وقال: " ولا يقال في الباري مبين للعالم ولا متصل به، ولا داخل فيه ولا خارج عنه."

وأما المعنى الآخر للمباينة فهو المغايرة والمخالفة، فيقال: الباري مبين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده وصفاته، ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط، وهذه المباينة هي مذهب أهل الحق كلهم من جمهور السلف وعلماء الشرائع والمتكلمين

والمتمصوفة الأقدمين كأهل الرسالة [أي من جاء ذكرهم في رسالة القشيري] ومن
نحا منحاهم) اهـ.

وقال ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - (دفع شبه التشبيهه ص 130):

(فإن التجاور والتباين من لوازم المتحيز في المتحيزات، وقد ثبت أن الاجتماع
والافتراق من لوازم المتحيز، والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالتحيز... وكذا ينبغي
أن يقال: ليس بداخل العالم وليس بخارج منه، لأن الدخول والخروج من لوازم
المتحيزات وهما كالحركة والسكون وسائر الأعراض التي تختص بالأجرام.... وكلام
هؤلاء كله مبني على الحس، وقد حملهم الحس على التشبيه والتخليط) اهـ.

ولقد فرعوا على القول بأن الله تعالى بائن بذاته من خلقه . وهي بينونة حسية . وعلى
إثبات الحد له سبحانه وتعالى، فرعوا على ذلك القول بالجهة لله تعالى أي أنه تعالى
بجهة الفوق حساً ويشار إليه بالإشارة الحسية، ونسبوا لله تعالى المكان.

**وهذه أقوال الأئمة الثقات بنفي الجهة عن الله تعالى وتنزيهه عن
المكان:**

*** تنزيه الإمام مالك لله تعالى عن الجهة والمكان والعلو والنزول الحسي:**

ذكر الإمام قاضي القضاة ناصر الدين بن المنير الإسكندري المالكي في كتابه "
المنتقى في شرف المصطفى" لما تكلم على الجهة وقرر نفيها قال:

(ولهذا أشار مالك رحمه الله تعالى في قوله " لا تفضلوني على يونس بن متى "
فقال مالك: إنما خص يونس للتبنيه على التنزيه لأنه، رفع إلى العرش ويونس عليه

السلام هبط إلى قاموس البحر ونسبتهما مع ذلك من حيث الجهة إلى الحق جل جلاله نسبة واحدة ولو كان الفضل بالمكان لكان عليه السلام أقرب من يونس بن متى وأفضل، ولَمَّا نهي عن ذلك) اهـ.

ثم أخذ الإمام ناصر الدين يبين أن الفضل بالمكانة لا بالمكان لأن العرش في الرفيق الأعلى فهو أفضل من السفلى. (إتحاف السادة المتقين 2 / 105).

وقال الإمام مالك رضي الله عنه في تأويله للنزول في الحديث (ينزل أمره كل سحر، فأما هو عز وجل فإنه دائم لا يزول ولا ينتقل، سبحانه لا إله إلا هو) اهـ. (التمهيد 7 / 143، شرح صحيح مسلم للنووي 6 / 37، سير أعلام النبلاء 8 / 105، الإنصاف لابن السيد البطيوسي ص / 81) قال الإمام ابن عبد البر بعد نقله لقول مالك: (وقد يحتمل أن يكون كما قال مالك رحمه الله على معنى أنه تنزل رحمته وقضاؤه بالعفو والاستجابة) ثم قال بعد أن ذكر قول الذين يقولون: ينزل بذاته. قال رحمه الله تعالى: (ليس هذا بشيء عند أهل الفهم من أهل السنة، لأن هذا كيفية، وهم يفرعون منها لأنها لا تصلح إلا فيما يحاط به عياناً وقد جل الله وتعالى عن ذلك).

* قول الإمام الطبري في نفي العلو الحسي:

قال الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله تعالى - عند تفسير قوله عز وجل (وه القاهر فوق عباده) (7 / 103) قال (فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه) فجعل - رحمه الله - فوقية الله على عباده فوقية القهر، وعباده دونه أي تحته من هذه الحيثية.

وقال أيضاً مؤولاً علو الله تعالى على عرشه وناظراً للاستقرار والتحيز (1 / 192):

(علا عليه علو ملك وسلطان لا علو انتقال وزوال) اهـ.

* قول القاضي عياض في صرف ألفاظ المتشابه عن ظاهرها ونقله اتفاق الأمة على ذلك:

قال - رحمه الله تعالى - (إكمال المعلم 465/2، شرح صحيح مسلم للنووي 5 / 24):
(لا خلاف بين المسلمين قاطبة فقيهم ومحدثهم ومتكلمهم ونظارهم ومقلدهم
أن الظواهر الواردة بذكر الله تعالى في السماء كقوله تعالى (ءَأَمَّنتُم من في السماء أن
يخسف بكم الأرض) ونحوه ليست على ظاهرها بل متأولة عند جميعهم) اهـ.

* قول الإمام النووي:

قال . رحمه الله تعالى . (روضة الطالبين 10 / 85):
(ولو قال - يعني الكافر - لا إله إلا ساكن السماء، لم يكن مؤمناً، وكذا لو
قال لا إله إلا الله ساكن السماء، لأن السكون محال على الله) اهـ.
وقال أيضاً . رحمه الله تعالى . في شرح حديث الجارية (شرح مسلم 5 / 24):
(هذا حديث من أحاديث الصفات وفيها مذهبان، أحدهما الإيمان به من غير
خوض في معناه مع اعتقاد أن الله تعالى ليس كمثله شيء وتنزيهه عن سمات
المخلوقات).

والثاني: تأويله بما يليق. فمن قال بهذا قال: كأن المراد امتحان الجارية هل هي
موحدة تُقرّ بأن الخالق المدبر الفعال هو الله وحده وهو الذي إذا دعاه الداعي استقبل
السماء، كما إذا صَلَّى المصلِّي استقبل الكعبة، وليس ذلك لأنه منحصر في السماء

كما أنه ليس منحصرًا في جهة الكعبة، بل ذلك لأن السماء قبله الداعين كما أن الكعبة قبله المصلين، أو هي من عبدة الأوثان التي بين أيديهم، فلما قالت: في السماء علم أنها موحدة وليست عابدة للأوثان) اهـ.

* قول الحافظ ابن حجر العسقلاني:

قال - رحمه الله تعالى - (الفتح 6 / 158): (ولا يلزم من كون جهتي العلو والسفل محال على الله أن لا يوصف بالعلو، لأن وصفه بالعلو، من جهة المعنى، والمستحيل كون ذلك من جهة الحس) اهـ.

وقال - أيضاً - معلقاً على حديث "إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن ربه بينه وبين القبلة فلا ييزقن أحدكم قبل قبلته ":

(وفيه رد على من زعم أنه - تعالى - على العرش بذاته) اهـ (الفتح 1 / 508).

وقال أيضاً منزهاً لله تعالى عن الجهة والمكان عند كلامه على حديث " لا شخص أغير من الله " (الفتح 13 / 413):

(وكان لفظ الشخص أطلق مبالغة في إثبات إيمان من يتعذر على فهمه موجود لا يشبه شيئاً من الموجودات، لئلا يفضي به إلى النفي والتعطيل، وهو نحو قوله ' للحارية " أين الله " قالت: " في السماء "، فحكم بإيمانها مخافة أن تقع في التعطيل لقصور فهمها عمّا ينبغي له من تنزيهه مما يقتضي التشبيه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) اهـ.

وقال أيضاً ناقلاً قول ابن بطال مؤيداً له (الفتح 13/397):

(والله منزّه عن الحلول في المواضع، لأن الحلول عرض يفنى، وهو حادث،

والحادث لا يليق بالله.) اهـ.

وقال في شرحه لحديث النزول (الفتح 3 / 37):

(استدل به من أثبت الجهة وقال: هي جهة العلوّ، وأنكر ذلك الجمهور، لأن القول بذلك يفضي إلى التحيز تعالى الله عن ذلك. وقد اختلف في معنى النزول على أقوال:

فمنهم من حمّله على ظاهره وحقيقته وهم المشبهة، تعالى الله عن قولهم.

ومنهم من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جملة، وهم الخوارج والمعتزلة، وهو مكابرة...

ومنهم من أجراه على ما ورد مؤمناً به على طريق الإجمال منزهاً الله تعالى عن الكيفية والتشبيه وهم جمهور السلف، ونقله البيهقي وغيره عن الأئمة الأربعة والسفيانيين والحمّادين والأوزاعي والليث وغيرهم.

ومنهم من أوّله على وجه يليق مستعمل في كلام العرب... ومنهم من فصل بين ما يكون تأويله قريباً مستعملاً في كلام العرب وبين ما يكون بعيداً مهجوراً، فأوّل في بعض وفوّض في بعض، وهو منقول عن مالك وحزم به من المتأخرين ابن دقيق العيد) اهـ.

* قول الإمام ابن الجوزي:

قال - رحمه الله تعالى - (دفع شبه التشبيه. ص / 136):

(اعلم أن كل من يتصور وجود الحق سبحانه وجوداً مكانياً طلب له جهة، كما أن من تخيل أن وجوده وجود زماني طلب له مدة في تقدمه على العالم بأزمته، وكلا

التخيلين باطل.

وقد ثبت أن جميع الجهات تتساوى بالإضافة إلى القائل بالجهة، فاختصاصه ببعضها ليس بواجب لذاته، بل هو جائز فيحتاج إلى مخصص يخصصه ويكون الاختصاص بذلك المعنى زائداً على ذاته وما تطرق الجواز إليه استحاله قدمه، لأن القديم هو الواجب الوجود من جميع الجهات، ثم إن كل من هو في جهة يكون مقدراً محدوداً وهو يتعالى عن ذلك، وإنما الجهات للجواهر والأجسام لأنها أجرام تحتاج إلى جهة، والجهة ليست في جهة، وإذا ثبت بطلان الجهة ثبت بطلان المكان، ويوضحه أن المكان يحيط بمن فيه والخالق لا يحويه شيء ولا تحدث له صفة) اهـ.

وقوله رحمه الله تعالى (والجهة ليست في جهة) أراد أن يرده فيه زعم الزاعم: لا يُتَعَقَّلُ موجود ليس في جهة. توصلاً بهذا إلى إثبات الجهة لله تعالى، إذ الجهة موجودة عند هذا الزاعم وهي ليست في جهة من نفسها، إذ لو كانت كذلك لتسلسل الأمر إلى غير نهاية، وهذا باطل، فثبت أن الجهة موجودة بلا جهة، وبه ينتقض زعمهم: لا يُتَعَقَّلُ موجود ليس في جهة من الجهات.

وقال القاضي أبو يعلى (دفع شبه التشبيه 137):

(إن الله عز وجل لا يوصف بالمكان) اهـ.

قال الإمام ابن الجوزي بعد نقله لقول أبي يعلى الفراء (دفع شبه التشبيه 138):

(فإن قيل: نفي الجهات يحيل وجوده. قلنا: إن كان الموجود يقبل الاتصال

والانفصال فقد صدقت، فأما إذا لم يقبلهما فليس حلوه من طرف النقيض بمحال.

فإن قيل: أنتم تلزموننا أن نقر بما لا يدخل تحت الفهم. قلنا: إن أردت بالفهم

التخيل والتصور فإن الخالق لا يدخل تحت ذلك، إذ ليس يحس ولا يدخل تحت ذلك

إلا جسم له لون وقدر، فإن الخيال قد أنس بالمبصرات فهو لا يتوهم شيئاً إلا على وفق ما رآه لأن الوهم من نتائج الحس، وإن أردت أنه لا يعلم بالعقل فقد دللنا أنه ثابت بالعقل، لأن العقل مضطر إلى التصديق بموجب الدليل.

واعلم أنك لما لم تجد إلا حسناً أو عرضاً وعلمت تنزيه الخالق عن ذلك بدليل العقل الذي صرفك عن ذلك، فينبغي أن يصرفك عن كونه متحيزاً أو متحركاً أو منتقلاً.

ولما كان مثل هذا الكلام لا يفهمه العامي قلنا: لا تسمعه ما لا يفهمه ودعوا اعتقاده لا تحركوه، ويقال إن الله تعالى استوى على عرشه كما يليق به) اهـ.

وهذا واضح في أن الأصل في النصوص المتشابهة التفويض ما لم تدع حاجة إلى التأويل، وهو ما كان عليه جمهور السلف الصالح كما سيأتي من أقوال العلماء التي تفيد ذلك، وأنهم - نعني السلف - لو وُجد في أزمانهم ما حدث بعد ذلك لجهروا بالتأويل، كيف وقد ثبت التأويل عن جماعات منهم؟!

* قول الإمام القشيري:

قال الإمام القشيري - رحمه الله تعالى - (إتحاف السادة المتقين 2 / 108): (فألرب موصوف بالعلو وفوقية الرتبة والعظمة منزه عن الكون في المكان وعن المحاذاة) اهـ.

* قول قاضي القضاة ابن المنير:

نقل الحافظ ابن حجر عن ابن المنير مؤيداً له في تنزيه الله تعالى عن المكان والجهة (فتح الباري 13 / 429):

(قال ابن المنير... قوله " رب العرش " ... نبّه [يعني البخاري] على بطلان قول من أثبت الجهة أخذاً من قوله " ذي المعارج " فَفَهَمَ - أي مثبت الجهة - أن العلوّ الفوقي مضاف إلى الله تعالى، فبين المصنف [يعني البخاري] أن الجهة التي يصدق عليها أنها سماء والجهة التي يصدق عليها أنها عرش كل منهما مخلوق مريب ومحدث، وقد كان الله قبل ذلك وغيره، فحدثت هذه الأمكنة، وقدمه - تعالى - يحيل وصفه بالتحيز فيها والله أعلم) اهـ.

وبهذا تنفق كلمة البخاري وابن المنير والحافظ ابن حجر رحمهم الله تعالى في هذا النص على تنزيه الله تعالى عن المكان والجهة، وهذا قول جميع المنزهين.

* قول الإمام البيضاوي:

وقال الإمام البيضاوي - رحمه الله تعالى - (فتح الباري 3 / 37):

(ولما ثبت بالقواطع أنه سبحانه منزّه عن الجسميّة والتّحيز امتنع عليه النزول على معنى الانتقال من موضع إلى موضع أخفض منه، فالمراد نور رحمته، أي ينتقل من مقتضى صفة الجلال التي تقتضي الغضب والانتقام إلى مقتضى صفة الإكرام التي تقتضي الرأفة والرحمة) اهـ.

* قول الإمام القرطبي:

وقال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده)

(6 / 399): (ومعنى فوق عباده، فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، أي أهم

تحت تسخيره لا فوقية مكان) اهـ.

نخلص من هذا إلى أن القول بأن الله تعالى ساكن في السماء، أو أنه على العرش بذاته أو ينزل بذاته أو استوى على العرش بذاته أو على الحقيقة، أو أنه تعالى بائن من خلقه بذاته، كل ذلك وصف لله بما يستحيل في حقه تعالى عقلاً ونقلاً، فهذه نصوص واضحة قاطعة بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة والحيز والاتصال والانفصال والدخول والخروج، وقاضية على من أثبت شيئاً من ذلك لله تعالى بالتشبيه.

ولا يفهم من قول أهل الحق: إن الله تعالى لا يوصف بأنه داخل العالم ولا بأنه خارج العالم. بأنهم يصفونه تعالى بالعدم، معاذ الله، كلا، وإنما مرادهم أن إطلاق هذا اللفظ على الله تعالى لا يجوز وهو منزه عنه، هذا مع إثباتهم أن الله تعالى ليس حالاً في العالم وليس شيء من العالم حالاً فيه تعالى، أما الدخول والخروج والاتصال والانفصال فلا يجوز أن يضاف شيء منها إلى الله تعالى لأنها من صفات الأجسام.

أما ما جاء في الكتاب والسنة من الألفاظ التي ظاهرها إثبات الجهة والمكان لله تعالى فهي . قطعاً وباتفاق علماء السلف والخلف . مصروفة عن ظاهرها وحقائقها كما مرّ من أقوال العلماء، ولا خلاف بين المسلمين في ذلك كما نقل الإمام النووي عن القاضي عياض قوله المار قريباً.

وهذا الذي ذكرناه في هذه القضية الهامة إنما كان موضعه - في الأصل - كتب أهل الاختصاص ومجالس العلم التي يفهم فيها مدلولات الألفاظ، ولكن ما الحيلة وقد أصبح مثل هذا الكلام الخطر والمسلك الوعر ندره المجالس وحديث العامة في كل مكان، فتجد من لا يعرف نواقض الوضوء وأركان الصلاة وأحكام العبادات يرفع عقيرته بالكلام عن أعظم قضية في الإسلام بلا خوف أو وجل نعني بذلك صفات الله تعالى، وما هذا إلا بسبب ترديد مثل هذه النصوص المتشابهة التي نهي العلماء عن

التحدث بها كما مرَّ من قول الإمام مالك وكما قال الإمام ابن رشد معقَّباً على قول مالك ومبيناً لسبب نهيه عن ذلك، قال: (وإنما نهى مالك... مخافة أن يُحدث بها، فيكثر التحدث بها، وتشيع في الناس فيسمعها الجهال الذين لا يعرفون تأويلها فيسبق إلى ظنوتهم التشبيه بها) اهـ.

فاضطررنا إلى ذكره هنا تبيناً للحق، وتنبهياً على ما وقع بين الناس من فهم غير صحيح لهذه القضية.

عود على بدء، قد بينا الخلاف في أصول الديانات وحكم المخالف في شيء منها، بقي أن نذكر الخلاف في أصول أهل السنة والجماعة، وهذه الأصول لا يحكم على المخالف فيها بالتكفير بيد أن الخلاف فيها غير يسير بل جد خطير.

ومثال هذه الأصول ثبوت عذاب القبر ونعيمه والصراط والميزان، والكف عن صحابة رسول الله ' والترضي عليهم، والقدر، وعدم تكفير أهل المعاصي من الموحدين، وغير ذلك من المسائل والقضايا التي اتفقت عليها كلمة أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين وتابعيهم. وحكم المخالف في شيء من ذلك الفسق والضلال والخروج عن دائرة أهل السنة والجماعة، وما كان عليه رسول الله ' وأصحابه. أعادنا الله من الفتن.

أما الفروع العقديّة وهي ما سوى هذين القسمين مثل جزئيات العقيدة ومثل لها هنا بما حدث بين الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من اختلاف في رؤية النبي ' ربه ليلة عرج به إلى السماء، فأثبتها بعضهم كابن عباس، ونفاها البعض كأهل المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنهم أجمعين، وكتعذيب الميت ببكاء أهله عليه، فأثبتته بعضهم ونفاها آخرون. وغير ذلك من المسائل الجزئية الغيبية، ويلحق بهذا النوع من الاختلاف المشروع الذي حدث بين سلف الأمة الطيب الاختلاف في تفويض

المتشابهات وتأويلها، فقد نقل العلماء عن السلف أن جمهورهم كان على مذهب التفويض وعن جماعات منهم أنهم أخذوا بالتأويل من هؤلاء . نعني الذين قالوا بالتأويل . سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من الصحابة وأكابر التابعين وتابعيهم .

وعلى الجملة فإن الخلاف في هذا النوع من القضايا لا يترتب عليه شيء قطعاً، إذ لم ينقل عن الصحابة أو السلف عموماً أنهم ضلّوا بعضهم بعضاً بسبب شيء من ذلك خصوصاً وأن اختلافهم في مثل هذه القضايا مستفيض مشهور .

وما حدث بين طوائف أهل السنة من اختلاف في بعض المسائل ملحق بهذا النوع من الاختلاف، نحو ما حدث بين الأشاعرة والماتريدية، فكله لا يستلزم تضليلاً ولا تبديعاً .

قال الحافظ بن عساكر - رحمه الله تعالى - (تبيين كذب المفتري ص / 409):

(الأصحاب مع اختلافهم في بعض المسائل كلهم أجمعون، على ترك تكفير بعضهم بعضاً بجمعون، بخلاف من عداهم من سائر الطوائف وجميع الفرق، فإنهم حين اختلفت بهم مستشنعات الأهواء والطرق كفر بعضهم بعضاً، ورأى تبرّيه ممن خالفه فرضاً) اهـ .

وقال الإمام تاج الدين السبكي - رحمه الله تعالى - (طبقات الشافعية 3 / 378):

(تفحصت كتب الحنفية فوجدت جميع المسائل التي بيننا وبين الحنفية خلاف فيها ثلاث عشر مسألة، منها معنوي ست مسائل، والباقي لفظي، وتلك الست المعنوية لا تقتضي مخالفتهم لنا ولا مخالفتنا لهم فيها تكفيراً ولا تبديعاً صرح بذلك

الأستاذ أبو منصور البغدادي وغيره من أئمتنا وأئمتهم وهو غني عن التصريح لظهوره) اهـ.

وقال العلامة ملا علي القاري - رحمه الله تعالى - (مرقاة المفاتيح 1/ 206):

(وما وقع من الخلاف بين الماتريديّة والأشعرية في مسائل فهي ترجع إلى الفروع في الحقيقة، فإنها ظنيات فلم تكن من الاعتقادات المبنية على اليقينيّات، بل قال بعض المحقّقين إن الخُلْفَ بينهما في الكل لفظي) اهـ.

بهذا يتبين خطأ الذين يسارعون في تضليل مخالفهم وتبديعهم معممين لأحكامهم وغير مراعين لنوع القضايا التي يقع فيها الخلاف، لا سيما المسائل التي نقل عن السلف الطيب خلاف فيها دون إنكار من بعضهم على بعض.

ويتبين أيضاً مجازفة أولئك الذين يضللون الأشاعرة والماتريديّة جهلاً ودون روية، متجاهلين كل النصوص المنقولة عن علماء الأمة بالتنويه بفضلهم، ومتجاهلين أيضاً كون قضية التفويض والتأويل التي يضللوهم بسببها منقولة عن الصحابة والسلف الطيب، وأنها من نوع المسائل التي لا يترتب عليها ضلال أو بدعة.

* * * * *

التفويض والتأويل

التفويض: مأخوذ من قولهم فوض إليه الأمر. أي رده إليه.

والمعنى الشرعي لا يخرج عن المعنى اللغوي، فهو شرعاً: ردُّ العلم بهذه المتشابهات إلى الله تعالى وعدم الخوض في معناها وذلك بعد تنزيه الله تعالى عن ظواهرها غير المرادة للشارع.

والتأويل: أصله من الأول وهو الرجوع.

وهو شرعاً: صرف اللفظ عن الظاهر بقرينة تقتضي ذلك.

وهذان المذهبان كما أسلفنا هما المذهبان المعتبران المأثوران عن أهل السنة والجماعة في أبواب المتشابه، ولا اعتبار لمن جنح إلى التعطيل أو التشبيه من المذاهب الأخرى التي رفضتها الأمة ولفظتها.

• انحصار الحق في التفويض والتأويل:

هذه النصوص المتشابهة في الصفات إما أن تُثبت أو تُنفي، ونفيها تعطيل ظاهر، لأنه نفي لما أثبت الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، والإثبات إما أن يكون معه حمل الكلام على ظاهره وحقيقته التي يعهد بها البشر، أو يصرف الكلام معه عن هذا الظاهر وهذه الحقيقة، والأول نعي حمل الكلام على الظاهر والحقيقة يفضي قطعاً إلى التشبيه، لأن حقائق وظواهر هذه الألفاظ أجسام وكيفيات مخلوقة، والله تعالى منزّه عنها.

ولا يقال: نحملها على الظاهر ونفوض العلم بالكيفية إلى الله تعالى.
لأن هذا القول تناقض صريح أوقعت فيه الغفلة، إذ ليس من ظاهر ولا حقيقة
هنا إلا الجسم، وهذا لا يصح قطعاً وصف الله تعالى به.

بقي القسم الأخير الذي هو صرف الكلام عن الحقيقة والظاهر، ثم بعد صرفه
عن الظاهر إما أن يُتوقفَ عن التماس معنى له ويوكَل العلمُ به إلى الله تعالى، وهذا هو
التفويض الذي عليه جماهير السلف الصالح، أو يلتمسَ له معنى لائقُ بالله تعالى
حسب مناحي الكلام عند العرب وما تسيغه لغتهم، وهذا هو التأويل الذي عليه
خلف الأمة وجماعات من سلفها الصالح.

بهذين المذهبين تنحصر القسمة الصحيحة في هذه القضية.

لهذا نرى العلماء ينصّون عندما يعرض لهم شيء من هذه المتشابهات على أنه
(إما تفويض وإما تأويل) إذ ليس بعدهما إلا التشبيه أو التعطيل.

قال الإمام الأبي رحمه الله تعالى (شرح صحيح مسلم للأبي 7 / 190) أثناء شرحه
لحديث " إن الله يمسك السموات على أصبع ":

(والحديث من أحاديث الصفات فيصرف الكلام عن ظاهره المحال الموهوم
للجراحة، ويكون فيه المذهبان المتقدمان، إما الإمساك عن التأويل والإيمان به على ما
يليق، ويصرف علمه إلى الله تعالى، أو يتأول) اهـ.

وقال الإمام العلامة بدر الدين بن جماعة (إيضاح الدليل ص/103):

(واتفق السلف وأهل التأويل على أن ما لا يليق من ذلك بجلال الرب تعالى غير
مراد... واختلفوا في تعيين ما يليق بجلاله من المعاني المحتملة... فسكت السلف عنه،
وأوله المتأولون) اهـ.

وقال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - في حديث النزول (دفع شبه التشبيه
:194):

(روى حديث النزول عشرون صحابياً، وقد تقدم أنه يستحيل على الله عز وجل
الحركة والنقلة والتغير، فيبقى الناس رجلين: أحدهما، المتأول بمعنى أنه يقرب برحمته...
والثاني، الساكت عن الكلام في ذلك مع اعتقاد التنزيه) اهـ.

وقال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في شرحه على صحيح مسلم (5 / 24)
أثناء الكلام على حديث الجارية، ما نصه:

(هذا الحديث من أحاديث الصفات، وفيها مذهبان، أحدهما، الإيمان به من
غير خوض في معناه مع اعتقاد أن الله تعالى ليس كمثلته شيء، وتنزيهه عن سمات
المخلوقات، والثاني، تأويله بما يليق) اهـ.

وقال أيضاً أثناء الكلام على حديث إمساك السماوات على أصبع والأرضين
على أصبع (17 / 129) ما نصه: (هذا من أحاديث الصفات، وقد سبق فيها
المذهبان، التأويل والإمساك عنه مع الإيمان بها ومع اعتقاد أن الظاهر منها غير مراد)
اهـ.

ونقل الحافظ ابن حجر قول ابن دقيق العيد مؤيداً له وموافقاً عليه في حديث "
لا شخص أغير من الله " (الفتح 13 / 411): (قال ابن دقيق العيد: المنزهون لله إما
ساكت عن التأويل، وإما مؤول) اهـ.

وعلى الجملة فإن أقوال العلماء في حصر الحق في هذين المذهبين لا تخصي كثرة،
وبما نقلناه من نصوصهم مقنع.



* * * * *

مذهب جمهور السلف التفويض

قال الإمام الترمذي - رحمه الله - (سنن الترمذي 4 / 492) مثبتاً للسلف الصالح مذهب التفويض:

(والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس وابن المبارك وابن عيينة ووكيع وغيرهم أنهم رَوَوْا هذه الأشياء ثم قالوا تروى هذه الأحاديث ونؤمن بها ولا يقال كيف، وهذا الذي اختاره أهل الحديث أن تروى هذه الأشياء كما جاءت ويؤمن بها ولا تفسر ولا تتوهم ولا يقال كيف، وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه) اهـ.

وقوله (يؤمن بها) إثبات لها، وبه يفارقون أصحاب التعطيل، وقوله (ولا تفسر ولا تتوهم ولا يقال كيف) تفويض لله تعالى في معانيها، وقوله (ولا يقال كيف) أي بلا استفسار عن معانيها، أو تعيين المراد بها، وبه يفارقون أصحاب التشبيه.

وروى الخلال بسند صحيح عن الإمام أحمد رضي الله عنه أنه قال في مثل هذه النصوص: (نؤمن بها ونصدق ولا كيف ولا معنى) اهـ.

وروى الإمام الحافظ البيهقي رحمه الله تعالى بسنده عن الإمام والأوزاعي . رحمه الله (الاعتقاد ص / 93) قال:

(كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه) اهـ.
والنصوص في هذا المعنى عن السلف كثيرة جداً كلها يفيد إيمانهم بها وإمرارها وعدم الخوض في تفسير معناها.

ولقد نقل الحافظ ابن حجر (الفتح 6 / 48) عن الحافظ ابن الجوزي معنى قولهم:
أمروها كما جاءت. قال:

(قال ابن الجوزي: أكثر السلف يمتنعون من تأويل مثل هذا . يشير إلى حديث
يضحك الله إلى رجلين . ويمرونه كما جاء، وينبغي أن يراعى في مثل هذا الإمرار
اعتقاد أنه لا تشبه صفات الله صفات الخلق، ومعنى الإمرار عدم العلم بالمراد⁽¹⁾ منه
مع اعتقاد التنزيه) اهـ.

قال الإمام عدي بن مسافر⁽²⁾ رحمه الله تعالى (اعتقاد أهل السنة والجماعة ص / 26):
(وتقرير مذهب السلف كما جاء من غير تمثيل ولا تكيف ولا تشبيه ولا حمل
على الظاهر) اهـ.

ونقل الحافظ ابن حجر عن الإمام ابن المنير (الفتح 13 / 190) قوله:
(لأهل الكلام في هذه الصفات كالعين والوجه واليد ثلاثة أقوال... والثالث
إمرارها على ما جاءت مفوضاً معناها إلى الله تعالى، وقال الشيخ السهروردي في
كتاب العقيدة له: أخبر الله في كتابه وثبت عن رسوله الاستواء والنزول والنفس واليد
والعين فلا يتصرف فيها بتشبيهه ولا تعطيل، إذ لولا إخبار الله ورسوله ما تجاسر عقل

(1) سنين بعد قليل معنى عدم العلم بالمراد، إذ ليس المقصود أنهم لا يفهمون للكلام أي معنى،
كلا، وإلا لأصبح الكلام مثل الحروف المقطعة في أوائل السور، وهذا يجعل كلامه تعالى وكلام رسوله عليه
الصلاة والسلام بلا فائدة، وهو محال من الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

(2) هو أبو محمد عدي بن مسافر الشامي الهكاري الشيخ الإمام الصالح القدوة زاهد وقته، ساح
سنين كثيرة، وصحب المشايخ وجاهد أنواعاً من المجاهدات، ثم سكن بعض جبال الموصل في موضع ليس
فيه أنيس، ثم أنس الله تلك المواضع به، وعمرها ببركاته. توفي رحمه الله تعالى سنة سبع وخمسين
وخمسائة. (السير 342/20، وفيات الأعيان 254/3).

أن يحوم حول ذلك الحمى. قال الطيبي: هذا هو المذهب المعتمد وبه يقول السلف الصالح اهـ.

وقال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - (المجموع 1 / 25):

(اختلفوا في آيات الصفات وأخبارها هل يخاض فيها بالتأويل أم لا؟ فقال قائلون تتأول على ما يليق بها، وهذا أشهر المذهبين للمتكلمين، وقال آخرون: لا تتأول بل يمسك عن الكلام في معناها ويوكل علمها إلى الله تعالى ويعتقد مع ذلك تنزيه الله تعالى وانتفاء صفات الحوادث عنه، فيقال مثلاً: نؤمن بأن الرحمن على العرش استوى، ولا نعلم حقيقة معنى ذلك والمراد به، مع أننا نعتقد أن الله تعالى ليس كمثل شيء، وأنه منزّه عن الحلول وسمات الحدوث، وهذه طريقة السلف أو جماهيرهم وهي أسلم) اهـ.

قال الإمام الجلال السيوطي - رحمه الله تعالى - (الإتقان في علوم القرآن 2 / 10):

(من المتشابه آيات الصفات... وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى، ولا نفسرها مع تنزيهنا له - تعالى - عن حقيقتها) اهـ.

هذه نصوص صريحة في إثبات التفويض للسلف الصالح لا سبيل إلى إنكارها أو حملها على معاني أخرى لا تتفق وجلالة أقدارهم وتنزيههم للباري سبحانه، كمن ينسب لهم إثبات الحقائق الظاهرة المتعارف عليها بين البشر وتفويض كفياتها لله تعالى، فيقول إنهم يثبتون المعنى الحقيقي ويفوضون الكيف، وقائل هذا لا يدري ما يقول، وقد جره إلى هذا الفهم عبارة (بلا كيف) التي كثيراً ما ترد على ألسنة السلف عند الكلام على النصوص المتشابهة، ففهم منها أنهم يثبتون المعنى الحقيقي ويفوضون الكيف، وهذا فهم باطل، بل هي عبارة المقصود منها زجر السائل عن البحث

والتقصي، لا إثبات المعنى الحقيقي وتفويض الكيف!!

فإن أي لفظ يدلُّ في حقيقته على شيء من الجسمانيات والكيفيات متى ما
جُهل معناه كان السؤال عن المراد منه بكلمة (كيف)، وفي حديث فضل عيادة
المريض الذي أخرجه مسلم ما يدل على هذا، وذلك حين يقول الله تعالى لعبده
(مرضت فلم تعدني.. استطعمتك فلم تطعمني.. استسقيتك فلم تسقني..). كل ذلك
والعبد يقول: (رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟!.. رب كيف أطعمك وأنت رب
العالمين؟!.. رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟!..). فهو لم يفهم المعنى المراد من
اللفظ بعد أن استحالت حقيقته في عقله، فسأل ب (كيف؟) عن المعنى المراد، لا أنه
أثبت حقيقة المرض والاستطعام والاستسقاء لله تعالى لكنه لم يعلم كيفياتها!!

فعندما يقال في جواب السائل (بلا كيف) يفهم منه أنه (بلا معنى) لأن لفظ ال
(كيف) هنا مستفهم به عن المعنى، وبنفيه ينتفي المعنى المستفهم عنه به، فهو من
قبيل نفي الملزوم عن طريق نفي اللازم، فالكيف لازم للمعنى الظاهر، وبنفيه نفي
للمعنى الظاهر، وذلك كمن يقول لك: إن هذا العدد ليس بزواج. فتفهم منه أنه ليس
اثنين ولا أربعة ولا ستة... الخ لأن الزوجية لازم غير قابل للانفكاك عن الاثنين
والأربعة والستة.. الخ.

من هنا يتبين مراد السلف بقولهم (بلا كيف)، ومنه تعلم أن من ينسب للسلف
إثبات المعاني الحقيقية لهذه الألفاظ والتفويض في كيفياتها ينسب لهم التشبيه من
حيث لا يدري.

تنبيه

هل كان السلف يدركون أي معنى لهذه النصوص المتشابهة؟ أم أنها بالنسبة لهم
كالحروف التي في أوائل السور؟

وإذا كانوا يدركون لها معنى، كيف يُوفَّق بين إدراكهم هذا وبين ما مرَّ من تفسير
الإمرار بأنه عدم العلم بالمراد؟

يبدو للوهلة الأولى أن ثمة تعارض بين إدراك معاني هذا النصوص وبين إمرارها
الذي هو عدم العلم بالمراد منها، وفي الحقيقة ليس ثمة أي تعارض بين الأمرين،
فالمقصود بعدم العلم بالمراد الذي فُسِّر به الإمرار هو عدم العلم بالمراد تفصيلاً وعلى
سبيل القطع والتحديد، وهذا لا يقتضي عدم علمهم بالمراد إجمالاً.

مثال على هذا قوله تعالى (بل يدهاه مبسوطتان) يفهم منه على سبيل الإجمال
معنى الكرم والجود المطلق والعطاء الذي لا ينقطع اللائق بصفة الرب تعالى، أما لفظ
اليدين المضاف لله تعالى في الآية فبعد استبعاد المعنى الظاهر المتبادر من إطلاقه وهو
الحقيقة اللغوية التي وضع اللفظ ليدلَّ عليها بين المخلوقين وهي الجارحة، نقول بعد
استبعاد هذه الحقيقة احتمال اللفظ عدة معانٍ مجازية، ولهذا الاحتمال توقف جمهور
السلف عن التعيين والقطع بأحدها، وهذا هو معنى عدم علمهم بالمراد لا أنهم لا
يفهمون لهذه النصوص أي معنى، تعالى الله أن يخاطب الناس بما لا يفهم.

هذا هو اللائق بمقامات السلف في العلم، إذ لا يعقل أنهم كانوا يسمعون مثلاً
قول الله تعالى (يد الله فوق أيديهم) أو (بل يدهاه مبسوطتان ينفق كيف يشاء
(أو (الرحمن على العرش استوى) أو (ثم استوى إلى السماء) أو (يوم
يكشف عن ساق)، أو قول رسول الله ' (يضحك ربنا) أو (ينزل ربنا) أو (يعجب
ربنا) الخ، ثم لا يفهمون من كل ذلك أي معنى، كما هو الحال مع الحروف التي في
فواتح السور، كلا، فإن هذه الألفاظ لها في لغة العرب معانٍ مجازيةً معروفةً ومشهورةً

لا شك أن السلف فهموها إجمالاً، ولكنهم لفرط تقواهم وخشيتهم لله تعالى وتحيبهم لذلك المقام الأقدس ثم لعدم الاضطرار إلى التعيين لأحد المعاني لخلو عصرهم من المبطلين الذين يحملون كلام الله تعالى وكلام رسوله ' على وجوه فاسدة لا تحملها لغة العرب وتتنافى مع التقديس والتنزيه، لهذا ولذاك أحجموا عن التعيين والتصريح، واكتفوا بهذا الفهم الإجمالي لها، وصرح بها الخلف بعدهم لطرؤ ما اقتضى ذلك وحثمه عليهم.

قال الشيخ العلامة العزامي القضاعي (فرقان القرآن مطبوع في ذيل الأسماء والصفات للبيهقي ص / 104):

(وقال تعالى: (الله نور السموات والأرض) هل فهم أحد من السلف أنه هو ذلك النور الفائض على الحيطان والجدران المنتشر في الجو؟ جل مقام العلماء بالله وكتابه أن يفهموا هذا المعنى الظاهر العامي. قال حبر الأمة ابن عباس فيما رواه عنه الطبري بالسند الصحيح: الله سبحانه هادي أهل السموات والأرض. وروى نحوه عن أنس بن مالك. وروى عن مجاهد أن معناه المدبر. ورجح الإمام الأوّل وزيف ما عدها ... تعالى الله عن صفات الأجسام وسمات الحدوث. وهكذا لو استقرت أقوال السلف من مظانها لرأيت الكثير الطيب من بيان المعاني اللائقة بالله تعالى على سبيل التعيين، فمن نقل عدم التعيين مطلقاً عن السلف فما دقق البحث ولا اتسع اطلاعه) اهـ.

وقال أيضاً مُوضِحاً هذا المعنى:

(تنبيه مهم: إذا سمعت في عبارات بعض السلف "إننا نؤمن بأن له - تعالى -

وجها لا كالوجه ويداً لا كالأيدي " فلا تظن أنهم أرادوا أن ذاته العلية منقسمة إلى أجزاء وأبعاض، فجزءٌ منها يدٌ وجزءٌ منها وجهٌ غير أنه لا يشابه الأيدي والوجه التي للخلق!! حاشاهم من ذلك، وما هذا إلا التشبيه بعينه، وإنما أرادوا بذلك أن لفظ الوجه واليد قد استعمل في معنى من المعاني، وصفة من الصفات التي تليق بالذات العلية كالعظمة والقدرة، غير أنهم يتورعون عن تعيين تلك الصفة تخبياً من التهجم على ذلك المقام الأقدس) اهـ.

وجاء في كتاب تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله -
(1 / 237) ما نصه:

(فهل يتصور أن الذين يبايعون النبي ' تحت الشجرة عندما يتلون قوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) يفهمون أن اليد هنا يد ليست كيد المخلوقات - يعني يدا حقيقية كما يقول أصحاب الظاهر ولكنها ليست كيد المخلوقات - ولا يفهمون أن المراد سلطان الله تعالى وقدرته، بدليل ما فيها من تهديد لمن ينكث بأن مغبة النكث تعود عليه. ولذلك نحن نرجح منهاج الماتريدي ومنهاج ابن الجوزي ومنهاج الغزالي، ونرى أن الصحابة كانوا يفسرون بالمجاز إن تعذر إطلاق الحقيقة، كما يفسرون بالحقيقة في ذاتها) اهـ.

يؤيد هذا ما نقل عن جماعات منهم من التصريح بذكر هذه المعاني المجازية مثل سيدنا ابن عباس وابن مسعود وعلي رضي الله عنهم والحسن البصري ومالك والأوزاعي وقتادة والثوري ومجاهد وعكرمة رحمهم الله وغيرهم ممن تنخر بنصوصهم كتب التفسير والحديث وغيرها.

وسياتي معنا باب خاص في تأويلات السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم.



* * * * *

التأويل مذهب سلفى وعربى أصيل

قد يظن البعض وذلك بسبب الرهج الذي يثار أمام البصائر والعقول في هذه القضية أن التأويل مذهب مبتدع ومنهج ضلال، لا سيما إذا مثل له بتأويلات المبتدعة من الفرق الباطنية وتعطيلات الجهمية وغيرها من الفرق التي اتخذت التأويل المتكلف مركباً وجسراً تعبر منه لهدم الدين ونقض الشريعة، والحق الذي لا يماري فيه منصف عاقل أن التأويل منهج سديد لا بد منه لفهم الكتاب والسنة، ومذهب ثابت عن جماعات من السلف كما نقل ذلك علماء الأمة وأئمتها.

قال الإمام الزركشي - رحمه الله تعالى - (البرهان في علوم القرآن 2 / 207):

(وقد اختلف الناس في الوارد منها - يعني المتشابهات - في الآيات والأحاديث

على ثلاث فرق:

أحدها: أنه لا مدخل للتأويل فيها، بل تجرى على ظاهرها، ولا نؤول شيئاً منها، وهم المشبهة.

الثانية: أن لها تأويلاً ولكننا نمسك عنه مع تنزيه اعتقادنا عن الشبه، والتعطيل، ونقول لا يعلمه إلا الله وهو قول السلف.

والثالثة: أنها مؤولة وألوهها على ما يليق به.

والأول باطل - يعني مذهب المشبهة - والأخيران منقولان عن الصحابة

اهـ.

فأثبت رحمه الله تعالى مذهب التأويل للصحابة.

وقال الإمام النووي - رحمه الله - في سياق شرحه لحديث من أحاديث الصفات (شرح مسلم 6 / 36):

(هذا حديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان مشهوران للعلماء... أحدهما وهو مذهب السلف... والثاني مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف وهو محكي عن مالك والأوزاعي أنها تتأول على ما يليق بها بحسب مواطنها) اهـ.

ومالك والأوزاعي من كبار علماء السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم. وقد مر معنا تأويل مالك لنزول الرب وتعليق ابن عبد البر على ذلك.

وقال الإمام أبو محمد الجويني⁽¹⁾ والد إمام الحرمين رحمهما الله تعالى (إتحاف السادة

(1) هو عبدالله بن يوسف والد إمام الحرمين، أوجد زمانه علماً وديناً وزهداً قال فيه شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني رحمه الله تعالى: لو كان الشيخ أبو محمد في بني إسرائيل لُنقل إلينا شمائله ولافتخروا به. اهـ توفي رحمه الله تعالى سنة 438هـ. له من المصنفات " الفروق " و" السلسلة " و" التذكرة " و" التبصرة" وغيرها، أما رسالة الاستواء التي يحاول البعض ترويجها وإصاقها به فمنسوبة له زوراً، إذ إن آخر كتاب صنّفه هو الرسالة التي سماها " عقيدة أصحاب الإمام المطلي الشافعي رحمه الله وكافة أهل السنة والجماعة " وأثنى فيها على الإمام أبي الحسن الأشعري ثناء طيباً، كما في تبين كذب المفتري ص/115، وقبله ص/ 113 إعطاؤه خطّه راضياً مؤيداً ضمن خطوط جمع من أكابر الأئمة مثل الإمام شيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني وابنه أبي نصر وغيرهم على مكتوب بخط الإمام أبي القاسم القشيري وفيه (اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة... ومن طعن فيه أو قدح أو لعنه أو سبّه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة) وذلك سنة 436هـ، وتعرّف على الخط المذكور الحافظ ابن عساكر. وانظره أيضاً في الطبقات الكبرى للتاج السبكي 374/3.

وعده الحافظ ابن عساكر ضمن الطبقة الثالثة من أتباع الإمام الأشعري (انظر التبين ص/257)

المتقين 2 / 110):

(أما ما ورد من ظاهر الكتاب والسنة مما يوهم بظاهره تشبيهاً فللسلف فيه طريقان، الإعراض عن الخوض فيها وتفويض علمها إلى الله تعالى... وإليها ذهب كثير من السلف... والطريقة الثانية: الكلام فيها وفي تفسيرها بأن يردها عن صفات الذات إلى صفات الفعل، فيحمل النزول على قرب الرحمة واليد على النعمة والاستواء على القهر والقدرة، وقد قال " كلتا يديه يمين " ومن تأمل هذا اللفظ انتفى عن قلبه ريبة التشبيه، وقد قال تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقال (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم) فكيف يكون على العرش ساعة كونه سادسهم إلا أن يُردَّ ذلك إلى معنى الإدراك والإحاطة لا إلى معنى المكان والاستقرار والجهة والتحديد) اهـ.

وقال العلامة الشوكاني - رحمه الله تعالى - (إرشاد الفحول 176):

(الفصل الثاني: فيما يدخله التأويل، وهو قسمان، أحدهما، أغلب الفروع، ولا خلاف في ذلك. والثاني، الأصول كالعقائد وأصول الديانات وصفات البارئ عز وجل، وقد اختلفوا في هذا القسم على ثلاثة مذاهب:

الأول: أنه لا مدخل للتأويل فيها، بل تجرى على ظاهرها ولا يؤوَّل شيء منها، وهذا قول المشبهة.

وكذلك فعل التاج السبكي في الطبقات الكبرى 370/3، كما أن هذه الرسالة المزعومة لم يذكرها أحد ممن ترجم له على كثرتهم. ولو افترضنا ثبوت نسبتها له رحمه الله لردّ عليه العلماء من معاصريه ومن بعدهم، فقد ردّوا عليه بأقلّ من ذلك، كما فعل الحافظ البيهقي في الرسالة التي أرسلها إليه إثر شروعه في الكتاب الذي سماه المحيط، ونصّ الرسالة موجود في طبقات التاج السبكي 77/5.

وهذا النص الذي نقله عنه الزبيدي هو من رسالة (كفاية المعتقد) لأبي محمد رحمه الله تعالى.

والثاني: أن لها تأويلاً ولكننا نمسك عنه، مع تنزيه اعتقادنا عن التشبيه والتعطيل لقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله)، قال ابن برهان وهذا قول السلف...
والمذهب الثالث: أنها مؤولة. قال ابن برهان، والأول من هذه المذاهب باطل، والآخرون منقولان عن الصحابة، ونقل هذا المذهب الثالث عن علي وابن مسعود وابن عباس وأم سلمة) اهـ.

وهذه أقوال صريحة للعلماء. بإثبات مذهب التأويل للسلف الصالح.
ونحن نقول: لنفترض أنه لم ينقل عن أحد من السلف الصالح التصريح بتأويل شيء من ذلك، أي حرج على من سلك سنن العرب في فهم الكلام العربي، وحمل هذه النصوص على ما تجيزه لغتهم، والعرب شائع في لسانهم تسمية الشيء باسم غيره إذا كان مجاوراً له أو كان منه بسبب، كتسمية المطر بالنوء، والقوة باليد، وشائع أيضاً عندهم نسبة الفعل إلى غير فاعله، إذا كان برضاه أو بأمره ونحو ذلك، كأن يقال: فعل الأمير كذا، وضرب الأمير فلاناً، والفاعل والضارب حقيقة عامله، وإنما نسب الفعل إليه لأنه أمر به أو رضي به، وعلى الجملة فإن هذا ونظائره كثير دارج على ألسنتهم، ولا سبيل إلى إنكاره وجحدته، والقرآن وأحاديث الرسول ' جاء بلسان العرب ولغتهم.

على أن الكلام إذا خلا من المجازات والاستعارات سمح وأصبح فجاً ثقیلاً لا تقبله الأسماع ولا تهضمه.

ونقل الحافظ بن حجر عن الإمام المازري (الفتح 13 / 144) أثناء شرحه لحديث " إنكم سترون ربكم " وفيه قوله " وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه " .

قال الحافظ: (قال المازري كان النبي ' يخاطب العرب بما تفهم، ويخرج لهم الأشياء المعنوية إلى الحس ليقرب تناولهم لها، فعبر عن زوال المانع ورفعها عن الأبصار بذلك) اهـ.

ثم قال الحافظ ابن حجر (المصدر السابق):

(قال عياض: كانت العرب تستعمل الاستعارة كثيراً، وهو أرفع أدوات بديع فصاحتها وإيجازها، ومنه قوله تعالى: (جناح الذل) فمخاطبة النبي ' لهم بـ " رداء الكبرياء على وجهه " ونحو ذلك من هذا المعنى، ومن لم يتضح له، وعلم أن الله منزّه عن الذي يقتضيه ظاهرها إما أن يكذب نقلتها، وإما أن يؤولها، كأن يقول: استعار لعظيم سلطان الله وكبريائه وعظمته وهيبته وجلاله المانع إدراك أبصار البشر مع ضعفها لذلك رداء الكبرياء، فإذا شاء تقوية أبصارهم وقلوبهم كشف عنهم حجاب هيبته وموانع عظمتهم) اهـ.

ورجح الإمام العزبن عبد السلام - رحمه الله - طريقة التأويل فقال (إتحاف السادة المتقين 2 / 109):

(طريقة التأويل بشرطها أقربها إلى الحق) وعلق الإمام الزبيدي رحمه الله تعالى على قول العز بنقوله (ويعني بشرطها أن يكون على مقتضى لسان العرب) اهـ.

وقال الإمام العلامة الألوسي رحمه الله تعالى (روح المعاني 3 / 89) حاثاً على حمل المتشابه على المجاز: (الحمل على المجاز الشائع في كلام العرب والكناية البالغة في الشهرة مبلغ الحقيقة أظهر من الحمل على معنى مجهول) اهـ.

وقال أيضاً (3 / 116): (والتأويل القريب إلى الذهن الشائع نظيره في كلام العرب مما لا بأس به عندي، على أن بعض الآيات مما أجمع على تأويلها السلف والخلف) اهـ.

فأثبت رحمه الله للسلف تأويل بعض الآيات وأنها مما أُجمع على تأويلها.
وقال الدكتور الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى (كبرى اليقينيّات
ص/ 138 وما بعدها):

(مذهب السلف هو عدم الخوض في أي تأويل أو تفسير تفصيلي لهذه
النصوص، والاكتفاء بإثبات ما أثبتته الله تعالى لذاته، مع تنزيهه عزّ وجلّ عن كل
نقص ومشاهدة للحوادث، وسبيل ذلك التأويل الإجمالي لهذه النصوص وتحويل العلم
التفصيلي بالمقصود منها إلى علم الله عزّ وجلّ، أما ترك هذه النصوص على ظاهرها
دون أي تأويل لها سواء كان إجمالياً أم تفصيلياً فهو غير جائز، وهو شيء لم يجح
إليه سلف ولا خلف... ولكنك عندما تنزه الله حيال جميع هذه الآيات عن مشاهدة
مخلوقه في أن يتحيز في مكان وتكون له أبعاد وأعضاء وصورة وشكل، ثم أثبتّ الله ما
أثبتته هو لذاته على نحوٍ يليق بكماله وذلك بأن تكيل تفصيل المقصود بكلّ من هذه
النصوص إلى الله جلّ جلاله سلّمّت بذلك من التناقض في الفهم وسلّمّت القرآن من
توهم أي تناقض فيه، وهذه هي طريقة السلف رحمهم الله ألا تراهم يقولون عنها "
أمرها بلا كيف " إذ لولا أنهم يؤولونها تأويلاً إجمالياً بالمعنى الذي أوضحنا لما صحّ
منهم أن يقولوا ذلك...)

ومذهب الخلف الذين جاءوا من بعدهم هو تأويل هذه النصوص بما يضعها
على صراط واحد من الوفاق مع النصوص المحكمة الأخرى التي تقطع بتنزّه الله عن
الجهة والمكان والجارحة...

واعلم أن مذهب السلف في عصرهم كان هو الأفضل والأسلم والأوفق مع
الإيمان الفطري المرتكز في كلّ من العقل والقلب.

ومذهب الخلف في عصرهم أصبح هو المصير الذي لا يمكن التحول عنه،

بسبب ما قامت فيه من المذاهب الفكرية والمناقشات العلمية... والمهم أن تعلم بأن كلاً من المذهبيين منهجان إلى غاية واحدة، لأن المآل فيهما إلى أن الله عزوجل لا يشبهه شيء من مخلوقاته، وأنه منزّه عن جميع صفات النقص، فالخلاف الذي تراه بينهما خلاف لفظي وشكلي فقط) اهـ.

وقال الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى (تعريف عام بدين الإسلام ص/81):

(القرآن أنزل بلسان العرب، وخطب به العرب، وكل ما يفهمه منه العربي الصميم وفق قواعد العربية ومصطلح أهلها - حقيقة حيث ينصرف إلى الحقيقة أو مجازاً حيث يفهم منه المجاز - يكون فهماً صحيحاً، ولكن اللغات كلها إنما وضعت للتعبير عن المعاني الأرضية المادية، فلا تستطيع أن تحيط بالمشاعر الإنسانية فضلاً عن الصفات الإلهية) اهـ.

وهذه حقيقة لا ريب فيها بين العقلاء، إذ الكلام يتعين في الحقيقة والظاهر متى أمكن ذلك، وإلا فبالمجاز مندوحة وسعة، وبما أن هذه الألفاظ حقائقها مادية حسية إذن من الخطأ بمكان حمل اللفظ عليها، بل يتعين الانصراف إلى المجاز.

فإذا كان الأمر كذلك، فلا ملامة ولا حرج حينئذ على علماء الأمة إذا فسروا كلام الله تعالى وكلام رسوله ' العربيين على طريقة العرب وحسب أسلوب مخاطبتهم وتحاورهم وبما يليق بجلال الله تعالى، وبما يدفع شبه المشبهين، وهل هم في هذا إلا مهتدون بهدي جمهور السلف الذين فهموا عن الله تعالى وعن رسوله '، لكنهم - كما ذكرنا - لم يتطرقوا - في الغالب - لإعلانه والتصريح به لعدم الحاجة إلى ذلك في عصورهم، ومضى قرّهم على هذا.

وهكذا كان الحال مع الذين جاءوا من بعدهم، إلى أن جاء زمن نبتت فيه رؤوس البدعة، ورفع فيه أهل الزيغ عقيرتهم، وجابحوا الناس بما لم يكن لهم به عهد،

واستولوا بمقالاتهم الفاسدة على عقول العامة، وحملوا كلام الله تعالى وكلام رسوله ' على ما لا يجوز حملهما عليه من المعاني، حينها تعين على علماء أهل السنة الذود عن عقائد المسلمين، وغاية ما فعلوه . رضي الله تعالى عنهم . هو أنهم جهروا بما كان يجنب جمهور السلف الصالح من الصحابة والتابعين الجهر به، لعدم الحاجة إليه في أزمنتهم.

قال الإمام العز بن عبد السلام (فتاوى العز بن عبد السلام ص / 22) رحمه الله تعالى:
(وليس الكلام في هذا - يعني التأويل - بدعة قبيحة، وإنما الكلام فيه بدعة حسنة واجبة لَمَّا ظهرت الشبهة، وإنما سكت السلف عن الكلام فيه إذ لم يكن في عصرهم من يحمل كلام الله وكلام رسوله على ما لا يجوز حمله عليه، ولو ظهرت في عصرهم شبهة لكذبهم وأنكروا عليهم غاية الإنكار، فقد رد الصحابة والسلف على القدرية لما أظهروا بدعتهم، ولم يكونوا قبل ظهورهم يتكلمون في ذلك) اهـ.

وقال الشيخ الإمام القدوة الرباني عدي بن مسافر الشامي - رحمه الله تعالى -
(اعتقاد أهل السنة والجماعة ص / 26):

(ونؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء منها، فإن كل ما تمثل في الوهم فهو مُقَدَّرٌ قطعاً وخالفه، وهذا الذي درج عليه السلف قبل ظهور الأهواء وتشعب الآراء، فلما ظهرت البدع وانتشر في الناس التشبيه والتعطيل فزع أهل الحق إلى التأويل) اهـ.

وهذا الذي قاله رضي الله عنه هو عين ما يراه الأشاعرة ويعتقدونه، إذ لولا ظهور الفتن ومقالات أهل الزيغ وتشويشهم على عقائد العامة ما صرحوا وبينوا ما كان السلف يعتقدونه إجمالاً ويمرون عليه مروراً.

وقال العلامة ملا علي القاري - رحمه الله تعالى - معتذراً عن علماء الأمة لأخذهم بالتأويل (مرقاة المفاتيح 2 / 136): (ولم يريدوا بذلك مخالفة السلف الصالح - معاذ الله أن يظن بهم ذلك - وإنما دعت الضرورة في أزمنتهم لذلك، لكثرة المجسمة والجهمية وغيرها من فرق الضلال، واستيلائهم على عقول العامة، فقصدوا بذلك ردعهم وبطلان قولهم، ومن ثم اعتذر كثير منهم وقالوا: لو كنا على ما كان عليه السلف الصالح من صفاء العقائد وعدم المبطلين في زمنهم لم نخض في تأويل شيء من ذلك) اهـ.

وقال الإمام الزركشي - رحمه الله تعالى - (البرهان في علوم القرآن 2 / 209):
(قلت وإنما حملهم على التأويل وجوب حمل الكلام على خلاف المفهوم من حقيقته، لقيام الأدلة على استحالة المشابهة والجسمية في حق البارئ تعالى) اهـ.

وقال الحافظ بن حجر - رحمه الله تعالى - (مرقاة المفاتيح 1/134):
(أكثر السلف لعدم ظهور أهل البدع في أزمنتهم يفوضون علمها - آيات الصفات - إلى الله تعالى مع تنزيهه سبحانه عن ظاهرها الذي لا يليق بجلال ذاته، وأكثر الخلف يؤولونها بحملها على محامل تليق بذلك الجلال الأقدس والكمال الأنفس، لاضطرارهم إلى ذلك لكثرة أهل الزيغ والبدع في أزمنتهم) اهـ.

وقال إمام الحرمين الجويني رحمه الله تعالى (المصدر السابق):
(لو بقي الناس على ما كانوا عليه لم نؤمر بالاشتغال بعلم الكلام، أما الآن فقد كثرت البدع فلا سبيل إلى ترك أمواج الفتن تلتطم) اهـ.

وقال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - (المجموع 1 / 25):
(فإن دعت الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا حينئذ، وعلى هذا يحمل

ما جاء عن العلماء في هذا) اهـ.

وقال العلامة ملا علي القاري - رحمه الله تعالى - (مرقاة المفاتيح 1/ 189):

(اتفق السلف والخلف على تنزيه الله تعالى عن ظواهر المتشابهات المستحيلة على الله تعالى... وخاض أكثر الخلف في التأويل لكن غير جازمين بأن هذا هو مراد الله تعالى من تلك النصوص، وإنما قصدوا بذلك صرف العامة عن اعتقاد ظواهر المتشابهة، والرد على المبتدعة المتمسكين بأكثر تلك الظواهر) اهـ.

وقال العلامة محمود بن خطاب السبكي - رحمه الله تعالى - في كتاب (الدين

الخالص 1 / 27) ما نصه:

(أما ما ورد من الآيات والأحاديث المتشابهة فقد أجمع السلف والخلف رضي الله عنهم على أنها مصروفة عن ظاهرها لقوله تعالى (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) وقوله سبحانه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ثم اختلفوا في بيان معاني تلك الآيات والأحاديث، فالسلف يفوضون علم معانيها إليه تعالى، فيقولون إن الاستواء في آية (الرحمن على العرش استوى) لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، مع جزمهم بأنه جل جلاله يستحيل عليه الاستقرار على العرش أو اتصاله به أو جلوسه عليه، لأنه تعالى إله قديم موصوف باستوائه على العرش قبل خلق العرش، لأن القرآن الذي منه هذه الآية موجود قبل إيجاد العرش، فكيف يعقل أنه تعالى استقر على عرش غير موجود؟

ولما خلق الخلق لم يحتج إلى مكان يحل فيه، بل هو غني عنه. فهو تعالى لم يزل بالصفة التي كان عليها.

والخلف يقولون فيها: الاستواء معناه الاقتدار والتصرف أو نحو ذلك. ومذهب

السلف أسلم...

ووجه صحة مذهب الخلف أنهم فسروا الآية بما يدل عليه اللفظ العربي، والقرآن عربي، وحملهم على التفسير المذكور ولم يفوضوا كما فوض السلف وجود المشبهة في زمانهم زاعمين - أي المشبهة- أن ظاهر الآيات يدل على أنه تعالى جسم، ولم يفقهوا أنه مستحيل عليه عز وجل الجسمية والحلول في الأمكنة...

فوجب عليهم - يعني الخلف - أن يبينوا للعامّة معنى تلك الآيات والأحاديث المتشابهة حسب مدلولات القرآن والأحاديث النبوية بما يصح اتصاف الله تعالى به، ليعرفوا الحق فيعملوا عليه ويتركوا الباطل وأهله فجزاهم الله تعالى خير الجزاء.

وقد نقل العلامة زروق عن أبي حامد أنه قال: (لا خلاف في وجوب التأويل عند تعين شبهة لا ترتفع إلا به).

والحاصل: أن الخلف لم يخالفوا السلف في الاعتقاد وإنما خالفوهم في تفسير المتشابه للمقتضي الذي حدث في زمانهم دون زمان السلف كما علمت، بل اعتقادهم واحد، وهو أن الآيات والأحاديث المتشابهات مصروفة عن ظاهرها الموهم تشبيهه تعالى بشيء من صفات الحوادث وأنه سبحانه وتعالى مخالف للحوادث، فليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا مستقر على عرش ولا في سماء ولا يمر عليه زمان وليس له جهة إلى غير ذلك مما هو من نعوت المخلوقين). اهـ.

وعلى الجملة، فإن التأويل حق سواء ثبت النقل فيه عن السلف - وهو الحق كما سيأتي - أم لم يثبت، لأنه أسلوب عربي أصيل لفهم الكلام العربي، ويدخل في ضمنه كلام الله تعالى وكلام رسوله، والقائل به لم يأت بدعاً من الأمر، ولكنه اتبع طريق العرب في فهم الكلام.

* * * * *

نماذج من تأويل علماء الأمة وأئمتها لنصوص الصفات

قال الإمام الخطابي - رحمه الله تعالى - عند شرحه قول النبي ' وإنه ليعط به أطيظ الرجل بالراكب " (معالم السنن 4 / 328):

(هذا الكلام إذا جرى على ظاهره كان فيه نوع من الكيفية، والكيفية عن الله وصفاته منفية، فعقل أن ليس المراد منه تحقيق هذه الصفة، ولا تحديده على هذه الهيئة، وإنما هو كلام تقريب أريد به عظمة الله وجلاله سبحانه، وإنما قصد به إفهام السائل من حيث يدركه فهمه إذ كان أعرابياً جلفاً لا علم له بمعاني ما دق من الكلام وبما لطف منه عن درك الإفهام، وفي الكلام حذف وإضمار، فمعنى قوله " أتدري ما الله " معناه أتدري ما عظمة الله وجلاله، وقوله " إنه ليعط به " معناه إنه ليعجز عن جلاله وعظمته حتى يبط به، إذ كان معلوماً أن أطيظ الرجل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه ولعجزه عن احتمالها، فقرر بهذا النوع من التمثيل عنده معنى عظمة الله وجلاله وارتفاع عرشه ليعلم أن الموصوف بعلو الشأن وجلالة القدر وفخامة الذكر لا يجعل شفيفاً إلى من هو دونه في القدر وأسفل منه في الدرجة، وتعالى الله أن يكون مشبهاً بشيء أو مكيفاً بصورة خلق أو مدركاً بحد. ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير) اهـ.

وأول محيي السنة الإمام البغوي حبَّ الله تعالى للمؤمنين بشئائهم وعليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم (تفسير البغوي 1 / 293).

وتفسيره زاجر بما تقرّ به أعين المنزهين لله تعالى.

وقال الإمام أبو نصر القشيري رحمه الله تعالى (إتحاف السادة المتقين 2 / 110):

(كيف يسوغ لقائل أن يقول: في كتاب الله تعالى ما ليس لمخلوق سبيل إلى معرفته ولا يعلم تأويله إلا الله، أليس هذا من أعظم القدح في النبوات؟! وأن النبي ' ما عرف تأويل ما ورد في صفات الله تعالى، ودعا الخلق إلى علم ما لا يعلم، أليس الله يقول (بلسان عربي مبين) فإذاً - على زعمهم - يجب أن يقولوا كذب حيث قال (بلسان عربي مبين) إذ لم يكن معلوماً عندهم، وإلا فأين هذا البيان، وإذا كان بلغة العرب فكيف يدعى بأنه مما لا تعلمه العرب؟ ولو كان كذلك لما كان ذلك الشيء عربياً... ونسبة النبي ' إلى أنه دعا إلى رب موصوف بصفات لا تعقل، أمر عظيم لا يتخيله مسلم، فإن الجهل بالصفات يؤدي إلى الجهل بالموصوف. والغرض: أن يستبين من معه مسكة من العقل أن قول من يقول: استواءه صفة ذاتية لا يعقل معناه، واليد صفة ذاتية لا يعقل معناها، والقدم صفة ذاتية لا يعقل معناه، تمويه ضمنه تكييف وتشبيه ودعاء إلى الجهل، وقد وضح الحق لذي عينين. وليت شعري، هذا الذي ينكر التأويل يطرد هذا الإنكار في كل شيء وفي كل آية، أم يقنع بترك التأويل في صفات الله تعالى؟ فإن امتنع من التأويل أصلاً فقد أبطل الشريعة والعلوم، إذ ما من آية وخبر إلا ويحتاج إلى تأويل وتصرف في الكلام، لأن ثمّ أشياء لا بد من تأويلها لا خلاف بين العقلاء فيه إلا الملحدة الذين قصدتهم التعطيل للشرائع، والاعتقاد لهذا يؤدي إلى إبطال ما هو عليه من التمسك بالشرع.

وإن قال: يجوز التأويل على الجملة إلا فيما يتعلق بالله وصفاته فلا تأويل فيه. فهذا يصير منه إلى أن ما يتعلق بغير الله تعالى يجب أن يعلم، وما يتعلق بالصانع وصفاته يجب التقاضي عنه، وهذا لا يرضى به مسلم. وسر الأمر أن هؤلاء الذين

يمتنعون عن التأويل معتقدون حقيقة التشبيه غير أنهم يدلسون ويقولون: له يد لا كالأيدي وقدم لا كالأقدام، واستواء بالذات لا كما نعقل فيما بيننا، فليقل المحقق: هذا كلام لا بد فيه من استبيان، قولكم: بُجِري الأمر على الظاهر ولا يعقل معناه تناقض، إن أُجريت على الظاهر فظاهر السياق في قوله تعالى (يوم يكشف عن ساق) هو العضو المشتمل على الجلد واللحم والعظم والعصب والمخ، فإن أخذت بهذا الظاهر والتزمت بالإقرار بهذه الأعضاء فهو الكفر، وإن لم يمكنك الأخذ بها فأين الأخذ بالظاهر؟ ألسنت قد تركت الظاهر وعلمت تقدس الرب تعالى عما يوهم الظاهر فكيف يكون أخذاً بالظاهر؟! وإن قال الخصم: هذه الظواهر لا معنى لها أصلاً. فهو حكم بأنها ملغاة وما كان في إبلاغها إلينا فائدة وهي هدر، وهذا محال. وفي لغة العرب ما شئت من التجوز والتوسع في الخطاب وكانوا يعرفون موارد الكلام ويفهمون المقاصد، فمن تجافى عن التأويل فذلك لقلة فهمه بالعربية، ومن أحاط بطرف من العربية هان عليه مدرك الحقائق، وقد قيل (وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم) فكأنه قال والراسخون في العلم أيضاً يعلمونه ويقولون آمنا به فإن الإيمان بالشيء إنما يتصور بعد العلم، أما ما لا يعلم فالإيمان به غير متأت، ولهذا قال ابن عباس: أنا من الراسخين في العلم) انتهى قول الإمام القشيري رحمه الله.

ونقل الحافظ ابن حجر عن ابن دقيق العيد مؤيداً له في شرحه لحديث " لا شخص أغير من الله " (الفتح 13 / 411) قال:

(قال ابن دقيق العيد: المنزهون لله إما ساكت عن التأويل، وإما مؤول، والثاني - يعني المؤول - يقول المراد بالغيرة المنع من الشيء والحماية، وهما من لوازم الغيرة، فأطلقت على سبيل المجاز، كالملازمة وغيرها من الأوجه الشائعة في لسان العرب) اهـ.

وقال الإمام النووي - رحمه الله - (شرح مسلم 5 / 24) في شرح حديث إمساك السموات على أصبع والأرضين على أصبع " ما نصه:

(هذا من أحاديث الصفات وقد سبق فيها المذهبان التأويل والإمساك...) ثم قال بعد صفحات (وأما إطلاق اليمين لله تعالى فمتأول على القدرة، وكفى عن ذلك باليدين لأن أفعالنا تقع باليدين، فخطوبنا بما نفهمه ليكون أوضح وأؤكد في النفوس، ولا تمثيل لصفة الله تعالى السمعية المسماة باليد التي ليست بجارحة، والله تعالى أعلم بمراد نبيه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فيما ورد في هذه الأحاديث من مشكل ونحن نؤمن بالله تعالى وصفاته ولا نشبه شيئاً به ولا نشبهه بشيء) اهـ.

وقال الإمام اللغوي النحوي ابن السيد البطليوسي - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر حديث النزول في سياق إثباته للمجاز (الإنصاف ص / 82):

(جعلته المجسمة نزولاً على الحقيقة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وقد أجمع العارفون بالله عز وجل على أنه لا ينتقل لأن الانتقال من صفات المحدثات، ولهذا الحديث تأويلان صحيحان لا يقتضيان شيئاً من التشبيه:

أحدهما أشار إليه مالك رحمه الله وقد سئل عن هذا الحديث فقال: ينزل أمره كل سحر، فأما هو عز وجل فإنه دائم لا يزول ولا ينتقل سبحانه لا إله إلا هو. وسئل الأوزاعي فقال: يفعل الله ما يشاء⁽¹⁾.

وهذا تلويح يحتاج إلى تصريح، وخفي إشارة يحتاج إلى تبين عبارة) ثم أخذ رحمه الله ببيان حقيقة ما قاله على أساليب العرب واستعاراتها، وذكر أن

(1) ذكر قول الأوزاعي هذا الإمام أبو عمرو الداني رحمه الله تعالى ثم قال: أي يظهر الله من أفعاله ما يشاء. اهـ الرسالة الوافية ص/137.

العرب تنسب الفعل إلى من أمر به كما تنسبه إلى من فعله وباشره ومعنى النزول في الحديث أن الله تعالى يأمر ملكاً بالنزول إلى السماء الدنيا فينادي بأمره، ثم قال رحمه الله: (فهذا تأويل كما تراه صحيح جار على فصيح كلام العرب في محاوراتها والمتعارف من أساليبها ومخاطباتها، وهو شرح ما أراده مالك والأوزاعي رحمهما الله) اهـ.

قال الإمام أبو بكر بن العربي - رحمه الله - (القبس شرح الموطأ 1 / 288 - 289):

(وأما الأوزاعي - وهو إمام عظيم - فنزع بالتأويل حين قال وقد سئل عن قول النبي "ينزل ربنا" فقال: يفعل الله ما يشاء. ففتح باباً من المعرفة عظيماً ونهج إلى التأويل صراطاً مستقيماً).

ثم قال رحمه الله تعالى:

(إن الله سبحانه منزّه عن الحركة والانتقال لأنه لا يحويه مكان كما لا يشتمل عليه زمان، ولا يشغل حيزاً كما لا يدنو إلى شيء بمسافة ولا يغيب بعلمه عن شيء، متقدس الذات عن الآفات منزّه عن التغير والاستحالات، إله في الأرض إله في السماوات. وهذه عقيدة مستقرة في القلوب ثابتة بواضح الدليل) اهـ.

وقال أيضاً في شرحه على سنن الترمذي (2/ 234):

(اختلف الناس في هذا الحديث وأمثاله على ثلاثة أقوال فمنهم من ردّه لأنه خبر واحد ورد بما لا يجوز ظاهره على الله وهم المبتدعة، ومنهم من قبله وأمرّه كما جاء ولم يتأوله ولا تكلم فيه مع اعتقاده أن الله ليس كمثله شيء، ومنهم من تأوله وفسره. وبه أقول، لأنه معنى قريب عربي فصيح.

أما إنه قد تعدى إليه قوم ليسوا من أهل العلم بالتفسير فتعدوا عليه بالقول

بالتكثير، قالوا: في هذا الحديث دليل على أن الله في السماء على العرش من فوق سبع سموات.

قلنا: هذا جهل عظيم وإنما قال " ينزل إلى السماء " ولم يقل في هذا الحديث من أين ينزل ولا كيف ينزل.

قالوا - وحثتهم ظاهره - : قال الله تعالى (الرحمن على العرش استوى)

قلنا: وما العرش في العربية؟ وما الاستواء؟... إلى أن قال رحمه الله تعالى:

(والذي يجب أن يعتقد في ذلك أن الله كان ولا شيء معه ثم خلق المخلوقات من العرش إلى الفرش فلم يتغير بها ولا حدث له جهة منها ولا كان له مكان فيها فإنه لا يحول ولا يزول قدوس لا يتغير ولا يستحيل، وللاستواء في كلام العرب خمسة عشر معنى ما بين حقيقة ومجاز، منها ما يجوز على الله فيكون معنى الآية، ومنها ما لا يجوز على الله بحال، وهو إذا كان الاستواء بمعنى التمكن أو الاستقرار أو الاتصال أو المحاذاة، فإن شيئاً من ذلك لا يجوز على الباري تعالى، ولا يضرب له الأمثال في المخلوقات، وإما أن لا يفسر كما قال مالك وغيره: إن الاستواء معلوم. يعني مورده في اللغة. والكيفية التي أراد الله مما يجوز عليه من معاني الاستواء مجهولة، فمن يقدر أن يعينها، والسؤال عنه بدعة، لأن الاشتغال به وقد تبين طلب التشابه ابتغاء للفتنة. فتحصل لك من كلام إمام المسلمين مالك أن الاستواء معلوم وأن ما يجوز على الله غير متعين وما يستحيل عليه هو منزعه عنه، وتعيّن المراد بما لا يجوز عليه لا فائدة لك فيه إذ قد حصل لك التوحيد والإيمان بنفي التشبيه والحال على الله سبحانه وتعالى فلا يلزمك سواه، وقد بينا ذلك في المشكلين على التحقيق، وأما قوله: ينزل ويجيء ويأتي، وما أشبه ذلك من الألفاظ التي لا تجوز على الله في ذاته معانيها فإنها ترجع إلى أفعاله، وهنا نكتة وهي: أن أفعالك أيها العبد إنما هي في ذاتك، وأفعال الله

سبحانه لا تكون في ذاته ولا ترجع إليه وإنما تكون في مخلوقاته، فإذا سمعت الله يقول كذا فمعناه في المخلوقات لا في الذات، وقد بين ذلك الأوزاعي حين سئل عن هذا الحديث . أي حديث النزول . فقال: يفعل الله ما يشاء. وإما أن تعلم وتعتقد أن الله لا يتوهم على صفة من المحدثات ولا يشبهه شيء من المخلوقات ولا يدخل باباً من التأويلات.

قالوا- أي أصحاب الطواهر - : نقول ينزل ولا نكيف.

قلنا: معاذ الله أن نقول ذلك، إنما نقول كما علمنا رسول الله ' وكما علمنا من العربية التي نزل بها القرآن، قال النبي ' : " يقول الله عبدي مرضت فلم تعدني.. وجعت فلم تطعمني.. وعطشت فلم تسقني " وهو لا يجوز عليه شيء من ذلك ولكن شرف هؤلاء بأن عبّر به عنهم، كذلك قوله: ينزل ربنا، عبّر به عن عبده وملكه الذي ينزل بأمره باسمه فيما يعطي من رحمته... والنزول قد يكون في المعاني وقد يكون في الأجسام، والنزول الذي أخبر الله عنه إن حملته على أنه جسم فذلك ملكه ورسوله وعبده، وإن حملته على أنه كان لا يفعل شيئاً من ذلك ثم فعله عند ثلث الليل فاستجاب وغفر وأعطى وسمّى ذلك نزولاً عن مرتبة إلى مرتبة ومن صفة إلى صفة فتلك عربية محضة خاطب بها من هم أعرف منكم - أهل الظاهر - وأعقل وأكثر توحيداً وأقلّ بل أعدم تخليطاً. قالوا بجهلهم: لو أراد نزول رحمته لما خص بذلك الثلث من الليل لأن رحمته تنزل بالليل والنهار. قلنا: ولكنها بالليل وفي يوم عرفة وفي ساعة الجمعة يكون نزوها أكثر وعطاؤها أوسع وقد نبّه الله على ذلك بقوله تعالى (والمستغفرين بالأسحار) اهـ.

ولقد أطلنا بنقل كلامه رحمه الله لنفاسته وإحكامه. ولا ندري - والله -

كيف يكون مثل هذا الكلام الرفيع الرائع الرائق ضلالاً؟!!

وجاء في كتاب البيان والتحصيل لابن رشد (الجد) رحمه الله تعالى (18 / 504،
وانظر السير 104/8، والنوادر والزيادات لابن أبي زيد 553/14) ما نصه:

(قال - يعني ابن القاسم صاحب مالك - وسألت مالكا عن الحديث في أخبار
سعد بن معاذ في العرش، فقال: لا تتحدث به... وعن الحديث " إن الله خلق آدم
على صورته " وعن الحديث في الساق، وذلك كله، قال ابن القاسم: لا ينبغي لمن
يتقي الله ويخافه أن يحدث بمثل هذا. قال ابن رشد بعد أن ذكر الأحاديث التي أشار
إليها ابن القاسم: وإنما نهي مالك أن يتحدث بهذين الحديثين وبالحديث الذي جاء
بأن الله خلق آدم على صورته، ونحو ذلك من الأحاديث التي يقتضي ظاهرها
التشبيه، مخافة أن يتحدث بها، فيكثر التحدث بها، وتشيع في الناس، فيسمعها
الجهال الذين لا يعرفون تأويلها، فيسبق إلى ظنهم التشبيه بها، وسبيلها - إذا
صحت الروايات بها - أن تتأول على ما يصح، مما ينتفي به التشبيه عن الله عز وجل
بشيء من خلقه، كما يصنع بما جاء في القرآن مما يقتضي ظاهره التشبيه وهو كثير،
كالإتيان في قوله عز وجل (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل) والاستواء في
قوله (الرحمن على العرش استوى) ، وكما يفعل أيضاً بما جاء من ذلك في السنن
المتواترة كالضحك والنزول وشبه ذلك مما لم يكره روايتها لتواتر الآثار بها، لأن سبيلها
كلها في اقتضاء ظاهرها التشبيه وإمكان تأويلها على ما ينتفي به تشبيه الله عز وجل
بشيء من خلقه سواء) اهـ.

ولقد نقل الحافظ أبو الحسن علي بن القطان - رحمه الله تعالى - الإجماع على
التأويل الإجمالي والتأويل التفصيلي، قال (الإقناع في مسائل الإجماع 1 / 32 - 43):

(وأجمعوا أنه تعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً لعرض الأمم وحسابها وعقابها
وثوابها، فيغفر لمن يشاء من المؤمنين، ويعذب منهم من يشاء كما قال تعالى، وليس

مجيئه بحركة ولا انتقال .

وأجمعوا أنه تعالى يرضى عن الطائعين له، وأن رضاه عنهم إرادته نعيمهم .
وأجمعوا أنه يحب التوابين ويسخط على الكافرين ويغضب عليهم، وأن غضبه
إرادته لعذابهم وأنه لا يقوم لغضبه شيء) اهـ .

وفي صرف المجيء عن ظاهره الذي هو الحركة تأويل إجمالي، وفي حمل الرضا على
إرادة النعيم، وحمل الغضب على إرادة العذاب تأويل تفصيلي .

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى (الاعتصام، بتحقيق محمد رشيد رضا، 297/1):
(إن للراسخين طريقاً يسلكونها في اتباع الحق، وإن الزائغين على طريق غير
طريقهم، فاحتجنا إلى بيان الطريق التي سلكها هؤلاء لتجنبها، كما نبين الطريق التي
سلكها الراسخون لنسلكها).

ثم أخذ ببيان طرق الزائغين فقال:

(فمنها اعتمادهم على الأحاديث الواهية الضعيفة... ومنها ضد هذا، وهو ردّهم
للأحاديث التي حرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم... ومنها تحرّصهم على الكلام في
القرآن والسنة العرييين مع العروء عن علم العربية الذي يفهم به عن الله ورسوله... ومنها
انحرافهم عن الأصول الواضحة إلى اتباع المتشابهات التي للعقول فيها مواقف).

وضرب مثلاً لهذا الصنف من غير أمة الإسلام بالنصارى، ثم قال رحمه الله: (ومثاله
في ملة الإسلام مذهب الظاهرية في إثبات الجوارح للرب . المنزه عن النقائص . من
العين واليد والرجل والوجه المحسوسات والجهة وغير ذلك من الثابت للمحدثات)
اهـ .

ومعنى كلامه ظاهر، أي أن المحذور هو حملها على المحسوسات، وهو اللازم من حملها على الظاهر والحقيقة، أما إثباتها مع تنزيه الله تعالى عن ظواهرها وحقائقها اللغوية المعروفة فهو حق، وهو مذهب جماهير سلف الأمة الصالح رضوان الله عليهم.

وقال أيضاً رحمه الله تعالى في تأويل حُبِّه تعالى وبغضه (الموافقات 2/116):

(والحب والبغض من الله تعالى إما أن يراد بهما نفس الإنعام والانتقام، فيرجعان إلى صفات الأفعال على رأي من قال بذلك، وإما أن يراد بهما إرادة الإنعام والانتقام، فيرجعان إلى صفات الذات، لأن نفس الحب والبغض المفهومين في كلام العرب حقيقة محالان على الله تعالى) اهـ.

وقال الإمام ابن الأثير رحمه الله تعالى (النهاية في غريب الحديث 5/300):

(" الحجر يمين الله في الأرض " هذا الكلام تمثيل وتخييل، وأصله أن الملك إذا صافح رجلاً قَبَلَ الرجل يده، فكأن الحجر الأسود لله بمنزلة اليمين للملك، حيث يستلم ويلثم.

ومنه الحديث الآخر " وكلتا يديه يمين " أي أن يديه تبارك وتعالى بصفة الكمال، لانقص في واحدة منهما، لأن الشمال تنقص عن اليمين، وكل ما جاء في القرآن والحديث من إضافة اليد والأيدي واليمين وغير ذلك من أسماء الجوارح إلى الله تعالى فإنما هو على سبيل المجاز والاستعارة، والله منزّه عن التشبيه والتجسيم) اهـ.

وقال أيضاً عن حديث النزول (42/5): (النزول والصعود والحركة والسكون من صفات الأجسام، والله يتعالى عن ذلك ويتقدس، والمراد به نزول الرحمة والألطف الإلهية، وقربها من العباد، وتخصيصها بالليل والثلث الأخير منه لأنه وقت التهجد وغفلة الناس عمّن يتعرض لنفحات رحمة الله، وعند ذلك تكون النية خالصة، والرغبة إلى الله وافرة، وذلك مظنة القبول والإجابة) اهـ.

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - (المفهم 6 / 672) في شرح حديث
"قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن":

(ظاهر الأصبع محال على الله تعالى قطعاً... وقد تأول بعض أئمتنا هذا الحديث
فقال: هذا استعارة جارية مجرى قولهم: فلان في كفي وفي قبضتي. يراد به أنه متمكن
من التصرف فيه والتصريف له كيف يشاء...) اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى (الفتح 1/189) مؤولاً للفظ الحياء المضاف
إلى الله تعالى في الحديث: (قوله " فاستحيا الله منه " أي رحمه ولم يعاقبه، وقوله "
فأعرض الله عنه " أي سخط عليه..) اهـ.

وقال أيضاً (الفتح 1/419) مؤولاً للفظ اليد (والمراد باليد هنا القدرة) اهـ.

وقال قبل ذلك (هدي الساري ص/219): (ووقع ذكر اليد في القرآن والحديث
مضافاً إلى الله تعالى، واتفق أهل السنة والجماعة على أنه ليس المراد باليد الجارحة التي
هي من صفات المحدثات، وأثبتوا ما جاء من ذلك وآمنوا به، فمنهم من وقف ولم
يتأول، ومنهم من حمل كلّ لفظ منها على المعنى الذي ظهر له، وهكذا عملوا في
جميع ما جاء من أمثال ذلك) اهـ

فأنت ترى أن الأمر يسير، ولا يستدعي كلّ ما أثير حوله من تهويل، فليس في
حمل الكلام على المعنى المجازي كبير خطر، ما دام ذلك ضمن ما يفهم من اللسان
العربي عن قرب، وهذا الحافظ ابن حجر يقول: إن أهل السنة . بعد التنزيه عن الظاهر
. ما بين مفوض ومؤول، ولا نكير من أحدهم على الآخر.

وللإمام الأبيّ - رحمه الله تعالى - كلام يعتبر قاعدة ذهبية في هذا الباب، قال
رحمه الله (شرح مسلم 7 / 54):

(القاعدة التي يجب اعتبارها أن ما يستحيل نسبه للذات أو الصفات يستحيل أن يرد متواتراً في نص لا يحتمل التأويل، وغاية المتواتر أن يرد فيما دللته على المحال دلالة ظاهرة، والظاهر يقبل التأويل، فإن ورد فيجب صرف اللفظ عن ظاهره المستحيل، ثم اختلف، فوقف أكثر السلف عن التأويل، وقالوا نؤمن به على ما هو عند الله سبحانه في نفس الأمر، ونكّل علم ذلك إلى الله سبحانه، وقال قوم بل الأولى التأويل... وإن ورد خبر واحد نصاً في محال قطع بكذب راويه، وإن كان محتملاً للتأويل يتصرف فيه كما سبق) اهـ.

وهذا كلام محكم نفيس في عبارة موجزة شاملة.

وقوله رحمه الله (وإن ورد... قطع بكذب راويه) لأنه ظني عارض القطعي، وقد ثبت بالقطعي من دليل النقل والعقل أنه تعالى ليس كمثل شيء، فكل خبر يأتي على خلاف ذلك يقطع بكذب راويه، لأن أدلة الشرع تتعاضد ولا تتضاد.

ومن اطلع على كتب التراث الإسلامي لأئمة الإسلام وجد ما لا يدخل تحت الحصر من هذه النصوص التي اكتفينا هنا بذكر شذرة منها، مما يدفع العاقل الأريب إلى الإيقان بصحة هذا المنهج الذي اجتمعت عليه الأمة.

قال الشيخ الزرقاني في "مناهل العرفان" (2 / 286) ما نصه:

(علماؤنا أجزل الله مثوبتهم قد اتفقوا على ثلاثة أمور تتعلق بهذه المتشابهات، ثم اختلفوا فيما وراءها:

فأول: ما اتفقوا عليه صرفها عن ظواهرها المستحيلة، واعتقاد أن هذه الظواهر باطلة بالأدلة القاطعة وبما هو معروف عن الشارع نفسه في محكماته.

ثانيه: أنه إذا توقف الدفاع عن الإسلام على التأويل لهذه المتشابهات وجب

تأويلها بما يدفع شبهات المشبهين ويرد طعن الطاعنين.

ثالثه: إن المتشابه إن كان له تأويل واحد يفهم منه قريباً وجب القول به إجماعاً، وذلك كقوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) فإن الكينونة بالذات مع الخلق مستحيلة قطعاً، وليس لها بعد ذلك إلا تأويل واحد، هو الكينونة معهم بالإحاطة علماً وبصراً وقدرة وإرادة.

وأما اختلاف العلماء فيما وراء ذلك فقد وقع على ثلاثة مذاهب) أهـ.

فعد مذهب التفويض ومذهب التأويل، ثم جعل للإمام ابن دقيق العيد مذهباً ثالثاً متوسطاً بين المذهبين لقوله (الفتح 13 / 395) (نقول في الصفات المشكلة إنها حق وصدق على المعنى الذي أراده الله، ومن تأولها نظرنا، فإن كان تأويله قريباً على مقتضى لسان العرب لم ننكر عليه، وإن كان بعيداً توقفنا عنه ورجعنا إلى التصديق مع التنزيه)، وهو في حقيقة الأمر داخل ضمن مذهب التأويل، لأنه ليس من أهل السنة أحد إلا وهو متفق معه على ما ذهب إليه من رفض التأويلات البعيدة التي ليست على مقتضى لسان العرب.

وقال الشيخ العلامة محمد الحامد - رحمه الله تعالى - (ردود على أباطيل 2 / 10):

(النصوص السمعية المحكمة أي الواضحة المعنى هي الأصل الذي يجب أن يحمل عليه المتشابه، أي الذي يسبق إلى الوهم معنى التشبيه منه (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنَّ أمُّ الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلُّ من عند ربنا ، وما يتذكَّرُ ألا أولوا الألباب) أي آمنا به جميعاً محكمه ومتشابهه، لكن إيمانهم بالمتشابه لا ينقض إيمانهم بالحقم الذي هو الأصل، فهم لا يشبهون الله بخلقه، بل يكولون العلم بمعنى المتشابه

إلى الله عز وجل معتقدين أن له معنى شريفاً يليق به سبحانه، فلا هم بالمعطلين للنصوص ولا هم بالمشبهين، ومذهبههم وسط بين الطائفتين الشاذتين عن سبيل أهل الحق وهما المعطلة والمشبهة. وعلى هذا درج سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم ولو ذهب أسرد لك كلماتهم في هذا لطال بي القول وامتد الكلام، لكن لما ظهرت البدعة وتطلعت رؤوس أهل الزيغ وصاروا يشوشون على المسلمين عقائدهم، خشي علماء المسلمين على العقائد أن يلحقها لوث وفساد فاعتمدوا تأويل النصوص المتشابهة في إطار اللغة العربية وضمن سور الشريعة) اهـ.

وقوله رحمه الله (لكن إيمانهم بالمتشابه لا ينقض إيمانهم بالمحكم الذي هو الأصل) واضح في الرد على من حمل المتشابه على مقتضى الحس، فهؤلاء بدلاً من أن يحملوا المتشابه على المحكم ويرجعوه إليه، فعلوا العكس، فنقضوا بفعلهم هذا إيمانهم بالمحكم من مثل قوله تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)

وقال الداعية الكبير سيد قطب رحمه الله تعالى (في ظلال القرآن، سورة الحديد):

(وكذلك العرش فنحن نؤمن به كما ذكره، لا نعلم حقيقته، أما الاستواء على العرش فنملك أن نقول إنه كناية عن الهيمنة على هذا الخلق، استناداً إلى ما نعلمه من القرآن عن يقين من أن الله سبحانه لا تتغير عليه الأحوال، فلا يكون في حالة عدم استواء على العرش ثم تتبعها حالة استواء، والقول بأننا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيته لا يفسر قوله تعالى (ثم استوى) ، والأولى أن نقول: إنه كناية عن الهيمنة كما ذكرنا، والتأويل هنا لا يخرج على المنهج الذي أشرنا إليه آنفاً، لأنه لا ينبع من مقررات وتصورات من عند أنفسنا) اهـ.

وبالجملة، فإن منهج سيد قطب رحمه الله تعالى في الظلال دائر بين التأويل الذي أخذ به أولاً قبل العودة على الظلال بالتنقيح، وبين التفويض الذي آل إليه رأيه

أخيراً، وكلا الطريقتين حق، بل إن طريق التفويض الذي كان عليه جمهور السلف الصالح أولى بالاتباع ما لم تدعُ حاجة إلى التأويل.

وهذا الذي آل إليه رأي سيد قطب رحمه الله تعالى هو من قبيل ما ينسب إلى بعض الأئمة مثل الإمام الجويني والرازي والغزالي وغيرهم، ففهم البعض منه أنهم هجروا منهج الإمام الأشعري، وقد ردّدنا هذا الفهم وبيّنا بطلانه، كما بيّنا أيضاً أن منهج الأشعري تفويض وتأويل، وأنهم تركوا التأويل ورجعوا إلى التفويض الذي كان عليه جمهور السلف، وذكرنا أنه ليس بين المسلكين تناقض، إذ كلاهما قائل بتنزيه الله تعالى عن سمات النقص والحدوث، وكلاهما مؤوّل، فالسلف أوّلوا إجمالاً، والخلف أوّلوا تفصيلاً.

وقال الشيخ عمر التلمساني رحمه الله تعالى (بعض ما علمني الإخوان ص/17) في قوله تعالى (**والسّموات مطويات بيمينه**) (إن هذه اليمين التي تشير إليها الآية الكريمة هي التمكن من طي السموات والأرض، أي القدرة التي تفعل ما تشاء كيفما تشاء عندما تشاء) اهـ.

وكذا قال سيد قطب عند هذه الآية (الظلال 5/3062):

(وكل ما ورد في القرآن والحديث من هذه الصور والمشاهد إنما هو تقريب للحقائق التي لا يملك البشر إدراكها بغير أن توضع لهم في تعبير يدركونه، وفي صورة يتصورونها، ومنه هذا التصوير لجانب من حقيقة القدرة المطلقة التي لا تتقيد بشكل ولا تنحيز في حيز ولا تتحدد بحدود) اهـ.

وقال الإمام الداعية حسن البنا رحمه الله (مجموعة رسائل الإمام ص 411):

(انقسم الناس في هذه المسألة على أربع فرق:

الأولى: أخذت بظواهرها كما هي فنسبت إلى الله وجهاً كوجوه الخلق ويداً أو أيدٍ كأيديهم وضحكاً كضحكهم... وهؤلاء هم الجسمة والمشبهة، وليسوا من الإسلام في شيء، وليس لقولهم نصيب من الصحة.

والثانية: عطلت معاني هذه على أي وجه، يقصدون بذلك نفي مدلولاتها عن الله تبارك وتعالى فالله تبارك وتعالى عندهم لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر... وهؤلاء هم المعطلة ويطلق عليهم بعض علماء تاريخ العقائد الإسلامية الجهمية... هذان رأيان باطلان لا حظ لهما من النظر.

وبقي أمامنا رأيان هما محل أنظار العلماء في العقائد وهما رأي السلف والخلف.

مذهب السلف: نؤمن بهذه الآيات والأحاديث كما وردت ونترك بيان المقصود منها لله تبارك وتعالى، فهم يثبتون اليد والعين والأعين والاستواء والضحك والتعجب... الخ، وكل ذلك بمعان لا ندركها، ونترك لله تبارك وتعالى الإحاطة بعلمها...

أما الخلف: فقد قالوا إننا نقطع بأن معاني ألفاظ هذه الآيات والأحاديث لا يراد بها ظواهرها، وعلى ذلك فهي مجازات لا مانع من تأويلها... اهـ.

ثم قال رحمه الله تعالى (بين السلف والخلف: قد علمت أن مذهب السلف في الآيات والأحاديث التي تتعلق بصفات الله تبارك وتعالى أن يُرَوَّها على ما جاءت عليه ويسكتوا عن تفسيرها أو تأويلها، وأن مذهب الخلف أن يؤولوها بما يتفق مع تنزيه الله تبارك وتعالى عن مشابهة خلقه) اهـ.

ثم بين رحمه الله تعالى أن كلا المذهبين حق ولا يستلزم اختلافهم تكفيراً ولا تفسيقاً.

وهو كما قال رحمه الله إذ لا خلاف بين السلف والخلف في هذا الباب، وإنما هو اختلاف جائز مباح، فَرَضَهُ اختلاف الظروف التي كان يعيشها كل من السلف والخلف، فزمن السلف كان خالياً من بدعة القول بالظاهر والتجسيم فاقتضى ذلك أن يتوقفوا ولا يقدموا على تفسير هذه النصوص، بخلاف أزمنة الخلف التي شاعت فيها مقالات المبطلين مما دعاهم إلى التصريح بالتأويل.

ولكن الخلاف الحقيقي هو الواقع بين السلف والخلف من جانب ومن يحملون هذه النصوص على ظواهرها وعلى مقتضى الحس من جانب آخر.

إن السلف الصالح والخلف متفقون جميعاً على صرف هذه النصوص عن ظواهرها المحال في حق الله تعالى، بل الأمة مجمعة على ذلك، كيف لا وهذه الظواهر منفية عن الله تعالى بالقطعي من الأدلة النقلية والعقلية، وهؤلاء الذين يصرون على إثبات هذه الظواهر المستلزمة لمعان باطلة ولوازم مستحيلة، لا يختلفون معنا في كون هذه اللوازم الباطلة من الجسمية والحد ونحوها منفية عن الله تعالى، إلا أنهم يجهلون أن إثبات الحقائق اللغوية المعهودة والظواهر المتبادرة من المتشابه يستلزم إثبات ما قد نفوه وأجمعت الأمة على نفيه وعلى تنزيه الله تعالى عنه وهو الحد والتحيز والجسمية ونحوها، وكونهم لا يقرون بهذه اللوازم أمرٌ لا يُقضى منه العجب، لأن إثبات الملزوم وهو المعنى الظاهر هنا ثم نفي اللازم وهو الجسمية ونحوها لا يعقل لأنه لازم لا ينفك.

وإذا قيل لهم: إن هذه الألفاظ إنما وضعت للدلالة على المخلوق، وأنه لا يفهم منها إذا حملت على الظاهر إلا ذلك. قالوا: إن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فكما أثبتتم ذاتاً لا كالذوات متصفة بالحياة والعلم والسمع والبصر، وغيرها مما أطلقتن عليه صفات المعاني، ولم تقولوا شيئاً منها، أثبتوا له تعالى استواء ووجهاً ويداً وضحكاً ومللاً وأصبغاً.. الخ على الحقيقة وبلا تأويل!!

وهذه مغالطة وكلام يوهم ظاهره أنه حق، وقد يلتبس عند الخاطر الأول على من لم يدقق ويمعن النظر، ولكن مع قليل من التروي ينجلي للعقل فساد باطنه. وقضية هذا الكلام التسوية بين ما يعرف بصفات المعاني وهذه الألفاظ والإضافات الواردة في نصوص المتشابه، وهي قضية خاسرة كما سنبين.

إن الفرق الذي بين الألفاظ التي تدل على الأجسام وما إليها وبين الألفاظ التي تدل على المعاني كبير وشاسع، فالأولى منها أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماعها العضو والجسم الذي وضعت للدلالة عليه، فإذا أضيف ذلك اللفظ إلى الله تعالى قطع العارف بالله أن ذلك المعنى المتبادر والظاهر من اللفظ محال هنا ومنفي عن الله تعالى وإنما سيق الكلام على سبيل

الاستعارة والجماز، وذلك كلفظ (اليد، والأصبع، والقدم، والساق، والوجه، والضحك، والاستواء، والنزول) ونحوها من الألفاظ التي ترجع حقائقها المتبادرة منها إلى الحس.

أما الثانية منها وهي التي ترجع إلى المعنى مثل القدرة والإرادة والسمع والبصر ونحوها فلا يلزم من حملها على ظاهرها وحقيقتها مشابهة لأنها معانٍ مجردة وحقائقها واسعة، فإذا أضيفت للخالق كان لها حقيقة لائقة به تعالى، وإذا أضيفت للمخلوق كانت لها حقيقة لائقة به ولهذا السبب لم يضطر علماء الأمة إلى صرفها عن ظاهرها.

ومما يعضد هذا القول أنه لم ينقل عن أحد من السلف الصالح رضوان الله عليهم أنه قال في شيء من صفات المعاني أمرؤها بلا كيف، أو لا تفسر ولا تكيف.. الخ. وما هذا إلا لفظتهم لهذا الفارق بين النوعين من الألفاظ، والأمر واضح وبين لمن كان له شيء من الاطلاع على علوم اللغة.

وانظر إلى قول الإمام أحمد رضي الله عنه كما جاء في عقيدته المروية عنه في طبقات الحنابلة (291/2):

(إن لله تعالى يدين، وهما صفة له في ذاته، ليستا بجارحتين وليستا بمركبتين ولا جسم، ولا من جنس الأجسام، ولا من جنس المحدود والتركيب، ولا الأبعاد والجوارح، ولا يقاس على ذلك، ولا له مرفق ولا عضد، ولا فيما يقتضي ذلك من إطلاق قولهم: يد، إلا ما نطق به القرآن الكريم أو صحّت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم السنة فيه) اهـ.

فقد نفى الإمام أحمد رضي الله عنه كل ما يعلق باللفظ من الظواهر الباطلة من الجوارح والأبعاد والتركيب ونحوها، وأوضّحه بقوله: (ولا فيما يقتضي ذلك من إطلاق قولهم: يد) أي كل ما يقتضيه إطلاق لفظ اليد من هذه المعاني التي مرّت من الجارحة والجسم ونحوه، كلّ منفّي عن ربّنا عزّ وجلّ.

وقال أيضاً رضي الله عنه في صفة الاستواء (ولا يجوز أن يقال: استوى بمماسّة ولا بملاقاة، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً) اهـ.

وهذا نصّ في نفي الظاهر المتبادر من إطلاق اللفظ، وهو ما يقول به الأشاعرة، فيثبتون لله تعالى يدين ووجهاً وعيناً وأنه تعالى استوى على عرشه كما قال سبحانه مخبراً عن نفسه، يثبتون كل ما أثبتته تعالى لنفسه وأثبتته رسوله صلى الله عليه وسلم له وينزهونه عن ظواهر هذه الألفاظ مما يعهده الخلق من أنفسهم وما يفهمونه من لغاتهم التي وضعوها لأجل التعبير بما عما يحتاجون إليه من شؤونهم، والله متعالٍ عن كل ذلك.

ولعل قائلًا أن يقول:

إنكم حين نفيتم الظواهر عطَّلتم ما أثبتته الله تعالى لنفسه وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم.

فنقول: نحن إنما نفينا الظواهر ونزهنا الله تعالى عنها، وليس الظاهر - قطعاً - هو مراد الله تعالى ومراد رسوله عليه الصلاة والسلام، بل إن هذه الظواهر باتفاق السلف والخلف منفية عن الله تعالى عقلاً ونقلاً.

ونحن نفينا هذه الظواهر ولم ننفي الصفة التي أثبتها الله تعالى لنفسه، فلم يُثقل أحد من أهل السنة أن الله تعالى ليس له يدان أو ليس له عين أو غير مستوٍ على عرشه، كلا، بل قالوا لله تعالى يدان ولكن يده تعالى ليست بجارحة، وهذا قول السلف كما مرَّ عن الإمام أحمد، والله تعالى وجه وهو ليس بجارحة أو صورة أو جسم، وهو قول السلف كما في عقيدة الإمام أحمد، والله تعالى عين ليست بجارحة، والله تعالى استوى على عرشه استواءً لا ثقاً به تعالى ليس بمماسة ولا بملاقاة، وهذا الذي قاله الإمام أحمد كما مرَّ، وهكذا، فتراهم يثبتون ما ثبت بالكتاب والسنة الصحيحة وينزهون الله تعالى عن الظاهر الذي يُفهم من اللفظ بين الخلق، وحين يُستبعد الظاهر والحقيقة اللغوية المتبادرة من اللفظ لا يبقى إلا المجاز، فترى جمهور السلف لاحتمال اللفظ أكثر من معنى لديهم يتوقفون عن تعيين أحدهما مكتفين بالفهم الإجمالي للفظ حسب موطنه من الكلام، فيفهمون من قوله تعالى (بل يدها مسوطة) أن الله تعالى جوادٌ كريم لا تغني خزائنه ولا ينقطع عطاؤه، ويفهمون من قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) النصرة والثواب، وهكذا، لكن جمهورهم لم ينطق بهذه المعاني، لوضوحها عندهم وعدم الحاجة إلى التصريح بها لخلو عصرهم مما يقتضي ذلك، بيد أن هذا لم يمنع البعض منهم رضي الله عنهم من التصريح ببعض هذه المعاني كما سيأتي معنا في مبحث تأويلات السلف.

على أننا نقول: إن الله تعالى هو من علمنا كيف ننزهه وننفي عنه كل ما لا يليق بذاته العلية من هذه الظواهر، كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم في فضل عيادة المريض والذي يقول فيه الرب تعالى لعبده يوم القيامة: (يا ابن آدم مرضت فلم تعدني... يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني... يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني) كل ذلك والعبد يقول (رب كيف أعودك وأنت رب العالمين... رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين.. رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين) فإنه عندما استحال في عقل العبد الذي ينزه مولاه عن صفات المخلوقين وسمات الأجسام وعوارض النقص والآفات أن يمرض ربه ويعوده على الحقيقة وأن يستطعم ويستسقي على الحقيقة سأل (رب كيف.. وأنت رب العالمين) أي أن حقائق هذه الألفاظ لا تليق به تعالى وهي محالة قطعاً في حقه، وما دامت منفية الظاهر والحقيقة فهي عنده بلا معنى مفهوم. ولهذا سأل (رب كيف)، وهذا شأن كل لفظ من هذه الألفاظ التي من هذا القبيل عندما يستحيل معناه الظاهر والحقيقي يستفسر عن المراد منه بـ (كيف)، وهذا الذي حدث من بعض العوام في الصدر الأول حين أخذوا يسألون عن مثل هذه الألفاظ: كيف استوى؟ كيف ينزل؟ كيف يضحك؟ فنهاهم علماء السلف عن الاستفسار عن معانيها بقولهم (بلا كيف) وألزموهم تنزيه الله تعالى عن ظواهرها ثم السكوت بعد الإيمان بأن الله تعالى ليس كمثله شيء.

قال الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى (الإشارة إلى الإيجاز ص/7):

(وأما قوله عليه السلام حكاية عن ربه " مرضت فلم تعدني واستطعمتك فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني " فيحمل على حذف المضاف تقديره مرض عبدي فلم تعده، واستطعمك عبدي فلم تطعمه، واستسقاك عبدي فلم تسقه... ويدلُّ

على هذا أن المعلوم لما قيل له استطعمتك فلم تطعمني. قال استبعاداً لذلك وتعجباً منه - لما لم يتفطن لحذف المضاف وإرادة الرب - كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ حملاً للكلام على ظاهره، فأظهر الرب سبحانه وتعالى مراده من تأويل كلامه فقال: "مرض عبدي فلم تعدّه واستطعمك عبدي فلم تطعمه واستسقاك عبدي فلم تسقه" اهـ.

وقوله (حملاً للكلام على ظاهره) أي أن العبد قال ذلك مستبعداً له لما لم يتفطن لغيره من المعاني اللاتئة بالله تعالى.

وقال العلامة ابن خلدون - رحمه الله تعالى - (المقدمة 3 / 1088، بتحقيق علي عبدالواحد واوي):

(إلى أن ظهر الشيخ أبو الحسن الأشعري وناظر مشيختهم - أي المعتزلة - في مسائل الصلاح والأصلح، فرفض طريقتهم وكان على رأي عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبي العباس القلانسي والحارث المحاسبي من أتباع السلف وعلى طريقة السنة فأيد مقالاتهم - يعني السلف - بالحجج الكلامية وأثبت الصفات القائمة بذات الله تعالى من العلم والقدرة والإرادة... وكان من مذهبهم إثبات الكلام والسمع والبصر، لأنها] يعني هذه الصفات [وإن أوهم ظاهرها النقص بالصوت والحرف الجسمانيين، فقد وجد للكلام عند العرب مدلول آخر غير الحروف والصوت وهو ما يدور في الخلد والكلام حقيقة فيه دون الأول.... وأما السمع والبصر وإن كان يوهم إدراك الجارحة فهو يدلُّ لغةً على إدراك المسموع والمبصر وينتفي إيهام النقص حينئذ لأنه حقيقة لغوية فيهما) اهـ.

هذا فيما يتعلق بصفات المعاني، أما الصفات الأخرى التي يريد هؤلاء التسوية بينها وبين صفات المعاني وذلك بقولهم يجب إثبات حقائقها ومعانيها الظاهرة كما

هو الحال في صفات المعاني فيقول العلامة ابن خلدون عنها:

(وأما لفظ الاستواء والمحيء والنزول والوجه واليدين والعينين⁽¹⁾ وأمثال ذلك، فعدلوا عن حقائقها اللغوية لما فيها من إيهام النقص بالتشبيه إلى مجازاتها على طريقة العرب حين تتعذر حقائق الألفاظ، فيرجعون إلى المجاز، كما في قوله تعالى: (يريد أن ينقض) وأمثاله، طريقة معروفة لهم غير منكورة ولا مبتدعة) اهـ.

ثم قال موضحاً سبب أخذ الخلف بالتأويل: (وحملهم على هذا التأويل وإن كان مخالفاً لمذهب السلف في التفويض أن جماعة ارتكبوا في محمل هذه الصفات فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى مجهولة الكيفية فيقولون في (استوى على العرش) ثبت له استواء بحيث مدلول اللفظ] أي على الحقيقة [فراراً من تعطيله، ولا نقول بكيفيته فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه آيات السلوب من قوله تعالى (ليس كمثله شيء) (سبحان الله عما يصفون) (تعالى الله عما يشركون) (لم يلد ولم يولد) ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات استواء] يعني ظاهره اللغوي وحقيقته المعهودة عند الخلق [والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعه الاستقرار والتمكن وهو جسماني. وأما التعطيل الذي يشنعون بالزامه وهو تعطيل اللفظ . أي ظاهره . فلا محذور فيه وإنما المحذور في تعطيل الإله⁽²⁾... ثم يدعون أن هذا مذهب السف، وحاشا لله من ذلك، وإنما مذهب السلف ما قررناه أولاً من

(1) لم يرد لفظ العينين في القرآن والسنة، فلعل هذا من تصحيقات النساخ. انظر ما مرّ ص 18.

(2) أي نفى صفاته تعالى كأن يقال: لم يستو أو غير مستو، أو ليس لله يدان أو وجه أو لا يغضب أو لا يحب ونحو ذلك مما وقعت به بعض الفرق المعطلة فهذا هو المحذور، أما نفى الظاهر المحال وإثبات الصفة التي أثبتها الله تعالى لنفسه أو أثبتها له رسوله عليه الصلاة والسلام فليس بمحذور، وهذا ما فعله أهل السنة الأشاعرة.

تفويض المراد بها إلى الله والسكوت عن فهمها... ثم طردوا ذلك المحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه والعينين واليدين والنزول والكلام بالحرف والصوت يجعلون لها مدلولات أعم⁽¹⁾ من الجسمانية وينزهونه عن مدلول الجسماني منها، وهذا شيء لا يعرف في اللغة، وقد درج على ذلك الأول والآخرون منهم، ونافرهم أهل السنة من المتكلمين الأشعرية والحنفية ورفضوا عقائدهم في ذلك) اهـ.

وهذا الذي قرره وحرره العلامة ابن خلدون هو ما أطبقت عليه الأمة.

فإن قيل: قول السلف (بلا كيف) و(أمرؤها كما جاءت) ونحو ذلك مما نقل عنهم، تفويض في الكيف إلى الله بعد إثبات المعنى الظاهر.

قلنا: إن نفي هذه المعاني الظاهرة متفق عليه عند جميع العارفين بالله تعالى، وقد ذكرنا قبل أن هذه الكيفيات المحسوسة مما يتنزه الله تعالى عنها ولا يجوز وصفه بها لأنها لو ازم لا تنفك عن المعاني الظاهرة من هذه الألفاظ، وحاشا السلف الصالح أن يشبوا الله تعالى ما يستحيل في حقه وهم أعرف الخلق كافة بالله بعد رسول الله .

وهذه نصوص العلماء في تنزيه الله تعالى عن الكيفيات المحسوسة:

(1) وهذا الذي ذكره العلامة ابن خلدون هو ما عينناه بقولنا إن صفات المعاني لها مدلولات واسعة أعم من الجسمانيات لذا لم يضطر العلماء معها إلى صرفها عن مدلولها الظاهر، فهي لها مدلول خاص إذا أضيفت إلى الله تعالى ومدلول آخر إذا أضيفت إلى المخلوق، أما ألفاظ التشابه فمدلولها الظاهر ضيق لا يفهم منه إلا الجسمانيات، ولهذا اضطر العلماء معها إلى الصرف عن هذا الظاهر فيما التفويض وإما التأويل وهذا بعينه ما أراده العلامة ابن خلدون في هذه العبارة فإنه لا يعقل . مثلاً . أن يقولوا لا تثبت لله تعالى جارحة ثم يحملون هذه الألفاظ على الظاهر فإنه لا ظاهر هنا إلا الجارحة والجسمانيات.

من ذلك ما جاء في كتاب " الاعتقاد " للحافظ البيهقي (ص / 93):
قال الحافظ البيهقي: قال الأوزاعي: (كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه
فتفسيره تلاوته والسكوت عليه).

قال البيهقي (وإنما أراد - والله أعلم - فيما تفسيره يؤدي إلى تكييف،
وتكييفه يقتضي تشبيهه له بخلقه في أوصاف الحدوث) اهـ.

نقول: إن كل ما جاء من نصوص المتشابهة في الصفات من هذا القبيل، لأن
ظاهره ومعناه الحقيقي يؤدي إلى التكييف المقتضي للتشبيه لا محالة، فلا فرق بين
إثبات المعنى الحقيقي لهذه الألفاظ وبين التكييف المستحيل في حق الله تعالى، وهذا
بعينه ما أشار إليه الإمام مالك رضي الله عنه في القول المشهور عنه في الاستواء
(الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول..). أي لا يعقل، ولا يجوز على الله تعالى،
لأن التكييف تحديد، والله تعالى منزّه عن الحدود.

ونقل الإمام النووي عن القاضي عياض مؤيداً له ما نصه (شرح مسلم 5 / 24):

(لا خلاف بين المسلمين قاطبة فقيهم ومحدثهم ومتكلمهم ونظارهم
ومقلدهم أن الظواهر الواردة بذكر الله تعالى في السماء... ليست على ظاهرها
بل متأولة عند جميعهم... وهل بين التكييف وإثبات الجهات فرق؟! لكن
إطلاق ما أطلقه الشرع من أنه القاهر فوق عباده وأنه استوى على العرش مع
التمسك بالآية الجامعة للتنزيه الكلي الذي لا يصح في المعقول غيره وهو قوله
تعالى " ليس كمثله شيء " عصمة لمن وفقه الله تعالى) اهـ.

ونحن نتساءل بعجب مع القاضي عياض والإمام النووي وباقي أئمة الدين
وأعلام المسلمين ونقول: **وهل بين التكييف والقول بظواهر هذه النصوص فرق؟!؟**
وما هذا إلا للزوم التكييف لهذه الظواهر لزوماً غير قابل للانفكاك.
وقول الإمام أحمد المازّ قريباً (نؤمن بما ونصدق ولا كيف ولا معنى) صريح في
كونهم رضي الله عنهم يفوضون المعنى، ولا يحتمل التفسير بغير ذلك.
وقال الإمام الخطابي معلقاً على حديث أطيط العرش ما نصه (معالم السنن 4 /
328):

(هذا الكلام إذا جرى على ظاهره كان فيه نوع من الكيفية، والكيفية عن
الله وصفاته منفية..) ثم أخذ بتأويل الحديث على ما يليق، وقد مر معنا قريباً.
وقال الحافظ ابن عبد البر - رحمه الله تعالى - (التمهيد 7 / 144) أثناء كلامه
على حديث النزول بعد أن نقل قول القائلين: ينزل تعالى بذاته. قال: (ليس هذا
بشيء عند أهل الفهم من أهل السنة، لأن هذا كيفية وهم يفرعون منها لأنها لا
تصلح إلا فيما يحاط به عياناً، وقد جل الله وتعالى عن ذلك) اهـ.
وقال الحافظ ابن كثير مفوضاً وذاماً الذين يحملون التشابه على ظاهره وذلك في
تفسيره لقوله تعالى في سورة الأعراف (ثم استوى على العرش) (2 / 220) ما نصه:
(فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك
في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد
والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو
إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى
أذهان المشبهين منفي عن الله فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه) اهـ.

وقال الشيخ سلامة العزامي القضاعي - رحمه الله تعالى - (الفرقان في ذيل الأسماء والصفات للبيهقي ص / 78):

(ومجمل القول في هذا الباب أن صفات المحدثات على قسمين:

القسم الأول :

ما يدل على الحدوث والإمكان والافتقار والاحتياج من حيث ذاته وماهيته أو ملزوماته أو لوازمه المساوية، كالكون في الجهة والمكان، وكالصغر والكبر والجسمية وقبول الانقسام، فهذا مختص بالكائنات لا يجوز أن يتصف الخالق منه بشيء ثم منه ما يكون القول به في الله كقراً إجماعاً، ككونه - تعالى - والدأ أو مولوداً أو ذا صاحبة أو له شريك، ونحو ذلك من كل ما النقص فيه جلبي، ومنه ما اختلف فيه على أقوال ليس هذا محل بسطها، أرجحها أن ذلك ضلال وبدعة وفسق شنيع، أشد من فسق الجوارح بكثير، وقد يعذر العامي في الجهل ببعض ذلك، وأما من ارتفعت درجته عن العامية فلا يعذر وإنما يعزر، فإن كان داعية إلى رأيه كان الذنب أعظم والأمر أخطر - عياداً بالله من ذلك.

القسم الثاني :

ما لا يدل على ما سبق من حيث ذاته بل من حيث نقصه عن الدرجة العليا في كماله، كالوجود والحياة والعلم والإرادة والقدرة وأشباهها من كل صفة هي من حيث ذاتها كمال، فهذا القسم هو للحق تعالى بالأصالة على أكمل درجاته وأبعدها عن شوب النقص، وأرفعها عن الإمكان ولوازمه، واجب بوجوده موصوفه تبارك وتعالى، قدمه بقدمه باق ببقائه، أما ما للخلق منه فهو له بالعرض حادث فيه بإحداث الحق ممكن غير واجب، على درجة نازلة لائقة بحال الممكن، بحيث لا نسبة

بين ما اتصف به الحق جل وعز وما اتصف به الممكن - أي المخلوق - وأين وجودٌ ممكنٌ حادثٌ قابلٌ للزوال غيرٌ مملوكٍ للمتصف به حين اتصافه به، من الوجود الواجب الأزلي الأبدي الذي يجل عن الابتداء والانتهاء، ويرتفع عن قبول الفناء؟!!

... وبهذا يبين لك معنى قوله تعالى في صفة ذاته العلية وكمالاته المقدسة (ليس كمثلها شيء) (هو الحي) (وهو اللطيف الخبير) (وهو العليم القدير) (لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) إلى أمثال هذه الآيات الشريفة من كل ما دل على انحصار هذه الصفات فيه عز وجل، وقصرها عليه. ولتُعد ما بين حقائق هذه الصفات في الممكن - يعني المخلوق - وحقيقتها في الواجب - يعني الله تعالى - قال بعض الفضلاء: إن إطلاق الوجود والحياة والعلم ونحوها على الممكن ما هو إلا بالمجاز.

... وأرجو بعد هذا البيان لهذين القسمين أن تكون قد تكشفت لك تلك المغالطة التي قد يفوه بها بعضهم في مناظرة أهل السنة... وهو قولهم: إن الوجه والعين واليدين والقدمين والساق صفات كما أن الحياة والعلم والإرادة والقدرة صفات، وقد قلت بما في ذات الله، فلماذا لا تقولون بتلك الصفات الوجه وما ذكر معه؟ فكما قلت له علم لا كالعلوم، وقدرة لا كالقُدَر، فقولوا له وجه على الحقيقة لا كالوجوه ويد على الحقيقة لا كالأيدي ورجل على الحقيقة لا كالأرجل وساق على الحقيقة لا كالسوق، ويتوسعون في ذلك حتى انخدع بهذا الكلام من أهل الفضل من تروج عليه الحيل، ويغره الزخرف من القول، ويزيد في رواج هذا الزخرف أن هذه العبارة: " له وجه لا كالوجوه " توجد من بعض الأكابر المنزهين للحق عن الأجزاء والجسمية كما هو الحق، وهي من هؤلاء . أي مثبتي الظواهر الحسية . مغالطة.. فإن الوجه والعين واليد والرجل والساق أجزاء

وأبعض وأعضاء لما هي فيه من الذوات، لا معان وأوصاف تقوم
بموصوفاتها، فأين هي مما ألحقوها به من الحياة والعلم والإرادة
والقدرة؟!.

وهل هذا إلا كتشبيه العالم بالعلم والأبيض بالبياض؟!.

... فإن قالوا: إنا لا نريد بالوجه وأخواته ما هو أجزاء وأبعض، بل نريد ما
هو صفات حقيقة كالعظمة والملك والبصر والقدرة، ولكننا لا نعين المراد.
قلنا لهم: مرحبا بالراجعين إلى الحق... ولا نزاع بيننا وبينكم) انتهى كلامه
رحمه الله بتصرف يسير.

وجاء في كتاب مناهل العرفان للشيخ الزرقاني - رحمه الله تعالى - (2 /
291) ما نصه:

(لقد أسرف بعض الناس في هذا العصر، فخاضوا في متشابه الصفات بغير
حق، وأتوا في حديثهم عنها وتعليقهم عليها بما لا يأذن به الله، ولهم فيها
كلمات غامضة تحتل التشبيه والتنزيه.. حتى باتت هذه الكلمات نفسها من
المتشابهات ومن المؤسف أنهم يواجهون العامة وأشباههم بهذا، ومن المحزن أنهم
ينسبون ما يقولون إلى سلفنا الصالح... من ذلك قولهم: إن الله تعالى يشار إليه
بالإشارة الحسية!! وله من الجهات الست جهة فوق، ويقولون إنه - تعالى -
استوى على العرش بذاته استواءً حقيقياً، بمعنى أنه استقر عليه استقراراً حقيقياً،
غير أنهم يعودون فيقولون: ليس كاستقرارنا وليس على ما نعرف، وهكذا
يتناولون أمثال هذه الآية، وليس لهم فيما نعلم إلا التشبث بالظواهر، ولقد تجلّى
لك مذهب السلف والخلف فلا نطيل بإعادته... لو أنصف هؤلاء لسكتوا عن
الآيات والأخبار المتشابهة، واكتفوا بتنزيه الله تعالى عما توهمه ظواهرها من

الحدوث ولوازمه، ثم فوضوا الأمر إلى الله وحده) اهـ.

وقال العلامة محمود بن خطاب السبكي - رحمه الله تعالى - (الدين الخالص

:28 / 1

(وأما السلف والخلف فإنهم مجمعون على ثبوت صفات الله تعالى الواردة في الكتاب العزيز والسنة المحمدية، وإنما خلافهم في تفويض معنى المتشابه وهو مذهب السلف، وفي بيان معناه وهو مذهب الخلف) اهـ.

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - (دفع شبه التشبيه ص / 97 وما

بعدها):

(ورأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لا يصلح، فصنفوا كتباً شانوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فسمعوا أن الله تعالى خلق آدم على صورته فأثبتوا له صورة ووجهاً زائداً على الذات، وعينين وفما ولهوات، وأضراساً وأضواءً لوجهه هي السبحات، ويدين وأصابع وكفّاً وخنصرّاً وإبهاماً وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين.

وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس.

وقالوا: يجوز أن يَمَسَّ وَيُمَسَّ، ويُدْنِي العبد من ذاته.

وقال بعضهم: ويتنفس.

ثم يرضون العوام بقولهم: لا كما يعقل!!

وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات، فسموها بالصفات تسمية مبتدعة لا دليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل، ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعاني الواجبة لله تعالى، ولا إلى إلغاء ما يوجب الظاهر

من سمات الحدوث، ولم يقنعوا بأن يقولوا: صفة فعل. حتى قالوا: صفة ذات، ثم لما أثبتوا أنها صفات ذات، قالوا: لا نحملها على توجيه اللغة مثل يد على نعمة وقدرة، ومجيء وإتيان على معنى بر ولطف، وساق على شدة، بل قالوا: نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعهود من نعوت الآدميين، والشيء إنما يحمل على حقيقته إذا أمكن، ثم يتخرجون من التشبيه، ويأنفون من إضافته إليهم، ويقولون: نحن أهل السنة. وكلامهم صريح في التشبيه، وقد تبعهم خلق من العوام...).

إلى أن قال: (فلو أنكم قلمتم نقرأ الأحاديث ونسكت، ما أنكر عليكم أحد، إنما حَمَلْتُمْ إياها على الظاهر قبيح) اهـ.

وقال الإمام ابن القشيري - رحمه الله تعالى - (إنحاف السادة المتقين 2 /

:109)

(يقولون - يعني أهل الظاهر - نحن نأخذ بالظاهر ونجري الآيات الموهمة تشبيهاً والأخبار المقتضية حداً وعضواً على الظاهر، ولا يجوز أن نطرق التأويل إلى شيء من ذلك، ويتمسكون بقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) ... وأوحوا إلى أوليائهم بهذه البدع وأحلوا في قلوبهم وصف المعبود سبحانه بالأعضاء والجوارح والركوب والنزول والاتكاء والاستلقاء والاستواء بالذات والتردد في الجهات، فمن أصغى إلى ظاهرهم يبادر بوجهه إلى تخيل المحسوسات فيعتقد الفضائح، فيسيل به السيل وهو لا يدري) اهـ.

قال الشيخ الزرقاني - رحمه الله تعالى - (مناهل العرفان 2 / 292):

(فالعمدة عندنا في أمور العقائد هي الأدلة القطعية التي توافرت على أنه تعالى ليس جسمًا ولا متحيزًا ولا متجزئًا ولا مركبًا، ولا محتاجًا لأحد ولا إلى

مكان ولا إلى زمان، ولا نحو ذلك، ولقد جاء القرآن بهذا في محكماته، إذ يقول: (ليس كمثلها شيء) ويقول (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) ويقول: (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم) ويقول: (يأياها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد) وغير ذلك كثير في الكتاب والسنة، فكل ما جاء مخالفاً بظاهره لتلك القطعيات والمحكمات فهو من المتشابهات التي لا يجوز اتباعها، كما تبين لك فيما سلف.

ثم إن هؤلاء - يعني القائلين بالظواهر - متناقضون، لأنهم يشبتون تلك المتشابهات على حقائقها، ولا ريب أن حقائقها تستلزم الحدوث وأعراض الحدوث، كالجسمية والتجزؤ والحركة والانتقال، لكنهم بعد أن يشبتوا تلك المتشابهات على حقائقها ينفون هذه اللوازم، مع أن القول بثبوت الملزومات ونفي لوازمها تناقض لا يرضاه لنفسه عاقل، فضلاً عن طالب أو عالم، فقولهم في مسألة الاستواء الأنفة: إن الاستواء باق على حقيقته يفيد أنه الجلوس المعروف المستلزم للجسمية والتحيز، وقولهم بعد ذلك ليس هذا الاستواء على ما نعرف، يفيد أنه ليس الجلوس المعروف المستلزم للجسمية والتحيز، فكأنهم يقولون: إنه مستو غير مستو ومستقر على العرش غير مستقر، أو متحيز غير متحيز، وجسم غير جسم، أو أن الاستواء على العرش ليس هو الاستواء على العرش، والاستقرار فوقه ليس هو الاستقرار فوقه... فإن أرادوا بقولهم الاستواء على حقيقته، أنه على حقيقته التي يعلمها الله ولا نعلمها نحن، فقد اتفقنا، لكن تعبيرهم هذا موهم، لا يجوز أن يصدر من مؤمن، خصوصاً في مقام التعليم والإرشاد وفي موقف النقاش والحجاج، لأن القول حقيقة أو مجاز لا ينظر فيه إلى

علم الله وما هو عنده، ولكن ينظر فيه إلى المعنى الذي وضع له اللفظ في عرف اللغة، والاستواء في اللغة العربية يدل على ما هو مستحيل على الله في ظاهره فلا بد إذن من صرفه عن هذا الظاهر، واللفظ إذا صرف عما وضع له واستعمل في غير ما وضع له خرج عن الحقيقة إلى المجاز لا محالة، ما دامت هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، ثم إن كلامهم بهذه الصورة فيه تلبيس على العامة وفتنة لهم فكيف يواجهونهم به ويحملونهم عليه؟!

وفي ذلك ما فيه من الإضلال وتمزيق وحدة الأمة، الأمر الذي نهانا القرآن عنه، والذي جعل عمر - رضي الله تعالى عنه - يفعل ما فعل بصبيغ، وجعل مالكا - رحمه الله تعالى - يقول ما قال ويفعل ما فعل بالذي سأله عن الاستواء. ولو أنصف هؤلاء لسكتوا عن الآيات والأخبار المتشابهة، واكتفوا بتنزيه الله تعالى عما توهمه ظواهرها من الحدوث ولوازمه، ثم فوضوا الأمر في تعيين معانيها إلى الله وحده) اهـ.

وبأقوال أئمة الإسلام وأعلام الأمة ينجلي في هذه القضية وجه الحق، وتتضح المحجة، ويتبين على وجه اليقين أنه ليس لأهل الحق في هذه المسألة إلا قولان، التفويض الذي عليه أكثر السلف، والتأويل الذي عليه أكثر الخلف وجماعات من السلف، وليس بعد هذين المذهبين إلا التعطيل أو التشبيه.

* * * * *

التأويل والتعطيل

التأويل والتعطيل كلاهما أسند إلى الأشاعرة على سبيل القدح والتشنيع.. أما التأويل فقد تبين لك كونه شعاراً لأهل الحق أمام أهل البدعة من المشبهة والمجسمة، فاستحقوا به المدح لا القدح، والمنقبة لا المذمة.

وأما التعطيل فهم منه براء.. وكيف ينسب إلى الأشاعرة التعطيل وهم المثبتة للصفات المنزهون لله تعالى عن جميع الآفات وسمات النقص والمخلوقات، وهم المنتسبون إلى إمام أهل السنة، وشوكة أصحاب الحق في حلق المبتدعة.

وإنما الذي أوقع من يتهم الأشاعرة في ذلك أنهم لم يدركوا حقيقة الفرق بين التأويل والتعطيل، أو أنهم لم يدركوا الفرق بين نفي أصل الصفة ونفي المعنى الحسي الظاهر والحقيقة اللغوية التي لا تليق بالله تعالى.

وعلى أية حال سنحاول في ما يأتي بيان هذا الفرق، ولكن قبل ذلك لا بد من بيان معنى التعطيل.

* * * * *

حقيقة التعطيل

التعطيل هو التخلية والنفى، هذا في الأصل، يقال: امرأة عاطل، إذا خلا جيدها من القلائد والزينة.

والمعطلة هم نفاة صانع العالم، وهم هنا نفاة صفات الباري جلّ وعزّ، مثل الجهمية الذين نفوا صفات الله تعالى وعطلوها.

* * * * *

هل عطل الأشاعرة صفات الله تعالى

لقد مرّ معنا في هذا البحث اعتقاد الأشاعرة وتأويلهم لبعض الألفاظ التي يستحيل وصف الله تعالى بظواهرها وحقائقها التي يعهداها البشر من أنفسهم ومما حولهم، وهذا الذي ذهبوا إليه من التأويل هو عين ما كان يعرفه السلف الصالح ويعتقدونه، غير أن جمهورهم رضي الله عنهم أحجموا عن التصريح والتعيين حين احتمل اللفظ عندهم أكثر من معنى فتوقفوا ورعاً وتهيباً، ثم لعدم الحاجة إلى ذلك لسلامة عصرهم من البدع التي حدثت بعد، يشهد لهذا ما ذكرناه مراراً من تصريح البعض منهم بهذه المعاني التي قال بها الأشاعرة، ولو جاز وصف الأشاعرة بالتعطيل لأخذهم بالتأويل لانسحب هذا الحكم على أجيال الصحابة والتابعين وتابعيهم.

ولقد نص العلماء على أن مذهب التأويل منقول عن السلف الصالح، وأخذ جمهورهم بمذهب التفويض - وهو ما يسميه العلماء تأويلاً إجمالياً - لا ينفي أخذ جماعاتٍ منهم بالتأويل.

قال الإمام النووي - رحمه الله - مثبتاً التأويل للسلف الصالح (شرح مسلم 6 / 36) ما نصه:

(هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان مشهوران للعلماء....
ومختصرهما أن أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين... والثاني
مذهب المتكلمين وجماعات من السلف وهو محكي عن مالك والأوزاعي أنها
تأول على ما يليق بها بحسب مواطنها) اهـ.

وقال الإمام الزركشي - رحمه الله تعالى - في النصوص المتشابهة (البرهان في علوم القرآن 2 / 207):

(اختلف الناس في الوارد منها في الآيات والأحاديث على ثلاث فرق:
أحدها: أنه لا مدخل للتأويل فيها، بل تجري على ظاهرها ولا تؤول... وهم
المشبهة.

والثاني: أن لها تأويلاً ولكننا نمسك عنه مع تنزيه اعتقادنا عن التشبيه والتعطيل،
ونقول لا يعلمه إلا الله. وهو قول السلف.

والثالث: أنها مؤولة، وأولوها على ما يليق به.

والأول باطل، والأخيران منقولان عن الصحابة... وممن نُقِلَ عنه التأويل
عليّ وابن مسعود وابن عباس وغيرهم) اهـ.

وقال العلامة الشوكاني - رحمه الله تعالى - (إرشاد الفحول ص / 176):

(الفصل الثاني: فيما يدخله التأويل، وهو قسمان، أحدهما أغلب الفروع، ولا
خلاف في ذلك، والثاني: الأصول كالعقائد وأصول الديانات وصفات الباري عزّ
وجلّ.

وقد اختلفوا في هذا القسم على ثلاثة مذاهب).

ونقل المذاهب الثلاثة التي ذكرها الزركشي ثم قال:

(قال ابن برهان: الأول من هذه المذاهب باطل، والآخريان منقولان عن
الصحابة، ونُقِلَ هذا المذهب الثالث عن عليّ وابن مسعود وابن عباس وأم
سلمة) اهـ.

ويؤيد هذا أيضاً ما نقله العلماء عن بعض أئمة السلف من التأويلات لبعض

نصوص المتشابه، نذكر منها على سبيل الإجمال:

تأويل ابن عباس رضي الله عنهما للفظ الساق بشدة الأمر، وكذلك مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم. (الطبري 29 / 38، القرطبي 18 / 249)

وتأويلهم للفظ الوجه في قوله تعالى (فأينما تولّوا فثمّ وجه الله) .

قال مجاهد: قبة الله. (الطبري 1 / 402).

وقوله تعالى (كلّ شيءٍ هالِكٌ إلا وجهه)

قال مجاهد وأبو عبيدة والضحاك: إلا هو. (القرطبي 13 / 322، الطبري 20 / 82، دفع شبه التشبيه ص / 113).

وقال أبو العالية وسفيان: إلا ما أريد به وجهه. وقال الصادق: دينه. وقال أبو عبيدة أيضاً: إلا جاهه. (القرطبي 13 / 322).

وتأويل ابن جرير الطبري للاستواء بالعلو والسلطان (في تفسيره 192/1) ويروى شيء قريب من هذا عن الحسن والثوري. (مرقاة المفاتيح 2 / 137، وتفسير العز بن عبد السلام 1 / 485 - 486). (وجاء ريك)

وتأويل أحمد لقوله تعالى قال: جاء ثوابه. (ذكره ابن كثير من رواية البيهقي ثم نقل قول البيهقي: وهذا إسناد لا غبار عليه. البداية والنهاية 10 / 327)، وهو مروى عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما. (تفسير النسفي 4 / 378، في هامش تفسير الخازن).

وتأويل البخاري للضحك بالرحمة. (الأسماء والصفات للبيهقي ص / 470) وتأويله لقوله تعالى (كلّ شيءٍ هالِكٌ إلا وجهه) قال : إلا ملكه. (الفتح 8 / 364).

وغير ذلك مما سيأتي بيانه وتفصيله في مبحث تأويلات السلف الصالح، وهي

كثيرة جداً تزخر بها كتب التفسير والحديث وغيرها. وهو أمر ثابت لا سبيل إلى جحده، ولن يتأتى لمكابري إنكاره.

إن التعطيل كما هو واضح من تعريفه نفي صفات الباري سبحانه، والأشاعرة لم ينفوا صفة الله تعالى ثبتت بطريق صحيح، ومؤلفاتهم تشهد بهذا، غاية ما فعلوه أنهم حملوا هذه النصوص التي تقتضي ظواهرها وحقائقها تشبيه الله تعالى بخلقه على وجه تعرفه العرب لا ينافي تنزيه الله تعالى، وفرق كبير بين نفي ما أثبتته الله تعالى كما فعل الجهمية، وبين إثباته ثم حمله على معنى لائق بالله تعالى مشهور في اللسان العربي بعد أن استحال الظاهر.

ولنأخذ على ذلك مثلاً ليزداد الأمر وضوحاً، قال الله تعالى (الرحمن على العرش استوي) فللاستواء في اللغة معانٍ كثيرةٌ ما بين حقيقة ومجاز، وكل ما كان حقيقة من معاني الاستواء لا يليق بالله تعالى، لأن الاستواء فعل حسي جسماني وكل ما كان من هذا القبيل ظاهره وحقيقته اللغوية قطعاً لا تليق بالله تعالى، ولهذا فإنه لا محيص من المصير إلى المعاني المجازية، وهذا ما فعله العلماء، فهم رحمهم الله عندما رأوا استحالة المعاني الحقيقية للاستواء في حق الله تعالى أثبتوا ما أثبتته الله تعالى لنفسه أو أثبتته له رسوله عليه الصلاة والسلام، ثم نزهوا الله عن ظاهر اللفظ فنفوا الحقيقة اللغوية المعهودة بين الخلق، وقالوا استوى ربنا تعالى كما أخبر استواءً ليس كاستواء البشر. كما يتبادر من ظاهر اللفظ. استواءً منزهاً عن المماسّة والحلول والاستقرار وغير ذلك من المعاني الباطلة.

وهذه نصوصهم في ذلك:

قال الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى - (إحياء علوم الدين 1 / 90):

(وأنه تعالى مستوي على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراد، استواءً

منزهاً عن المماسّة والاستقرار والتمكّن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته).

وقال أيضاً (الإحياء 1 / 108) (الأصل الثامن: العلم بأنه تعالى مستوٍ على عرشه بالمعنى الذي أراده الله تعالى بالاستواء وهو لا ينافي الكبرياء ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء) 1هـ.

فبالله خبرونا أي تعطيل في هذا؟!

وهل نُفِيَّ هنا إلا ما يجب نفيه عن الله تعالى ويحرم إثباته؟!

فالأشاعرة لم يعطلوا صفة الاستواء، كلا، لكنهم نزهوا الله تعالى عن المعنى الحسي المحال للاستواء الذي هو الجلوس والاستقرار وهو المعنى الظاهر من اللفظ، ومثبته لا محالة واقع في التشبيه ومائل إليه، ولقد نصّ العلماء على أن الحمل على الظاهر تشبيه.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - أثناء شرحه لحديث النزول (الفتح 3 / 36):

(وقد اختلف في معنى النزول على أقوال: فمنهم من حمله على ظاهره وحقيقته وهم المشبهة تعالى الله عن قولهم..). اهـ.

وقد نقلنا قول الإمام الزركشي والشوكاني في هذا المعنى قريباً.

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - عند تفسير قوله تعالى (ءأمنت من في السماء) (18 / 216) ما نصّه (قال المحققون: ءأمنت من فوق السماء، كقوله تعالى (فسيحوا في الأرض) أي فوقها، لا بالمماسّة والتحيّز لكن بالقهر والتدبير.....والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة مشيرة إلى العلوّ لا يدفعها

إلا ملحد أو جاهل معاند، والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفلى والتحت، ووصفه بالعلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود لأنها صفات الأجسام، وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء لأن السماء مهبط الوحي... ولأنه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان) اهـ.

وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى (7 / 103) في تفسير قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) ما نصّه (فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه) أي هم دونه من هذه الحيشية، لا من حيث الحس والمكان.

وقال في تفسيره للاستواء (1 / 192) (علا عليهم علو ملك وسلطان لا علو انتقال وزوال) اهـ.

وقال الإمام القرطبي (6 / 399) في تفسير قوله تعالى

(وهو القاهر فوق عباده) (ومعنى فوق عباده فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم أي هم تحت تسخيره لا فوقية مكان) اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر (الفتح 6 / 158):

(ولا يلزم من كون جهتي العلو والسفل محال على الله أن لا يوصف بالعلو، لأن وصفه بالعلو من جهة المعنى والمستحيل كون ذلك من جهة الحسن) اهـ.

وقال أيضاً (الفتح 1 / 508) عند شرحه لحديث (إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه.. فإن الله في قبلته).

قال الحافظ (فيه ردّ على من زعم أنه - تعالى - على العرش بذاته) اهـ.

وقال الإمام بدر الدين بن جماعة رحمه الله:

(ثم استوي على العرش) ورد في خمس آيات وفي سادسة في طه (الرحمن على العرش استوي) والقرآن نزل بلغة العرب ومعاني كلامهم وما كانوا يتعقلون من خطابهم) ثم أخذ رحمه الله ببيان معاني الاستواء في اللغة، ثم قال:

(واتفق السلف وأهل التأويل على أن ما لا يليق من ذلك بجلال الرب تعالى غير مراد كالقعود والاعتدال، واختلفوا في تعيين ما يليق بجلاله من المعاني المحتملة كالقصد والاستيلاء، فسكت السلف عنه وأوله المتأولون على الاستيلاء والقهر لتعالي الرب عز وجل عن سمات الأجسام من الحاجة إلى الحيز والمكان، وكذلك لا يوصف بحركة أو سكون أو اجتماع وافتراق، لأن ذلك كله من سمات المحدثات وعروض الأعراض، والرب تعالى مقدس عنه، فقلوه تعالى (استوي) يتعين فيه معنى الاستيلاء والقهر لا القعود والاستقرار، إذ لو كان وجوده مكانياً أو زمانياً للزم قدم الزمان والمكان أو تقدّمهما عليه تعالى وكلاهما

باطل... فإن قيل: نفي الجهة - أي حسّاً - عن الموجود يوجب نفيه - أي الموجود - لاستحالة موجود من غير جهة. قلنا: الموجود قسمان: موجود لا يتصرف فيه الوهم والحس والخيال، ولا يقبل الاتصال والانفصال. وموجود يتصرف ذلك فيه ويقبله.

فالأول ممنوع الاستحالة - أي لا يستحيل وجوده بغير جهة - والرب تعالى لا يتصرف فيه ذلك، إذ ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر، فصح وجوده عقلاً من غير جهة ولا حيز، كما دلّ الدليل العقلي على وجوده مع نفي الجسمية والعرضية مع بُعد الفهم الحسي له، فكذلك دلّ على نفي الجهة والحيز مع بُعد الفهم والحس له.....
فإن قيل: قال الله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) وهذا ظاهر في الجهة، وكذلك قوله تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه) وقوله (ثم يرج إليه) الآية. قلنا: ليس

المراد بالغاية هنا غاية المكان، بل غاية انتهاء الأمور إليه، كقوله تعالى (ألا إلى الله تصير الأمور) و (إليه يرجع الأمر كله) وكقول الخليل (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) ... وهو كثير، فالمراد الانتهاء إلى ما أعدّه لعباده والملائكة من الثواب والكرامة والمنزلة. فإن قيل: إنما يقال استولى لمن لم يكن مستولياً قبل، أو لمن كان له منازع فيما استولى عليه، أو عاجزاً ثم قدر. قلنا: المراد بهذا الاستيلاء القدرة التامة الخالية عن معارض... فإن قيل: فالاستيلاء - أي بهذا المعنى - حاصل بالنسبة إلى جميع مخلوقاته، فما فائدة تخصيصه بالعرش. قلنا: حُصّ بالذكر لأنه أعظم المخلوقات إجماعاً، كما حُصّ بقوله (ربُّ العرش) وهو رب كل شيء، وإذا استولى على العرش المحيط بكل شيء استولى على الكل قطعاً. إذا ثبت ذلك فمن جعل الاستواء في حقه تعالى ما يفهم من صفات المحدثين، وقال: استوى بذاته، أو قال: استوى حقيقة، فقد ابتدع بهذه الزيادة التي لم تثبت في السنة ولا عن أحد من الأئمة المقتدى بهم) اهـ. (إيضاح الدليل ص/101 . 107، إتحاف الكائنات، للشيخ محمود بن خطاب السبكي ص / 66 - 67، ويبدو أن النسخة التي اعتمدها الشيخ أوثق من نسخة ناشر الأصل، لذا اعتمدنا لفظ الإتحاف).

وقس على الاستواء جميع ما هو ثابت من نصوص الصفات، يثبتون كل ذلك بلا تشبيه ولا تمثيل، ويؤولون - إذا استحال الظاهر - بلا تعطيل، يثبتون ما أثبتته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان نبيّه ' بعد أن ينزهوه تعالى عن كل ما لا يليق به سبحانه من ظاهر اللفظ، وهذا القدر من معنى اللفظ هو المنفي عندهم لاستحالة أن يتصف الله تعالى به، وهو القدر الذي يجب نفيه، ومثبه لا محالة واقع في التشبيه أو التجسيم أو مائل إليه.

على أن التأويل ليس عنه محيص، وكل الذين يفرون منه مضطرون إليه لا محالة،

وإلا فماذا عساهم أن يقولوا في مثل قوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) وقوله سبحانه
(اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا)

وقوله عز وجلّ (وهو معكم أينما كنتم)

وقوله سبحانه (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو
سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا)

وقوله تعالى (الله يستهزئ بهم)

وقوله تعالى (والله خير الماكرين)

وقوله تعالى (يخادعون الله وهو خادعهم)

وقوله ' (لا يملّ الله حتى تملّوا).

وقوله ' في الحديث القدسي حاكياً عن ربّه عزّ وجلّ (.. ومن أتاني يمشي أتيته
هرولة).

وقوله ' في الحديث القدسي حاكياً عن ربه تعالى (عبدني مرضت فلم تعدني).

وقوله ' (فإن موسى الله أحدّ من موساك، وساعد الله أشدّ من ساعدك).

وقوله ' (إن الله تعالى حييٌّ كريم يستحي من عبده أن يرفع يديه فيردّهما صرفاً
ليس فيهما شيء).

وقوله ' (إن الله يضحك...).

وقوله ' (إن الله يغار...).

وقوله ' (إن الله يعجب...).

وغير ذلك من النصوص، أتراهم يثبتون ظواهرها وحقائقها المعهودة المعروفة بين

البشر أيضاً، فيقولون:

نثبت لله نسياناً حقيقياً ومكراً حقيقياً وخداعاً حقيقياً واستهزاءً حقيقياً ومرضاً حقيقياً وهرولة حقيقية وساعداً شديداً حقيقياً، وموسى حادّة حقيقية، ومللاً حقيقياً، وعجباً وغيرهٌ وحياءً وتردداً وضحكاً ومعيةً وقرباً بالذات والمسافات، كل ذلك على الحقيقة!!؟

ولا نظن أن أحداً يماري ويكابر في استحالة هذه الظواهر وفي نفيها عن الله تعالى، فكذا ظاهر الاستواء والنزول والمحيء ونحوها يجب نفيه ومنعه لاتحاد العلة في الجميع وهي استحالة الظاهر والحقيقة.

قال الحافظ ابن عساكر - رحمه الله تعالى - (تبيين كذب المفتري ص/ 388):

(فإنهم - يعني الأشاعرة - بحمد الله ليسوا معتزلة، ولا نفاة لصفات الله معطلة، لكنهم يثبتون له سبحانه ما أثبتته لنفسه من الصفات، ويصفونه بما اتصف به في محكم الآيات، وبما وصفه به نبيه ' في صحيح الروايات وينزهونه عن سمات النقص والآفات، فإذا وجدوا من يقول بالتحسيم أو التكييف من المجسمة والمشبهة، ولقوا من يصفه بصفات المحدثات من القائلين بالحدود والجهة فحينئذ يسلكون طريق التأويل، ويثبتون تنزيهه تعالى بأوضح الدليل، ويبالغون في إثبات التقديس له والتنزيه خوفاً من وقوع من لا يعلم في ظلم التشبيه، فإذا أمنوا من ذلك رأوا أن السكوت أسلم، وترك الخوض في التأويل إلا عند الحاجة أحزم، وما مثالم في ذلك إلا مثل الطبيب الحاذق الذي يداوي كل داء من الأدوية بالدواء الموافق، فإذا تحقق غلبة البرودة على المريض داواه بالأدوية الحارة، ويعالجه بالأدوية الباردة عند تيقنه منه بغلبة الحرارة، وما هذا في ضرب المثال إلا كما روي عن سفيان: إذا كنت بالشام فحدّث بفضائل علي رضي الله عنه، وإذا كنت بالكوفة فحدّث بفضائل عثمان رضي الله عنه.

وما مثال المتأول بالدليل الواضح إلا مثال الرجل السابح، فإنه لا يحتاج إلى السباحة ما دام في البر، فإن اتفق له في بعض الأحيان ركوب البحر، وعانين هوله عند ارتجائه وشاهد منه تلاطم أمواجه، وعصفت به الريح حتى انكسر الفلج، وأحاط به إن لم يستعمل السباحة المثلج، فحينئذ يسبح بجهد طلباً للنجاة، ولا يلحقه فيها تقصير حباً للحياة، فكذلك الموحد ما دام سالكاً محجة التنزيه، آمناً في عقده من ركوب لجة التشبيه، فهو غير محتاج إلى الخوض في التأويل لسلامة عقيدته من التشبيه والأباطيل، فأما إذا تكدر صفاء عقده بكدورة التكيف والتمثيل، فلا بدّ من تصفية قلبه من الكدر بمصفاة التأويل، وترويق ذهنه براووق الدليل، لتسلم عقيدته من التشبيه والتعطيل) اهـ.

وقال الإمام أبو نصر القشيري رحمه الله تعالى (إتحاف السادة المتقين 2 / 108):

(فإن قيل: أليس الله يقول (الرحمن على العرش استوي) ؟ فيجب الأخذ

بظاهره.

قلنا: الله يقول أيضاً (وهو معكم أينما كنتم) ويقول تعالى (ألا إنّه بكلّ شئ محيط) فينبغي أيضاً أن تأخذ بظاهر هذه الآيات حتى يكون - تعالى - على العرش وعندنا ومعنا ومحيطاً بالعالم محققاً به بالذات في حالة واحدة، والواحد يستحيل أن يكون بذاته في كلّ مكان. قالوا: قوله تعالى (وهو معكم) يعني بالعلم، و (بكلّ شئ محيط) إحاطة العلم.

قلنا: وقوله تعالى (على العرش استوي) قهر وحفظ) اهـ.

وقال الإمام وحنة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى (الإحياء 1 / 108):

(الأصل الثامن: العلم بأنه تعالى مستوي على عرشه بالمعنى الذي أراده الله تعالى بالاستواء، وهو الذي لا يناني وصف الكبرياء، ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء،

وهو الذي أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال في القرآن (ثم استوي إلى السماء وهي دخان) وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء.. واضطرَّ أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطرَّ أهل الباطل إلى تأويل قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم وحمل قوله ' (قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن) على القدرة والقهر، وحمل قوله ' (الحجر الأسود يمين الله في أرضه) على التشريف والإكرام، لأنه لو ترك على ظاهره لزم منه المحال، فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكّن لزم منه كون المتمكّن جسماً مماساً للعرش إما أكبر منه أو أصغر، وذلك محال، وما يؤدّي إلى المحال فهو محالٌ أهـ.

ولقد نقل العلماء الإجماع على أن هذه الظواهر غير مرادة للشارع، من ذلك ما ذكره الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن القطان الفاسي - رحمه الله تعالى - حيث قال: (الإقناع في مسائل الإجماع 1 / 32 - 34):

(وأجمعوا أنه تعالى يجيء يوم القيامة والملوك صفواً صفواً لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها، فيغفر لمن يشاء من المؤمنين ويعذب منهم من يشاء كما قال تعالى، وليس مجيئه بحركة ولا انتقال.

وأجمعوا أنه تعالى يرضى عن الطائعين له، وأن رضاه عنهم إرادته نعيمهم. وأجمعوا أنه يجب التّوابين ويسخط على الكافرين ويغضب عليهم، وأن غضبه إرادته لعذابهم، وأنه لا يقوم لغضبه شيء) أهـ.

أتراهم أجمعوا على باطل حين أجمعوا على نفي الظاهر المحال في لفظ المجيء والرضا والغضب؟! وهل تجتمع أمة محمد ' على ضلالة وبدعة؟! أم تراهم عطلوا صفات الباري عز وجل؟!!

وقد مرَّ معنا قول القاضي عياض (شرح مسلم 5 / 24):

(لا خلاف بين المسلمين قاطبة فقيهم ومحدثهم ومتكلمهم ونظارهم ومقلدهم
أن الظواهر الواردة بذكر الله تعالى في السماء كقوله تعالى (ءأمنتم من في السماء
أن يخسف بكم الأرض) ونحوه ليست على ظاهرها بل متأولة عند جميعهم) اهـ.
وقال الإمام الزاهد القدوة أبو عمرو الداني رحمه الله تعالى (الرسالة الوافية لمذهب أهل
السنة في الاعتقادات ص / 124):

(إن الله تعالى لم يزل مريداً، وشائياً، ومحّباً، ومبغضاً، وراضياً، وساخطاً، وموالياً
ومعادياً، ورحيماً، ورحماناً، وأن جميع هذه الصفات راجعة إلى إرادته في عباده،
ومشيئته في خلقه لا إلى غضب يغيّره، ورضاً يسكن طبعاً له، وحنق وغيظ
يلحقه، وحقد يجده، وأنه تعالى راضٍ في أزلّه عمّن علم أنه بالإيمان يختم عمله
ويوافي به، وغضبان على من يعلم أنه بالكفر يختم عمله ويكون عاقبة أمره) اهـ.
وقال أيضاً في نزول الربّ جلّ وعزّ (ص / 135):

(ونزوله تبارك وتعالى كيف شاء، بلا حدّ، ولا تكييف، ولا وصف بانتقال
ولا زوال) اهـ.

وقال . رحمه الله تعالى . في استوائه تعالى (ص / 130):

(واستواؤه جلّ جلاله علوّه بغير كيفية ولا تحديد ولا مجاورة ولا مماسة)
اهـ.

فهل كان هؤلاء الأئمة معطلين حين صرفوا هذه الألفاظ عن ظاهرها، وحملوها
على المجازات والاستعارات!؟

بهذا تعلم - توَلَّى اللهُ هِدَانًا وَهَدَاكَ - أن التعطيل الذي يُرمى به الأشاعرة والماتريدية وهم جماهير أعلام الأمة إنما هو عين التقديس والتنزيه، والذي يرفض ما ذهبوا إليه، ويصرّ على إثبات ما نفوه يقع حتماً بالتجسيم والتشبيه، إذ إن هذا القدر من معنى اللفظ الذي نفاه الأشاعرة ونزهوا الله تعالى عنه يحرم إثباته ووصفُ الله تعالى به لما يلزم منه من اللوازم الباطلة المحالة.

وعلى الجملة فأقوال سلف الأمة وخلفها مطبقة على تنزيه الله تعالى عن هذه الظواهر المحالة، وفي ما نقلناه مقنع لمن أنصف.

نخلص من هذا إلى أن التأويل بشرطه وضوابطه شعارٌ سُئِيَّ ومنهج شرعي أصيل لا مناص من الأخذ به لفهم كتاب الله تعالى وسنة نبيّه صلى الله على وسلم، وليس شعاراً للبدعة والضلالة أو التعطيل، وأن من يحمل المتشابه من نصوص الصفات على الظواهر المعهودة لدى الخلق هو الواقع في التعطيل، لأنه عطل المعنى المفهوم من النص وصدف به عن القصد.

* * * * *

تأويلات السلف الصالح لنصوص الصفات

إن الخلف من علماء الأمة حين سلكوا مذهب التأويل لم يتدعوا قولاً ومنهجاً من عند أنفسهم، لكنهم سلكوا بهذا مسلك جماعات كثيرة من السلف الصالح قالوا بالتأويل وأخذوا به - كما مرّ معنا - وهذا يدلّ قطعاً على سنّية هذا المنهج وأصالته وشرعيته، ولقد نقل العلماء تأويلات ثلثة من أكابر السلف الصالح، من ذلك على سبيل المثال:

تأويل ابن عباس رضي الله عنهما للكرسي بالعلم:

جاء في تفسير الطبري (7 / 3) عند تفسيره لآية الكرسي ما نصّه (اختلف أهل التأويل في معنى الكرسي الذي أخبر الله تعالى ذكره في هذه الآية أنه وسع السموات والأرض، فقال بعضهم: هو علم الله تعالى ذكره.... وأما الذي يذُف على ظاهر القرآن فقول ابن عباس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير أنه قال: هو علمه..). اهـ.

تأويله رضي الله عنه لمجيء الرب جلّ وعزّ:

جاء في تفسير النسفي رحمه الله تعالى (4 / 378) عند قوله تعالى (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) ما نصّه (هذا تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبيين آثار قهره وسلطانه، فإن واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره وخواصّه، وعن ابن عباس: أمره وقضاؤه) اهـ.

ونقل الإمام القرطبي نحو هذا عن الحسن البصري، وقال هناك نقلاً عن بعض

الأئمة ما نصّه (تفسير القرطبي 20 / 55):

(جعل مجيء الآيات مجيئاً له تفخيماً لشأن تلك الآيات، ومنه قوله تعالى في الحديث " يا ابن آدم مرضت فلم تعدني .. واستسقيتك فلم تسقني .. واستطعمتك فلم تطعمني " .. والله جلّ ثناؤه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان، وأنى له التحول والانتقال ولا مكان له ولا أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان، لأن في جريان الوقت على الشيء فوّت الأوقات، ومن فاته شيء فهو عاجز) اهـ.

تأويله رضي الله عنه للفظ (الأعين):

قال تعالى (واصنع الفلك بأعيننا) قال رضي الله عنه: بمراًى منا (تفسير البغوي 2 / 322). وقال تعالى (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) قال رضي الله عنه: نرى ما يعمل بك (تفسير الخازن 4 / 190).

تأويله رضي الله عنه للفظ (الأيد):

قال تعالى (والسماء بنيناها بأيدينا) قال رضي الله عنه: بقوّة وقدره (القرطبي 17 / 52).

تأويله رضي الله عنه لقوله تعالى (الله نور السموات والأرض)

جاء في تفسير الطبري (18/135) ما نصّه (عن ابن عباس قوله (الله نور السموات والأرض) يقول: الله سبحانه هادي أهل السموات والأرض).

تأويله رضي الله عنه لنصوص (الوجه):

قال تعالى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) قال رضي الله عنه: الوجه عبارة عنه. وقال القرطبي في تفسيره: أي ويبقى الله فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه.. وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا ابن فورك وأبو المعالي وغيرهم.. وقال أبو المعالي: وأما الوجه المراد به عند معظم أئمتنا وجود الباري تعالى (القرطبي 17 / 165).

تأويله رضي الله عنه للفظ (الساق):

قال تعالى (يوم يُكشف عن ساق) قال رضي الله عنه: عن كرب شديد (الطبري 29 / 38، القرطبي 18 / 249).

تأويله رضي الله عنه للفظ (الجنب):

قال تعالى: (أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله) قال رضي الله عنه: تركت من طاعة الله وأمر الله وثوابه (روح المعاني الآية 56 من الزمر).
قال الإمام الألويسي رحمه الله تعالى: (وبالجمله لا يمكن إبقاء الكلام على حقيقته لتزهره عز وجل من الجنب بالمعنى الحقيقي، ولم أقف على عدّ أحد من السلف إياه من الصفات السمعية) اهـ. (المصدر السابق).

هذا هو سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما وناهيك بآبن عباس فقهاً وعلماً بالقرآن والتنزيل، وهو الذي دعا له رسول الله ' بقوله: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) وهو حبر الأمة وترجمان القرآن.

هذا والذي ذهب إليه الأشاعرة والماتريدية في هذه النصوص هو عين ما نقل عن

ابن عباس رضي الله عنهما، فإن جاز اتهام الأشاعرة والماتريدية بالتعطيل والابتداع،
جاز ذلك على سيدنا ابن عباس - معاذ الله - وحاشاه أن يقول في الله تعالى
ما ليس له به علم.

ألا فليتق الله! امرؤ جاءته موعظة من ربه، وليتقته! عن التطاول على أئمة الدين
وعلماء الشرع الذي هو في حقيقة الأمر تطاول على صحابة رسول الله ، والتابعين
لهم بإحسان!.

تأويل مجاهد والسدي للفظ (الجنب):

جاء في تفسير الطبري رحمه الله (24 / 19) عند قوله تعالى (أن تقول نفس يا
حسرتي على ما فرطت في جنب الله) قال مجاهد: في أمر الله، وقال السدي: على
ما تركت من أمر الله.

تأويل الضحاك وقتادة وسعيد بن جبير للفظ (الساق):

جاء في تفسير الطبري (29 / 38 - 39) عند قوله تعالى (يوم يكشف عن
ساق) قال الضحاك: هو أمر شديد، وقال قتادة: أمر فظيع وشدة الأمر، وقال
سعيد: شدة الأمر.

وقال الإمام الطبري قبل هذا بأسطر: (قال جماعة من الصحابة والتابعين من
أهل التأويل: يبدو عن أمر شديد) اهـ.

تأويل سفيان الثوري وابن جرير الطبري للاستواء:

قال الإمام الطبري (1 / 192) في تفسير قوله تعالى (ثم استوي إلى السماء) بعد أن ذكر معاني الاستواء في اللغة، ما نصّه: (علا عليهن وارتفع، فدبرهن بقدرته...علا عليها علو ملك وسلطان، لا علو انتقال وزوال)
وأول سفيان الثوري الاستواء على العرش: بقصد أمره، والاستواء إلى السماء: بالقصد إليها (مرقاة المفاتيح 2 / 137).

تأويل مجاهد والضحاك وأبي عبيدة للفظ (الوجه):

قال تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال مجاهد رحمه الله: قبله الله. (الطبري 1 / 402، الأسماء والصفات للبيهقي ص/309، وصححه ابن تيمية عنهما كما في العقود الدرية ص/248247)
وقال الضحاك وأبو عبيدة في قوله تعالى (كلُّ شئ هالك إلا وجهه) : أي إلا هو (دفع شبه التشبيهه ص / 113).

تأويل الإمام الشافعي رضي الله عنه للفظ (الوجه):

حكى المزني عن الشافعي في قوله تعالى (فثم وجه الله) قال: يعني والله أعلم فثم الوجه الذي وجهكم الله إليه. (الأسماء والصفات للبيهقي ص/309).

تأويل الإمام الطبري للفظ (العين):

قال رحمه الله في تفسير قوله تعالى (ولتصنع على عيني) بمراًى مني ومحبة

وإرادة (16 / 123).

تأويل الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه لحديث النزول:

سئل الإمام مالك - رحمه الله - عن نزول الرب عزّ وجلّ، فقال (ينزل أمره - تعالى - كل سحر، فأما هو عزّ وجلّ فإنه دائم لا يزول ولا ينتقل سبحانه لا إله إلا هو) اهـ.

(التمهيد 7 / 143، سير أعلام النبلاء 8 / 105، الرسالة الوافية لأبي عمرو الداني ص/136، شرح النووي على صحيح مسلم 6 / 37، الإنصاف لابن السيد البطلوسي ص / 82).

تأويل الإمام أحمد رضي الله عنه مجيء الله تعالى:

جاء في كتاب البداية والنهاية للإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى (10 / 361) ما نصّه:

(روى البيهقي عن الحاكم عن عمرو بن السماك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تأوّل قول الله تعالى (وجاء ربك) أنه جاء ثوابه. ثم قال البيهقي: وهذا إسناد لا غبار عليه) اهـ.

ونقل الحافظ ابن الجوزي عن القاضي أبي يعلى عن الإمام أحمد في قوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام) أنه قال: المراد به قدرته وأمره. قال: وقد بيّنه في قوله تعالى (أو يأتي أمر ربك) ومثل هذا في القرآن (وجاء ربك) قال: إنما هو قدرته. (دفع شبه التشبيه ص/141).

تأويل الحسن البصري رضي الله عنه:

قال رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: (وجاء ربك) : جاء أمره وقضاؤه.
وعن الكلبي: جاء حكمه (تفسير البغوي 4 / 454).

وعنه رضي الله عنه في قوله تعالى (أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت
في جنب الله) قال: في طاعة الله. (انظر روح المعاني تفسير الآية 56 من سورة الزمر).

تأويل الإمام البخاري رضي الله عنه للضحك:

قال الإمام البيهقي - رحمه الله تعالى - في كتاب " الأسماء والصفات " (ص /
470): (باب ما جاء في الضحك.. عن أبي هريرة أن رسول الله صلى عليه وسلم
قال: " يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة... " قال: قال
البخاري معنى الضحك الرحمة. قال أبو سليمان - يعني الخطابي - قول أبي عبد الله
قريب، وتأويله على معنى الرضى لفعلهما أقرب وأشبه، ومعلوم أن الضحك من ذوي
التميز يدل على الرضى، والبشر والاستهلال منهم دليل قبول الوسيلة، ومقدمة إنجاح
الطلبية، والكرام يوصفون عند المسألة بالبشر وحسن اللقاء، فيكون المعنى في قوله "
يضحك الله إلى رجلين " أي يُجزل العطاء لهما لأنه موجب الضحك ومقتضاه) أهـ.

قال الحافظ ابن حجر (فتح الباري 6 / 486) مؤكداً مؤكداً لما ذهب إليه أبو
سليمان الخطابي والأعلام المنزهون العارفون بالله تعالى:

(قلت ويدل على أن المراد بالضحك الإقبال بالرضا تعديته به " إلى "، تقول:
ضحك فلان إلى فلان. إذا توجه إليه طلق الوجه مظهراً للرضا به) أهـ.

تأويل الإمام البخاري للفظ (الوجه):

قال الإمام البخاري - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: (كَلَّ شَيْءٌ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) (إلا ملكه). ويقال: إلا ما أريد به وجه الله (الصحيح كتاب التفسير سورة القصص، فتح الباري 8 / 364) اهـ.

وقد مرّ معنا نقلُ إجماع الأمة على منهج التأويل حيث قال الحافظ أبو الحسن علي بن القطان الفاسي رحمه الله تعالى (الإقناع في مسائل الإجماع 1 / 32 - 33) (وأجمعوا أنه تعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها، فيغفر لمن يشاء من المؤمنين ويعذب منهم من يشاء، كما قال تعالى، وليس مجيئه بحركة ولا انتقال).

وأجمعوا أنه تعالى يرضى عن الطائعين له، وأن رضاه عنهم إرادته نعيمهم. وأجمعوا أنه يجب التوايين ويسخط على الكافرين ويغضب عليهم، وأن غضبه إرادته لعذابهم، وأنه لا يقوم لغضبه شيء) اهـ.

وإجماع الأمة على صرف لفظ المجيء عن ظاهره المحال في حق الله تعالى وهو الحركة والانتقال إجماع على التفويض، وإجماعهم على حمل لفظ الرضا على إرادة الإحسان والنعيم، ولفظ الغضب على إرادة العقاب والانتقام إجماع على التأويل، وبهذا يتأكد ما ذكرناه سابقاً أن هذين المذهبين التفويض والتأويل هما المذهبان المعتبران اللذان ارتضتهما الأمة وعوّلت عليهما، وما نقلناه من تأويلات سلفنا الصالح غيظ من فيض وزهرة من روض، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتب التراث من تفسير وحديث وأصول وغيرها، ليقف على ما يثلج صدر كل موحد منزه.

تنبيه

شبهة تتردد على ألسنة المثبتين لظواهر نصوص المتشابهة، وهي:

إثبات المعاني الإجمالية لهذه النصوص لا ينفي إثبات الصفة الواردة في النص، مثال ذلك قول الله تعالى (بل يدهاه مبسوطتان) يقولون: نحن لا ننكر أن النص يفيد إثبات الجود والكرم له تعالى ونفي البخل عنه، فإن معنى بسط اليد مشهور عند العرب، بيد أن هذا لا ينفي إثبات صفة اليد لله تعالى. وقس على هذا جميع النصوص الواردة في الصفات.

هذا تقرير هذه الشبهة.

وفي جوابها نقول:

إن أريد بإثبات الصفات إثباتها على ما جاءت دون تفسير ولا تعيين معنى وإنما يكتفي بتلاوتها والسكوت عليها، وذلك - قطعاً - بعد صرفها عن ظاهرها المحال في حق الله تعالى ولا يقال بالذات أو حقيقة، فذلك حق لا ريب فيه، وهو ذاته مذهب السلف الصالح، وهو لا ينافي - كما مر معنا - مذهب الخلف، وشرح هذا على المثال الذي ضريناه أن يقال: جاء في النص أن الله تعالى يدين، إذ أثبت لله تعالى يدين ليستا بجارحتين، ثم نسكت، ونفوض العلم بالمراد إلى الله تعالى، فهذا مسلك لا اختلاف في صحته، وهو بعينه مسلك السلف الصالح، أما إن أريد بالإثبات حملها على ظاهر اللفظ المحال وعلى الحقيقة اللغوية المعهودة فهو باطل قطعاً، ولقد نقلنا عن علماء الأمة ما يدحضه وينفيه فلا نعيده.

على أننا نقول: ليس كل ما يضاف إلى الله تعالى يراد به إثبات صفة لله تعالى، إذ قد تكون الإضافة من باب المشاكلة والمقابلة كاستهزاء والمكر والخداع وما جرى هذا المجرى، فلا يثبت بما كان من هذا القبيل من الألفاظ صفة لله تعالى، كأن يقال لله مكر يليق به أو استهزاء يليق به، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ومن ذلك أيضاً

ما كان صفة نقص كالمثل والنسيان والمرض والتعجب والتردد ونحو ذلك، فكل هذا وأمثاله الله تعالى منزّه عنه بالإجماع، فلا يوصف الله تعالى بشيء من ذلك، ومنه أيضاً ما كان مشهوراً في معنى مجازي كلفظ الجنب والأصبع ونحوه، فهذا وبابه لا خلاف في حمله على ما اشتهر فيه.

نقل الحافظ ابن حجر عن ابن دقيق العيد (فتح الباري 13 / 395) ما نصّه:

(نقول في الصفات المشكّلة أنه حق وصدق على المعنى الذي أراده الله، ومن تأولها نظرنا فإن كان تأويله قريباً على مقتضى لسان العرب لم نكره عليه، وإن كان بعيداً توقفنا عنه ورجعنا إلى التصديق مع التنزيه، وما كان منها معناه ظاهراً مفهوماً من تخاطب العرب حملناه عليه، مثل قوله تعالى (**على ما فرطت في جنب الله**) فإن المراد به في استعمالهم الشائع حق الله فلا يتوقف في حمله عليه، وكذا قوله " **إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن** " فإن المراد به إرادة قلب ابن آدم مصرفة بقدره الله وما يوقعه فيه، وكذا قوله تعالى (**فأتى الله بنيانهم من القواعد**) معناه خرب الله بنيانهم، وقوله (**إنما نطعمكم لوجه الله**) معناه لأجل الله، وقس على ذلك، وهو تفصيل بالغ قلّ من تيقظ له) اهـ.

وقال الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى (تعريف عام بدين الإسلام ص/82):

(إذا كانت اللغات تعجز عن الإحاطة بالمشاعر الإنسانية وتضييق عنها، فهي عن أن تحيط بصفات الله أعجز وأضيق، فلا يجوز إذن أن تفهم الكلمات الواردة في آيات الصفات بالمعنى " القاموسي"، ولا يجوز أن نقول: إن الله يداً كأيدينا لقوله تعالى: (**يد الله فوق أيديهم**) ولأن معنى اليد في " القاموس " يدل على ذلك. هذا هو الأساس في فهم آيات الصفات، لقوله تعالى (**ليس كمثله شيء**) ولأن الخالق لا يشبه المخلوق.

ولا يجوز كذلك أن ننفي عنها كل معنى، وأن نعطلها من الدلالة. فالله لم ينزل القرآن ليعطل عن معانيه، ولم يجعله ألفاظاً جوفاء لا تدل على شيء.

فكيف إذن نفهم آيات الصفات؟

لقد وجدت أن هذه الآيات على ثلاثة أشكال:

١ - آيات وردت على سبيل الإخبار من الله كقوله (الرحمن على العرش استوي) فنحن لا نقول: إنه ما استوي، فنكون قد نفينا ما أثبتته الله، ولا نقول: إنه استوي على العرش كما يستوي القاعد على الكرسي، فنكون قد شبهنا الخالق بالمخلوق، ولكن نؤمن بأن هذا هو كلام الله، وأن الله مراداً منه لم نفهم حقيقته وتفصيله، لأنه لم يبين لنا مفصلاً، ولأن العقل البشري يعجز عن الوصول إلى ذلك بنفسه، ولا نخوض فيه بل نتبع فيه طريق السلف، والسلف لم يبحثوا فيه أصلاً، ولم يقولوا " حقيقة " ولم يقولوا " مجازاً " .

٢ - آيات وردت على الأسلوب المعروف عند علماء البلاغة بالمشاكلة... والآيات الواردة على هذا الأسلوب كثيرة، كقوله تعالى: (نسوا الله فانساهم) ... ومن أمثالها آية: (ومكروا ومكر الله) وآية: (يخادعون الله وهو خادعهم)

٣ - آيات دلّت على المراد منها آيات أخرى، كقوله تعالى: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) تدل على المراد منها آية: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) ويفهم منها أن بسط اليد يراد به الكرم والجود ولا يستلزم ذلك " بل يستحيل " أن يكون لله تعالى يدان حقيقتان كأيدي الناس وقد جاء في القرآن قوله: (بين يدي رحمته) و (بين يدي عذاب شديد) والقرآن (لا يأتيه الباطل بين يديه) وليس للرحمة ولا للعذاب ولا للقرآن يدان حقيقتان) اهـ.

ومما هو جدير بالتنبيه عليه والتحذير منه ذلك المنهج الغريب والمسلك الشاذ عن أصول المنهج العلمي لا سيما في مجال العقيدة وأبواب الصفات التي نيّطت بالقطعي واليقيني من الأدلة، ذلك المنهج الذي طفق أصحابه يشبّون صفات الله تعالى بأحاديث وآثار لا تصلح أن تكون دليلاً في جزئيات فروع الفقه فضلاً عن أصول الديانات وما يتعلق منها بذات الله تعالى وصفاته، وهؤلاء متناقضون في أحكامهم أشد التناقض وأصرحه، فبينما هم يتساهلون هنا في جانب الإثبات، ويشبّون الله تعالى الصفات بأحاديث واهية وأخبار ضعيفة، تراهم يتشدّدون في جانب الفروع الفقهية، بل أبواب الترغيب والترهيب وأبواب فضائل الأعمال - هذه الأبواب التي تساهل العلماء في قبول الأحاديث فيها بالشروط المعروفة - وينكرون على الناس العمل بالأحاديث الضعيفة في هذه الأبواب، ثم يشبّون الله تعالى صفات بمثل هذه الأحاديث التي أنكروها، بل أضعف منها وأوهى، فيتشدّدون في مواطن التسهيل ويتساهلون في المواطن التي يجب التشدد واليقين فيها مثل العقائد، هذا مع افتراضنا أن مضمون هذه الأحاديث والآثار التي يشبّون بها الله تعالى الصفات مما لا يحيله العقل والنقل، فكيف والأمر على النقيض من ذلك ومضمونها وظواهرها مما قطعت العقول الصريحة والنقول الصحيحة باستحالته وتنزه الله تعالى عنه، لا شك أن البلية في هذه الحال تكون أعظم والخطر أجسم.

ولقد نقلنا قبل عن الإمام الأبي في شرحه على صحيح مسلم (7 / 54) قاعدة ذهبية في أبواب الصفات، لا بأس بإعادتها لتستقر في الأذهان والعقول، قال رحمه الله تعالى:

(القاعدة التي يجب اعتبارها أن ما يستحيل نسبه للذات أو الصفات يستحيل أن يرد متواتراً في نص لا يحتمل التأويل، وغاية المتواتر أن يرد فيما

دلالته على المحال دلالة ظاهرة، والظاهر يقبل التأويل، فإن ورد يجب صرف اللفظ عن ظاهره المستحيل، ثم اختلف فوقف أكثر السلف عن التأويل، وقالوا نؤمن به على ما هو عند الله سبحانه في نفس الأمر، ونكل علم ذلك إلى الله سبحانه، وقال قوم بل الأولى التأويل.. وإن ورد خبر واحد نصّاً في محال قطع بكذب راويه، وإن كان محتملاً للتأويل يتصرف فيه كما سبق) اهـ.

ومضمون هذه القاعدة مما اجتمعت عليه عقول أعلام الأمة وأئمة المسلمين والعارفين بالله، وهذا مما يدل يقيناً على خطأ هؤلاء المجازفين.

قال الحافظ ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - (دفع شبه التشبيه 155):

(لا تنفع ثقة الرواة إذا كان المتن مستحيلاً، وصار هذا كما لو أخبرنا جماعة من المعدّلين: بأن جمل البزاز دخل في حرم إبرة الخياط، فإنه لا حكم لصدق الرواة مع استحالة خبرهم) اهـ.

وبهذا نختتم هذا الباب، ونمسك القلم عن الإسهاب، لننتقل إلى باب آخر من الحديث نشبت فيه كون الأشاعرة والماتريدية غالب الأمة المحمدية، وعلى الله التكلان.

* * * * *

الأشاعرة والماتريدية هم غالب الأمة

علماء الأمة هم نجوم السماء، يهتدي بهم من أطبقت عليه ظلمات الحيرة والتبست عليه معالم الطرق، فإذا رأى أمامه أكابر الذين شهدت لهم الأمة بالفضل وتلقاهم الخاصة والعامة بالقبول علم حينئذ أن هذا المنهج والطريق الذي سلكه هؤلاء منهج هدى وصراط مستقيم.

ومذهب الأشاعرة ومن وافقهم من أهل السنة هو المذهب الذي عليه سواد الأمة وأكابر أهل الفضل فيها كما نقلنا من أقوال علماء المسلمين، وما ذاك إلا لأنه الامتداد الطبيعي لما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم، فلم يبق علم من العلوم لم يكن لهم الريادة فيه، ولا تركوا باباً للمعرفة لم يلجوه، فكان لهم في كل علم من علوم الشريعة وغيرها القدح المعلى والجبين الأجلى.

* * * * *

أكابر مفسري الأمة من الأشاعرة والماتريدية

ومن هذه العلوم التي كان لأهل السنة فضل التقدم والتبريز فيها علم تفسير كتاب الله تعالى والعلوم المتعلقة به كالقراءات والغريب والمشكل ونحوها، وإمامة عجلي بثلة من أعلام هذا الباب تفنك على هذه الحقيقة.

● الإمام الفذ المفسر والمحدث العلامة القرطبي رحمه الله تعالى، صاحب تفسير الجامع لأحكام القرآن، وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان، حكى في تفسيره مذاهب السلف كلها، قال عنه الداوودي في الطبقات " هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً".

● الإمام الحافظ المفسر أبو الفداء إسماعيل بن كثير رحمه الله تعالى، صاحب التفسير العظيم والبداية والنهاية وغيرها، فقد نُقِلَ عنه أنه صرَّحَ بأنه أشعري كما في الدرر الكامنة 58/1، والدارس في تاريخ المدارس للنعمي 89/2، أضف إلى ذلك أنه ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية التي كان شرط واقفها أن لا يلي مشيختها إلا أشعري، وزد عليه ما في تفسيره من التنزيه والتقديس والتشديد على من يقول بظواهر المتشابه كما مرَّ من قوله عند تفسيره لقوله تعالى من سورة الأعراف (ثم استوي على العرش) (تفسيره 220/2) إلى غير ذلك من الأمثلة الظاهرة الجلية في كونه من أهل السنة الأشاعرة.

● الإمام المفسر الكبير قدوة المفسرين ابن عطية الأندلسي رحمه الله تعالى صاحب تفسير المحرر الوجيز، ألف كتابه في التفسير فأحسن فيه وأبدع، كان رحمه الله من أفاضل أهل السنة والجماعة ومن أكابر أهل الفضل، قال أبو حيان الأندلسي فيه

(في مقدمة البحر المحيط): " هو أجلّ من صنف في علم التفسير وأفضل من تعرض
للتنقيح فيه والتحرير "

- الإمام أبو حيان الأندلسي رحمه الله تعالى صاحب البحر المحيط والنهر الماد
من البحر، الحجة الثابت اللغوي، وهو غني عن التعريف به والتنويه بذكره.
- الإمام المقدم فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى صاحب تفسير مفاتيح
الغيب، المفسر، المتكلم، إمام وقته، وفريد عصره، كان شجاعاً في حلوق المبتدعة،
وسيفاً مصلتاً على أهل الزيغ والإلحاد.
- الإمام المفسر الحافظ البغوي محي السنة رحمه الله تعالى صاحب كتاب شرح
السنة، وتفسيره مملوء بما يدل على اعتقاد أهل السنة، وزاخر بالتأويل السني لنصوص
المتشابه.
- الإمام المفسر أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى، صاحب تفسير بحر
العلوم، وكتاب تنبيه الغافلين وبستان العارفين، وقد اشتهر بلقب إمام الهدى.
- الإمام المفسر الواحدي أبو الحسن على النيسابوري أستاذ عصره في النحو
والتفسير، كان سنياً أشعرياً من أهل السنة والجماعة، صاحب المؤلفات النافعة
والإشارات الرائعة، وله كتاب أسباب النزول، وهو من أشهر الكتب في بابه.
- الإمام المفسر أبو الثناء شهاب الدين الألوسي الحسيني الحسيني رحمه الله
تعالى، خاتمة المفسرين ونخبة المحدثين كما وصفه الشيخ بهجة البيطار وقال عنه أيضاً
(حلية البشر 3 / 1450): " كان رضي الله عنه أحد أفراد الدنيا يقول الحق ولا يجيد عن
الصدق، متمسكاً بالسنن، متجنباً للفتن.
- الإمام المفسر السمين الحلبي رحمه الله تعالى صاحب تفسير الدر المصون.

- الإمام الحافظ المفسر جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى صاحب الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
 - الإمام الخطيب الشربيني رحمه الله تعالى صاحب تفسير السراج المنير.
- وغير هؤلاء ممن لو أطلنا النفس بذكرهم لخرجنا عن المقصود، كلهم كانوا من أهل السنة الأشاعرة والماتريدية.

تنبيه

اقتصرننا على ذكر من جاء بعد زمن الإمام الأشعري وسار على هديه، ولم نذكر في مقدمة المفسرين شيخهم وإمامهم في هذا العلم، نعني الحافظ المفسر محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى، وكان معاصراً للإمام الأشعري وتوفي قبله، فلا يبعد أن يكون وقف على شيء من تصانيف الإمام أبي الحسن على كثرتها واستفاد منها، لا سيما وهما في بلد واحد، ومن أنعم النظر في تفسير الإمام الطبري لا يستبعد ذلك، فقد صحَّ عنه رحمه الله تعالى بعض التأويل لبعض آيات المتشابهة، ونقل بعض تأويلات السلف من الصحابة والتابعين مؤيداً لها كما مرَّ في مبحث تأويلات السلف، بل نزيد ونقول إنه لا يبعد أن يكون انتسب إليه فيما لم يصلنا من كتبه، فقد ذكرت كتب التاريخ أنه قد انتهض لنصرة طريقة الإمام أبي الحسن والإمام أبي منصور جميع أهل السنة في العالم الإسلامي.

ولو افترضنا أن الإمام الطبري لم ينتسب إلى الإمام أبي الحسن، فإنه يكفينا أن يكون موافقاً له في الاعتقاد بتنزيه الباري سبحانه وتقديسه، وهذا القدر كافٍ في عدِّ الإمام الطبري ضمن من ذكرنا من المفسرين، بل هو على رأسهم، إذ المقصود اعتقاد

معتقد أهل السنة والجماعة سواء انتسب إلى الأشعري أم لم ينتسب.

*** ومن المفسرين المتأخرين والمعاصرين:**

- الأستاذ الداعية سيد قطب رحمه الله تعالى صاحب الكتاب العظيم " في ظلال القرآن " .
- الشيخ العلامة الطاهر بن عاشور صاحب التفسير العظيم " التحرير والتنوير " .
- الأستاذ الداعية الشيخ سعيد حوى رحمه الله تعالى صاحب كتاب " الأساس في التفسير " .
- الشيخ العلامة محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى الذي ارتبط اسمه بالقرآن حتى إذا ما ذكر القرآن ذكر الشيخ، وإذا ذكر الشيخ ذكر القرآن .
- والشيخ الدكتور وهبة الزحيلي حفظه الله تعالى ورعاه صاحب التفسير المنير والفقهاء الإسلامي وغيرها من الكتب النافعة .

* * * * *

أكابر محدثي الأمة وحفاظها من الأشاعرة والماتريدية

منهم على سبيل المثال:

- الإمام الحافظ أبو الحسن الدارقطني رحمه الله تعالى إمام وقته والذي لم يرَ مثل نفسه، وقصته مع الإمام الباقلاني تغني عن الإطالة في إثبات اتباعه لمذهب الأشعري. (انظر تبين كذب المفتري 255، السير 558/17، أنشاء ترجمة الحافظ أبي ذر الهروي، وتذكرة الحفاظ 1104/3).
- الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله تعالى، صاحب حلية الأولياء، كان من الطبقة الثانية من أتباع الإمام الأشعري، أي من طبقة الإمام الباقلاني والأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني والحاكم وابن فورك رحم الله الجميع (تبين كذب المفتري 246، الطبقات الكبرى للتاج السبكي 370/3).
- الحافظ أبو ذر الهروي عبد بن أحمد رحمه الله تعالى، عدّه الحافظ ابن عساکر في الطبقة الثالثة ممن أخذ عن أصحاب أصحاب الأشعري (انظر المصادر السابقة، والطبقات الكبرى للتاج السبكي 370/3).
- الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله تعالى، ذكره التاج السبكي في الخامسة. (الطبقات 372/3)
- الحافظ الحاكم النيسابوري رحمه الله تعالى صاحب المستدرک علی الصحیحین، وإمام أهل الحديث في عصره، وشهرته تغني عن التعريف به، اتفق العلماء على أنه من أعلم الأئمة الذين حفظ الله بهم هذا الدين. ذكره الحافظ ابن عساکر في الطبقة الثانية، أي من أصحاب أصحاب الإمام. (تبين كذب المفتري

ص/227).

- الحافظ ابن حبان البستي رحمه الله تعالى صاحب الصحيح وكتاب الثقات وغيرها، الإمام الثبت القدوة إمام عصره ومقدم أوانه.
- الحافظ أبو سعد ابن السمعاني رحمه الله تعالى، صاحب كتاب الأنساب. (الطبقات 3/372)
- الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي رحمه الله تعالى صاحب التصانيف التي طار صيتها في الدنيا والمؤلفات المرضية عند المؤيدين والمخالفين.
- الإمام الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى صاحب كتاب تاريخ مدينة دمشق الذي لم يترك فيه شاردة ولا واردة إلا أحصاها.
- الإمام الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، ذكره الحافظ ابن عساكر أول الطبقة الرابعة. (التبيين ص / 268).
- الإمام الحافظ محي الدين يحيى بن شرف النووي محي الدين رحمه الله تعالى، صاحب المؤلفات النافعة التي كتب الله لها القبول في الأرض وبين الناس، مثل كتاب رياض الصالحين والأذكار وشرح صحيح مسلم وغيرها.
- الإمام المحقق بقية الحفاظ صلاح الدين خليل بن كيكلدى العلائي الذي لم يخلف بعده في الحديث مثله، ولم يكن في عصره من يدانيه في علم الحديث.
- شيخ الإسلام الإمام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالى وهو أول من ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية التي كان لا يليها إلا أشعري.
- الإمام الحافظ ابن أبي جمرة الأندلسي مسند أهل المغرب رحمه الله تعالى ورضي عنه، صاحب كتاب بهجة النفوس في شرح مئة حديث من صحيح البخاري.

- الإمام الحافظ الكرماني شمس الدين محمد بن يوسف رحمه الله ورضي عنه، صاحب الشرح المشهور على صحيح البخاري.
 - الإمام الحافظ المنذري رحمه الله تعالى صاحب الترغيب والترهيب.
 - الإمام الحافظ الأبى رحمه الله تعالى شارح صحيح مسلم.
 - الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى صاحب أعظم شرح على صحيح البخاري المسمى بـ " فتح الباري " والذي قيل فيه: لا هجرة بعد الفتح.
 - الإمام الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى.
 - الإمام الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى.
 - الإمام القسطلاني رحمه الله تعالى شارح الصحيح.
 - الإمام الحافظ المناوي رحمه الله تعالى.
- وغيرهم وغيرهم من أئمة الحديث وحفاظ الأمة، كانوا من أهل السنة الأشاعرة والماتريدية.

* * * * *

أكابر فقهاء الأمة من الأشاعرة والماتريدية

قال الحافظ ابن عساكر - رحمه الله تعالى - (تبيين كذب المفتري ص/ 410):
(وأكثر العلماء في جميع الأقطار عليه - يعني مذهب الأشعري - وأئمة
الأمصار في سائر الأعصار يدعون إليه... وهل من الفقهاء من الحنفية والمالكية
والشافعية إلا موافق له أو منتسب إليه أو راضٍ بحميد سعيه في دين الله أو مشنٍ
بكثرة العلم عليه) اهـ.

وقال الإمام ابن السبكي رحمه الله تعالى (الطبقات 3/365): (وقد ذكر شيخ
الإسلام عز الدين ابن عبد السلام أن عقيدته - يعني الأشعري - اجتمع عليها
الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة، ووافقه على ذلك من أهل عصره شيخ
المالكية في زمانه أبو عمرو بن الحاجب، وشيخ الحنفية جمال الدين الحصري) اهـ.
وقال الإمام أبو المظفر الإسفراييني - رحمه الله تعالى - (التبصير في الدين ص /
189):

(علوم الفقه ويختص بالتبحر فيه أصحاب الحديث وأصحاب الرأي.....) اهـ.
وقول هؤلاء الأعلام يغنيننا عن الإفاضة بذكر أسماء العلماء الذين فاقوا نجوم
السماء عدداً وسمواً عليها جداً.

أعلام الأمة في اللغة والأدب من الأشاعرة والماتريدية

قال الإمام أبو المظفر الإسفراييني - رحمه الله تعالى - (المصدر السابق [بتصرف يسير] وانظر الفرق بين الفرق ص/183، ص / 240، واتحاف السادة المتقين 2/102):

(وجملة الأئمة في النحو واللغة من أهل البصرة والكوفة في دولة الإسلام كانوا من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث والرأي.... وكذلك لم يكن في أئمة الأدب أحد إلا وله إنكار على أهل البدعة شديد ويُعدُّ من بدعهم بعيد، مثل الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وسيبويه والأخفش والزجاج والمبرد وأبي حاتم السجستاني وابن دريد والأزهري وابن فارس والفارابي، وكذلك من كان من أئمة النحو واللغة مثل الكسائي والفراء والأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة وأبي عمرو الشيباني وأبي عبيد القاسم بن سلام، وما منهم أحد إلا وله في تصانيفه تعصُّبٌ لأهل السنة والجماعة ورُدُّ على أهل الإلحاد والبدعة، ولم يقرَّ واحد في شيء من الأعصار من أسلاف أهل الأدب بشيء من بدع أهل الأهواء.... ومن كان متدنساً بشيء من ذلك لم يَجُزَّ الاعتماد عليه في رواية أصول اللغة وفي نقل معاني النحو، ولا في تأويل شيء من الأخبار، ولا في تفسير آية من كتاب الله تعالى) اهـ.

هؤلاء هم المتقدمون من أئمة اللغة والأدب والنحو، ثم جاء من بعدهم وساروا على نفس الطريق السوي في الاعتقاد لم يبدلوا ولم يغيروا مثل الإمام ابن الأنباري وابن سيده صاحب كتاب المخصص في اللغة وابن منظور صاحب كتاب لسان العرب والجوهرى صاحب الصحاح والمجد الفيروزآبادي صاحب كتاب القاموس المحيط والمرتضى الزبيدي صاحب كتاب تاج العروس، ومن النحويين محمد بن مالك صاحب الألفية المشهورة في النحو وشارحها ابن عقيل وابن هشام المصري وغيرهم ممن لا غناء لمتعلم أو متأدب عن كتبهم ومصنفاتهم، وكلهم كانوا على عقيدة أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم.



* * * * *

كتاب سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم من الأشاعرة والماتريدية

قال الإمام أبو المظفر الإسفراييني - رحمه الله تعالى - (المصدر السابق):
(علوم المغازي والسير والتواريخ والتفرقة بين السقيم والمستقيم، ليس لأهل البدعة
من هو رأس في شيء من هذه العلوم فهي مختصة بأهل السنة والجماعة) اهـ.
وممن صنّف في السير والمغازي من الأشاعرة والماتريدية فبلغت مصنفاته ما بلغ
الليل والنهار:

- الإمام البيهقي رحمه الله تعالى صاحب دلائل النبوة.
 - الإمام أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله تعالى صاحب دلائل النبوة أيضاً.
 - القاضي عياض رحمه الله تعالى صاحب الشفا في شمائل وأحوال المصطفى ،
الذي ليس له نظير.
 - الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى صاحب الوفا بأحوال المصطفى .
 - الإمام الحلبي رحمه الله تعالى صاحب السيرة الحلبية المسماة بإنسان العيون.
 - الإمام السهيلي رحمه الله تعالى صاحب الروض الأنف .
 - الإمام القسطلاني رحمه الله تعالى صاحب المواهب اللدنية .
 - الإمام الصالحي الدمشقي رحمه الله تعالى صاحب سبل الهدى والرشاد .
 - الإمام المؤرخ المقرئ رحمه الله تعالى صاحب كتاب إمتاع الأسماع .
- ومصنفات هؤلاء الأئمة هي أهم المراجع التي عليها المعتمد في سيرة المصطفى ،

وكلهم على عقيدة الأشاعرة والماتريدية وعلى ما كان عليه المتقدمون من كتاب السيرة الأوائل مثل ابن إسحاق والواقدي وابن سعد وابن هشام وغيرهم من أكابر العلماء في السيرة والمغازي.

وكذلك من صنف في التواريخ من الأئمة غالبهم من الأشاعرة والماتريدية مثل الإمام الحافظ ابن عساكر في كتابه الفذ تاريخ مدينة دمشق والإمام ابن الجوزي في كتابه المنتظم والإمام الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد وابن خلدون وابن الأثير، وكذلك من صنف في تراجم الأعلام مثل الإمام الصفدي في كتابه الوافي في الوفيات الذي اختصره في كتابه أعيان العصر، وقبله الإمام الباخري صاحب كتاب دمية القصر، وابن شاکر الكتبي صاحب كتاب فوات الوفيات وقاضي القضاة ابن خلكان الشافعي صاحب كتاب وفيات الأعيان، وكُتِّبَ تراجم طبقات علماء المذاهب الفقهية وأصحاب كتب التراجم التي وضعت حسب القرون مثل الدرر الكامنة وإنباء الغمر كلاهما للحافظ ابن حجر والضوء اللامع للحافظ السخاوي، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ومرآة الجنان لليافعي وخلاصة الأثر للمحبي وسلك الدرر للمرادي والكواكب السائرة للغزي، وغيرهم الكثير.

ومما يلحق بما مرّ وهو قريب منه، ما صُنِّفَ في الأنساب والأماكن والبلدان مثل كتاب الأنساب للإمام السمعاني ومعجم البلدان لياقوت الحموي ومعجم ما استعجم للبكري وغير ذلك كثير جداً، كل أولئك كانوا إما أشاعرة أو ماتريدية.

ونحن في كل هذا إنما نقتصر على من كان معروفاً بين الناس وإلا فالأمر لا يدخل تحت الجهد والطاقة، وهؤلاء الذين ذكرناهم وعددنا مصنفاتهم سواء في القرآن وعلومه أو الحديث أو الفقه والأصول أو علوم العربية أو التواريخ والمغازي والسير وغير ذلك، هم عبارة عن مراجع المكتبة الإسلامية التي لا غناء لكاتب أو باحث في أي

فن عنها.

وعلى الجملة فإن التاريخ على مدى أدواره كلها منذ منتصف القرن الرابع هو خير شاهد على أن مذهب الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم من أهل السنة بجميع طوائفهم هو المذهب الغالب السائد، فأينما ارتحلت في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، شماله وجنوبه فرايات أهل السنة أعلى ما تراه، ومهما بلغت بالرجوع في أحقاب الزمن لن تجد مذهبهم إلا غالباً على كل ما سواه، وذلك لحديث المصطفى ' لا تجتمع أمتي على ضلالة ' .

أضف إلى ذلك، تلك الصروح الشاخنة والمراكز العلمية التي كانت تنشر النور في جميع أصقاع العالم الإنساني، مثل الجامع الأزهر في مصر، وجامع القرويين في المغرب، وجامع الزيتونة في تونس، والجامع الأموي في دمشق، وندوة العلماء في الهند، وغيرها من منارات العلوم المبتوثة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، كلها كانت تتبنى إما مذهب الأشاعرة أو الماتريدية، ومن قبلها المدارس الإسلامية التي قامت في حواضر الإسلام قديماً، مثل المدارس النظامية نسبة للوزير نظام الملك، وهي كثيرة، حتى قيل بأنه لا تخلو مدينة من مدن العراق وخراسان من أحدها، وهي من أهم الأسباب في انتشار المذهب السني، ومن أشهرها نظامية بغداد التي كانت أكبر جامعة في الدنيا يومئذ⁽¹⁾ ولي مشيختها الإمام

أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله تعالى، ومن وليها أيضاً الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، ونظامية نيسابور التي ولي مشيختها الإمام الجويني رحمه الله تعالى وبعده الإمام الغزالي أيضاً، ومن تلك الصروح العلمية التي كان لها أكبر الأثر في التاريخ الإسلامي والحركة العلمية في العالم الإسلامي أجمع مدرسة دار الحديث الأشرفية التي كان شرط

(1) كما يصفها الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى. الفتاوى 253/2.

واقفها أن لا يلي مشيختها إلا أشعري (انظر طبقات ابن السبكي 200/10، 398)، وكان أول من استلم مشيختها الحافظ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالى، ثم تعاقب الأئمة بعده، فمنهم الإمام الرباني الحافظ يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى والحافظ جمال الدين المزني والحافظ التقي السبكي والحافظ ابن كثير وغيرهم، والذين تخرجوا فيها من العلماء لا يُحصَوْنَ كثرة، وهكذا استمرت هذه المدرسة بإخراج العلماء والأئمة والحفاظ والفقهاء والمقرئين قرونًا طويلة، "وبقيت كذلك حتى القرن الحادي عشر الهجري، ثم بدأ يدب إليها الضعف وذلك تبعاً لما كان يمرّ به العالم الإسلامي من تفكك وخور، ثم هياً الله لها عاملين جليلين استطاعا بجهودهما أن يعودا بالمدرسة إلى سابق عهدها، فاستؤنفت فيها حلقات العلم وقراءة الحديث وروايته منذ عام 1272هـ، كان ذلك بجهود الشيخ يوسف المغربي ودعم الأمير عبد القادر الجزائري الذي افتتح المدرسة بقراءة صحيح البخاري، وكأن عملهما ذاك كان تمهيداً لبروز مجدد القرن الرابع عشر الهجري المحدث الأكبر محمد بدر الدين الحسيني الذي تسلم مشيختها وأعاد لها عزها ومجدها وفخرها، فمن دار الحديث وعلى يدي شيخها المحدث الأكبر تخرج علماء الشام والبلدات الشامية، وما من عالم بدمشق في عصرنا الحاضر أو طالب علم إلا وهو تلميذ له أو تلميذ لتلاميذه " (من كتاب دار الحديث الأشرافية بدمشق للدكتور محمد مطيع حافظ، بتصرف يسير).

ومما يستشهد به لإثبات فضل السادة الأشاعرة والماتريدية ما جاء في الحديث من الدعاء والثناء على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وأمير ذلك الجيش وهو من الإشارات الباهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد روى البخاري في التاريخ الكبير والصغير وأحمد في مسنده والبخاري والطبراني والحاكم وصححه وأقره عليه الذهبي عن النبي ' قال " لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش

ذلك الجيش "

وهذا الحديث حدا بكثير من المسلمين منذ زمن الصحابة إلى الذين بعدهم والذين بعدهم أن يحاولوا الكرة بعد الكرة فتح القسطنطينية، وما ذلك إلا ليحفظوا بهذا الشرف السامي والثناء العظيم العاطر من المصطفى ، فذخر الله هذا الشرف وهذه المنقبة للسلطان العثماني محمد الفاتح رحمه الله تعالى ولجيشه المقدم الجسور. وفتحت القسطنطينية وفاز الفاتح وجيشه بثناء رسول الله .

ومما لا يخفى على شاذٍ في التاريخ أن محمداً الفاتح والعثمانيين جميعاً كانوا أحنافاً في الفروع، ماتريديّة في الاعتقاد.

والسؤال الذي يرد هنا: أيكون ثناء رسول الله ' على مبتدع وضال؟!
أيصح أن يكون هذا الثناء العاطر على فاتح القسطنطينية من نصيب منحرف في الاعتقاد؟!.

ومن قبل الفاتح من سلاطين الأمة وفتاحيها يأتي السلطان المجاهد الشهيد نور الدين محمود رحمه الله تعالى ورضي عنه.

والسلطان المجاهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وهو الذي حظي بشرف تطهير المسجد الأقصى من الصليبيين.

والملك المظفر التقي قطز رحمه الله تعالى، الذي حظي بشرف دحر التتار عن بلاد الإسلام.

ومن متأخري الأبطال والمجاهدين الذين يفخر أهل السنة والجماعة بهم الأسد المصور عمر المختار رحمه الله تعالى وهو أحد أعلام وأتباع الحركة السنوسية المباركة، والعلامة المجاهد الصوفي الناسك بديع الزمان التورسي رحمه الله تعالى محيي الإسلام في

تركيا بعد أن كادت تودي به رياح اللادينية، والبطل المجاهد عز الدين القسام رحمه الله تعالى وهو من أعلام العلماء النساك المتصوفة والمجاهدين، والبطل المجاهد عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى.

وغير هؤلاء الكثير ممن لا يحصيهم إلا خالقهم ولقد اکتفينا بمن اشتهر بين الخواص والعوام على السواء فمفاخر أهل السنة لا تدخل تحت الحصر وأنى لنا بكيل ماء البحر أو عدد نجوم السماء، وإنما ذكرنا هذا استثناساً لا استشهاداً، إذ بما ذكرناه سابقاً من الحجج والبراهين كفاية وبلاغ.

ورحم الله الإمام عبد القاهر البغدادي إذ يقول (الفرق بين الفرق ص / 283):

(لا خصلة من الخصال التي تعدّ في المفاخر لأهل الإسلام من المعارف والعلوم وأنواع الاجتهادات إلا ولأهل السنة والجماعة في ميدانها القدح المعلن والسهم الأوفر) اهـ.

ورحم الله الإمام العلامة عبد الله بن علوي الحداد حيث قال (نيل المرام شرح عقيدة الإسلام ص / 8):

(اعلم أن مذهب الأشاعرة في الاعتقاد هو ما كان عليه جماهير أمة الإسلام علماؤها ودهماؤها، إذ المنتسبون إليهم والساكنون طريقهم كانوا أئمة أهل العلوم قاطبة على مرّ الأيام والسنين، وهم أئمة علم التوحيد والكلام والتفسير والقراءة والفقهاء وأصوله والحديث وفنونه والتصوف واللغة والتاريخ) اهـ.

ولنا الحق أن نتساءل بعد كل ما مر وما قيل: ما الهدف من القدح بأعلام المسلمين وإسقاط الهيبة والتوقير من قلوب الأجيال المسلمة لهم؟!!!

لماذا يصر البعض على تحطيم صروح الدين من خلال تحطيم أعلامه ورموزه؟!
تري ألا يمكن أن يقام مجد للمتأخرين إلا على أنقاض شرف الأولين؟!
أم أنه حق فينا قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لا تقوم الساعة حتى يلعن
آخر هذه الأمة أولها)!!؟

* * * * *

جهود أهل السنة في الذود عن الدين والرد على المبتدعين

نظرة عابرة إلى كتب التراجم والتواريخ والسير والعلوم الأخرى الشرعية وغيرها كفيلة بإقناع من تجرد للحقيقة وأزاح عن عينيه غشاوة التقليد والتعصب بفضل الأشاعرة والماتريدية.

فأول ما يلحظه المطلع على كتب التراث هذا الجهد الهائل الجبار الذي بذله أعلام المسلمين وأئمة الدين من الأشاعرة والماتريدية في نصرته الإسلام وتوطيد عقائده والذود عن حرمانه وتحصين ثغوره، ونشر العلم في مشارق الأرض ومغاربها.

جهود هي عند المنصف غزوة في جبين الدهر، وإكليل غار على ناصية التاريخ.

وحريراً بنا في هذا البحث الذي أردنا به نصرته الحق وإظهار فضائل أهل الفضل أن ننوه بهذه الجهود المباركة ونذكر طرفاً منها، ليطلع القارئ على ما تقر به عينه من تاريخ أمته المشرق والمشرق.

من ذلك ما جاء في كتاب "الفرق بين الفرق" (ص / 283) للإمام الفذ الفرد عبد القاهر البغدادي قال رحمه الله تعالى:

(اعلم أنه لا خصلة من الخصال التي تُعدُّ في المفاخر لأهل الإسلام من المعارف والعلوم وأنواع الاجتهادات إلا ولأهل السنة والجماعة في ميدانها القدح المعلى والسهم الأوفر.

فدونك أئمة أصول الدين وعلماء الكلام من أهل السنة، فأول متكلميهم من الصحابة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه..... ثم عبد الله بن عمر..... وأول

متكلمي أهل السنة من التابعين عمر بن عبد العزيز وله رسالة بليغة في الرد على القدرية.

ثم زيد بن عليّ زين العابدين.... ثم الحسن البصري.... ثم الشعبي.... ثم الزهري.... ومن بعد هذه الطبقة جعفر بن محمد الصادق.... وأول متكلميهم من الفقهاء وأرباب المذاهب أبو حنيفة والشافعي.... وكان أبو العباس بن سريج أبرع الجماعة في هذه العلوم.... ثم من بعدهم الإمام أبو الحسن الأشعري الذي صار شجراً في حلوق القدرية، ومن تلامذته المشهورين أبو الحسن الباهلي وأبو عبد الله بن مجاهد وهما اللذان أثمرتا تلامذة هم إلى اليوم ثموس الزمان وأئمة العصر كأبي بكر محمد بن الطيب . الباقلاني . وأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني، وابن فورك.... وكذلك أئمة الإرشاد والتصوّف كانوا على توالي القرون على هذا المنهج السديد في المعتقد، وكذلك جمهرة أهل النحو واللغة والأدب كانوا على معتقد أهل السنة.... وكذلك أئمة القراءة وحملة التفسير بالرواية من عهد الصحابة إلى عهد محمد بن جرير الطبري وأقرانه ومن بعدهم كانوا كلهم أهل السنة، وكذلك المفسرون بالدراية إلا بعض أفراد من أهل البدعة، وكذلك مشاهير علماء المغازي والسير والتواريخ ونقد الأخبار وحملة الرواية من أهل السنة والجماعة، فيظهر بذلك أن جماع الفضل في العلوم في أهل السنة والجماعة. حشرنا الله سبحانه في زمرةهم) اهـ.

وقال أيضاً - رحمه الله تعالى - (ص / 240):

(الفصل الأول من فصول هذا الباب في بيان أصناف أهل السنة.

صنف منهم: أحاطوا علماً بأبواب التوحيد... وسلكوا في هذا النوع من العلم طرق الصفاتية من المتكلمين الذين تبرءوا من التشبيه والتعطيل... وسائر أهل الأهواء الضالة.

والصنف الثاني منهم: أئمة الفقه من فريقَي الرأي والحديث من الذين اعتقدوا في أصول الدين مذاهب الصفاتية في الله وفي صفاته الأزلية...

الصنف الثالث منهم: هم الذين أحاطوا علماً بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي، وميزوا بين الصحيح والسقيم منها، وعرفوا أسباب الجرح والتعديل، ولم يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة.

الصنف الرابع منهم: قوم أحاطوا علماً بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف، وجروا على سمات أئمة اللغة كالحليل وأبي عمرو بن العلاء وسيبويه والفراء والأخفش والأصمعي والمازني وأبي عبيد وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين.... ومن مال منهم إلى شيء من الأهواء الضالة لم يكن من أهل السنة ولا كان قوله حجّة في اللغة والنحو.

الصنف الخامس منهم: هم الذين أحاطوا علماً بوجوه قراءات القرآن وبوجوه تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة.

الصنف السادس منهم: الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصرُوا واختبروا فاعتبروا.... وجرى كلامهم في طريق العبارة والإشارة على سمات الحديث دون من يشترى لهو الحديث.

الصنف السابع منهم: قوم مرابطون في ثغور المسلمين في وجوه الكفرة يجاهدون أعداء المسلمين ويحمون حمى المسلمين.... ويظهرون في ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة.

والصنف الثامن منهم: عامة البلدان التي غلب فيها شعائر أهل السنة، دون

عامّة البقاع التي ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة، وإنما أردنا بهذا الصنف من العامّة، عامّة اعتقدوا تصويب علماء السنة والجماعة، ولم يعتقدوا شيئاً من بدع أهل الأهواء الضالة... فهؤلاء أصناف أهل السنة والجماعة، ومجموعهم أصحاب الدين القويم والصراط المستقيم) اهـ.

وقال الإمام الكبير أبو المظفر الإسفراييني - رحمه الله تعالى - (التبصير في الدين ص / 187): (أما العلوم:

فأولها: الرقيّ في مدارج الفضل والأدب الذي هو ترجمان جميع العلوم، ومعرض جميع الفوائد الفاخرة في الدنيا والآخرة، إذ لا سبيل إلى تفسير القرآن وأخبار الرسول إلا بمعرفة الأدب.

وجميع الأئمة في النحو واللغة من أهل البصرة والكوفة في دولة الإسلام كانوا من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث والرأي... وكذلك لم يكن في أئمة الأدب أحد إلا وله إنكارٌ على أهل البدعة شديد، وبعدٌ من بدعهم بعيد...
وثانيها: علم تفسير القرآن...

وثالثها: العلوم المتعلقة بأحاديث المصطفى...

ورابعها: علوم الفقه ويختصّ بالتبحّر فيه أصحاب الحديث وأصحاب الرأي...

خامسها: علوم المغازي والسير والتواريخ... وليس لأهل البدعة من هو رأس في شيء من هذه العلوم فهي مختصة بأهل السنة...

سادسها: علم التصوف والإشارات... ولم يكن قطّ لأحد من أهل البدعة فيه حظّ...

وسابعها: علم أصول الدين وإن لأهل السنة والجماعة التفرّد بأكثر من ألف

تصنيف في أصول الدين...

وأما أنواع الاجتهادات الفعلية التي مدارها على أهل السنة والجماعة في بلاد الإسلام فمشهورة مذكورة.... ومن آثارهم الاجتهادية سُدُّهم ثغور الإسلام والمرابطة بها في أطراف الأرض، مثل ثغور الروم وأرمينية، وانسداد جميعها ببركات أصحاب الحديث، وأما ثغور بلاد الترك فمشتركة بين أهل الحديث والرأي....
فبان لك بما ذكرناه من مساعي أهل السنة والجماعة في العلوم والاجتهادات أنهم أهل الاجتهاد والجهاد... اهـ.

هذا هو شأن أهل السنة، وهذا هو قدرهم، فما الذي ينقمة منهم خصومهم؟!
ولله دُرُّ الحافظ ابن عساكر - رحمه الله تعالى - حيث يقول (تبيين كذب المفتري ص / 367): (فيا ليت شعري ماذا الذي تنفر منه القلوب عنهم - يعني الأشاعرة - أم ماذا ينقم أرباب البدع منهم؟!)
أغزارة العلم، أم رجاحة الفهم، أم اعتقاد التوحيد والتنزيه، أم اجتناب القول بالتجسيم والتشبيه، أم القول بإثبات الصفات، أم تقديس الرب عن الأعضاء والأدوات؟! اهـ.

وحيث يقول أيضاً (ص / 410):

(وأكثر العلماء في جميع الأقطار عليه - يعني مذهب الأشاعرة - وأئمة الأمصار في سائر الأعصار يدعون إليه، ومنتحلوه هم الذين عليهم مدار الأحكام، وإليهم يرجع في معرفة الحلال والحرام، وهم الذين يُفتون الناس في صعاب المسائل، ويعتمد عليهم الخلق في إيضاح المشكلات والنوازل، وهل من الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية إلا موافق له أو منتسب إليه أو راضٍ بحميد سعيه في دين الله أو

مُثْنٌ بِكَثْرَةِ الْعِلْمِ عَلَيْهِ) اهـ.

وقال الإمام العلامة المرتضى الزبيدي - رحمه الله تعالى - (إتحاف السادة المتقين 2 /

:102)

(اعلم أن أهل ملة الإسلام قد أطلقوا جميعاً القول بأن صانع العالم لا يشبه شيئاً من العالم، وأنه ليس له شبه ولا مثل ولا ضدّ، وأنه سبحانه موجود بلا تشبيه ولا تعطيل، ثم اختلفوا بعد ذلك فيما بينهم، فمنهم من اعتقد في التفصيل ما يوافق اعتقاده في الجملة، ولم ينقض أصول التوحيد على نفسه بشيء من فروعه، وهم المحققون من أهل السنة والجماعة أصحاب الحديث وأهل الرأي الذين تمسّكوا بأصول الدين في التوحيد والنبوّات ولم يخلطوا مذاهبهم بشيء من البدع والضلالات... وعلى ذلك أئمة الدين جميعهم في الفقه والحديث والاجتهاد في الفتيا والأحكام كمالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة والأوزاعي والثوري وفقهاء المدينة وجميع أئمة الحرمين وأهل الظاهر وكل من يعتبر خلافة في الفقه.

وبه قال أئمة الصفاتية المثبتة من المتكلمين كعبد الله بن سعيد القطان والحارث بن أسد المحاسبي وعبد العزيز المكي والحسين بن الفضل البجلي وأبي العباس والقلانسي وأبي الحسن الأشعري ومن تبعهم من الموحدين الخارجين عن التشبيه والتعطيل، وإليه ذهب أيضاً أئمة التصوف، كأبي سليمان الداراني وأحمد بن أبي الحواري وسري السقطي وإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض والجنيد وزويم والنوري والخراز والخواص ومن جرى مجراهم، دون من انتسب إليهم وهم منه بريئون من الحلولية وغيرهم، وعلى ذلك درج من سلف من أئمة المسلمين في الحديث كالزهري وشعبة وقتادة وابن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين وعلي بن المدائني وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ويحيى بن يحيى التميمي وجميع

الحفاظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين نُقل قولهم في الجرح والتعديل، والتمييز بين الصحيح والسقيم من الأخبار والآثار، وكذلك الأئمة الذين أخذت عنهم اللغة والنحو والقراءات وإعراب القرآن، كلهم كانوا على طريقة التوحيد من غير تشبيه ولا تعطيل...).

وذكر طائفة من أئمة اللغة والأدب ثم قال: (وكل من يصحّ اليوم الاحتجاج بقوله في اللغة والنحو والقراءات من أئمة الدين فإنهم كلهم منتسبون إلى ما انتسب إليه أهل السنة والجماعة في التوحيد وإثبات صفات المدح لمعبودهم - سبحانه - ونفي التشبيه عنه) اهـ.

وقد ذكرنا قوله قبل (الإتحاف 2 / 106):

(إذا أطلق أهل السنة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية).

فدلّ قوله الآنف (فإنهم كلهم منتسبون...) على أنه يعني الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم من طوائف أهل السنة والجماعة.

يتضح بهذا قدر أهل السنة والجماعة الأشاعرة والماتريدية وأصحاب الحديث ومزيتهم على من سواهم من أهل الأهواء والزيغ والبدع، ويظهر ما اختصّهم الله تعالى به من الفضل، واجتباهم له من حمل لواء الحق والهدى والإرشاد لعامة الورى.

* * * * *

فتاوى وأقوال العلماء في فضل الأشاعرة وتغليظهم القول لمن ذمهم وانتقصهم

قال الله تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهَتَانَا وَإِثْمًا مَبِينًا) ، وقال تعالى في الحديث القدسي (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)، والعلماء هم أولياء الله تعالى وخاصته من خلقه، بهم ينتشر الدين ويُذاد عن عقائد الناس وحرماقتهم، وموت آلاف من البشر أهون ضرراً من موت عالم.

وحرمة العلماء من حرمة الدين، فمن قرهم وعرف لهم أقدارهم فالدين يوقر، ومن تطاول عليهم وحقرهم فعلى الدين يتطاول وله يحقر.

يقول الله تعالى (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) .

فأي شعيرة من شعائر الإسلام أعظم من رموزه وأعلامه الذين بهم قوام الدين وصلاح العباد والبلاد؟!!

وأي عزيمة أوثق أمراً وأعظم أجراً من تكريمهم وتوقيرهم والاعتراف بفضلهم؟!
وأي جريمة وعظيمة أشد نكراً وأكبر وزراً من تحقيرهم وازدراؤهم والخط من أقدارهم؟!!

والتطاول على العلماء لا سيما المتقدمون منهم من الذنوب التي تكون في آخر الزمان فقد جاء في الحديث أن من أشراط الساعة لعن آخر هذه الأمة أولها، إشارة منه ' إلى فظاعة هذا الصنيع وشناعته حتى إنه أخّر إلى آخر الزمان!.

ولقد تضافرت أقوال أئمة الإسلام وتواترت فتاواهم في التشنيع على من تناول على مقام أعلام الشريعة وعلماء الأمة، وأوجبوا على ولاة أمور المسلمين الضرب على يده وتعزيره ومعاقبته.

من ذلك ما أفتى به قدوة المالكية في عصره الإمام ابن رشد (الجد) رحمه الله تعالى، وهذا نص السؤال:

(ما يقول الفقيه القاضي الأجل، أبو الوليد - وصل الله توفيقه وتسديده ونجح إلى كل صالحة طريقه - في الشيخ أبي الحسن الأشعري وأبي إسحق الإسفراييني وأبي بكر الباقلاني وأبي بكر بن فورك وأبي المعالي... ونظرائهم ممن ينتحل علم الكلام ويتكلم في أصول الديانات ويصنف للرد على أهل الأهواء؟ وما يقول في قوم يسبونهم وينتقصونهم، ويسبون كل من ينتمي إلى علم الأشعرية، ويكفرونهم ويتبرؤون منهم وينحرفون بالولاية عنهم، ويعتقدون أنهم على ضلالة، وخائضون في جهالة، فماذا يقال لهم ويصنع بهم ويعتقد فيهم؟ أيتكون على أهوائهم؟ أم يكف عن غلوائهم؟).

فأجاب رحمه الله تعالى بما نصه:

(تصفحت - عصمنا الله وإياك - سؤالك هذا ووقفت عليه، وهؤلاء الذين سميت من العلماء أئمة خير وهدى، وممن يجب بهم الاقتداء، لأنهم قاموا بنصر الشريعة، وأبطلوا شبه أهل الزيغ والضلالة، وأوضحوا المشكلات وبينوا ما يجب أن يُدانَ به من المعتقدات، فهم بمعرفتهم بأصول الديانات العلماء على الحقيقة، لعلمهم بالله عزَّ وجلَّ، وما يجب له وما يجوز عليه وما ينتفي عنه، إذ لا تعلم الفروع إلا بعد معرفة الأصول، فمن الواجب أن يعترف بفضائلهم ويقر لهم بسوابقهم، فهم الذين عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) فلا يعتقد أنهم

على ضلالة وجهالة إلا غبي جاهل أو مبتدع زائع عن الحق مائل، ولا يسبهم وينسب إليهم خلاف ما هم عليه إلا فاسق، وقد قال الله عزّ وجلّ: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهْتَانًا وَإِثْمًا مَّيِّنًا) فيجب أن يبصر الجاهل منهم، ويؤدب الفاسق، ويستتاب المبتدع الزائع عن الحق إذا كان مستسهلاً ببدعة، فإن تاب وإلا ضرب أبدأً حتى يتوب، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصبيغ المتهم في اعتقاده، من ضربه إياه حتى قال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد دوائي فقد بلغت مني موضع الداء، وإن كنت تريد قتلي فأجهز علي. فخلني سبيله. والله أسأل العصمة والتوفيق برحمته. قاله محمد بن رشد) (فتاوى ابن رشد 802 / 2).

وقال الإمام الكبير أبو المظفر الإسفراييني - رحمه الله تعالى - بعد أن فصلّ اعتقاد الفرقة الناجية:

(وأن تعلم أن كل من تدبّر بهذا الدين الذي وصفناه من اعتقاد الفرقة الناجية فهو على الحق وعلى الصراط المستقيم، فمن بدّعه فهو مبتدع ومن ضلله فهو ضالّ ومن كفره فهو كافر) اهـ (التبصير في الدين ص / 111).

وقد شدّد الإمام النووي - رحمه الله تعالى - النكير على من انتقص العلماء وعرض لهم بالثلب، فقال:

(قال الله تعالى (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) وقال تعالى (ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربّه) وقال تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) وقال تعالى (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيئاً) وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أن الله عزّ وجلّ قال (من آذى لي ولياً فقد

آذنته بالحرب).

وروى الخطيب البغدادي عن الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما قالا (إن لم تكن الفقهاء أولياء الله فليس لله ولي).

وفي كلام الشافعي: الفقهاء العاملون.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من آذى فقيهاً فقد آذى رسول الله صلى الله على وسلم، ومن آذى رسول الله ' فقد آذى الله عز وجل. وفي الصحيح عنه ' من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله بشيء من ذمته" (المجموع 1 / 24).

وإن لم يكن أعلام الأمة وأمثالها من أئمة الدين الأشاعرة والماتريدية أولياء الله فمن تراهم يكونون؟!!

وقال الحافظ ابن عساكر - رحمه الله - تعالى:

(اعلم يا أخي وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) اهـ. (تبيين كذب المفتري ص / 425، المجموع 24/1).

وقد سئل الإمام العلامة ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى: عن الإمام أبي الحسن الأشعري والباقلاني وابن فورك وأبي المعالي إمام الحرمين وأبي الوليد الباجي وغيرهم ممن تكلم في الأصول وسلك مذهب الأشعري في الاعتقاد، وعن حكم من انتقصهم وذلهم؟.

فأجاب رحمه الله بعد أن شتّع على من عرض لهم بشتّم أو تضليل أو قدح:
(بل هم أئمة الدين وفحول علماء المسلمين فيجب الاقتداء بهم لقيامهم
بنصرة الشريعة وإيضاح المشكلات وردّ شبه أهل الزيغ، وما يجب من الاعتقادات
والديانات لعلمهم بالله وما يجب له وما يستحيل عليه وما يجوز في حقه....
والواجب الاعتراف بفضل أولئك الأئمة المذكورين في السؤال وسابقتهم، وأنهم
من جملة المرادين بقوله " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه
تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين " فلا يعتقد ضلالهم إلا
أحمق جاهل أو مبتدع زائغ عن الحق، ولا يسبهم إلا فاسق، فينبغي تبصير
الجاهل وتأديب الفاسق واستتابة المبتدع) اهـ. (الفتاوى الحديثة ص / 205).

ونقل الحافظ ابن عساكر رحمه الله فتوى للإمام محمد بن علي الدامغاني وافقه
عليها الإمام أبو إسحاق الشيرازي إبراهيم بن علي الفيروزبازي والإمام أبو بكر
الشاشي في فضل الأشاعرة، ووجوب معاقبة منتقصهم والمعرّض بهم.

وهذا نص الاستفتاء والفتوى على ما جاء في كتاب " تبيين كذب المفتري " (ص
/ 332): (بسم الله الرحمن الرحيم. ما قول السادة الأجلة الأئمة الفقهاء أحسن الله
توفيقهم ورضي عنهم في قوم اجتمعوا على لعن فرقة الأشعري وتكفيرهم، ما الذي
يجب عليهم في هذا القول؟ أفتونا في ذلك منعمين مثابين إن شاء الله.

الجواب وبالله التوفيق: أن كل من أقدم على لعن فرقة من المسلمين وتكفيرهم
فقد ابتدع وارتكب ما لا يجوز الإقدام عليه، وعلى الناظر في الأمور أعزّ الله أنصاره
الإنكار عليه وتأديبه بما يرتدع هو وأمثاله عن ارتكاب مثله. كتب محمد بن علي
الدامغاني.

وبعده:

الجواب وبالله التوفيق: إن الأشعرية أعيان السنة ونصّار الشريعة، انتصبوا للرد على المبتدعة... فمن طعن فيهم فقد طعن على أهل السنة، وإذا رفع أمر من يفعل ذلك إلى الناظر في أمر المسلمين وجب عليه تأديبه بما يرتدع به كل أحد. كتبه إبراهيم بن علي الفيروز باذي - أبو إسحاق الشيرازي - .

وبعده:

جوابي مثله. كتبه محمد بن أحمد الشاشي).

قال الحافظ ابن عساكر: (فهذه أجوبة هؤلاء الأئمة الذين كانوا في عصرهم علماء الأمة، فأما قاضي القضاة أبو عبد الله الحنفي الدماغي فكان يقال له في عصره أبو حنيفة الثاني، وأما الشيخ الإمام أبو إسحاق فقد طبّق ذكر فضله الآفاق، وأما الشيخ الإمام أبو بكر الشاشي فلا يخفى محله على مُنته في العلم ولا ناشي، فمن وفقه الله للسداد وعصمه من الشقاق والعناد انتهى إلى ما ذكروا واكتفى بما عنه أخبروا، والله يعصمنا من الزور والبهتان) اهـ.

وقال العلامة السيد محمد بن علوي المالكي الحسيني رحمه الله في الأشاعرة والماتريديّة (مفاهيم يجب أن تصحح ص / 111):

(هم أئمة وأعلام الهدى من علماء المسلمين الذين ملأ علمهم مشارق الأرض ومغاربها، وأطبق الناس على فضلهم وعلمهم ودينهم، هم جهابذة علماء أهل السنة وأعلام علمائها الأفاضل الذين وقفوا في وجه طغيان المعتزلة... إنهم طوائف المحدثين والفقهاء والمفسرين من الأئمة الأعلام كشيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني شيخ المحدثين بلا مرأ.. أشعري العقيدة، وشيخ علماء أهل السنة الإمام النووي... أشعري العقيدة، وشيخ المفسرين الإمام القرطبي... أشعري العقيدة، وشيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي... أشعري العقيدة، وشيخ الفقه والحديث الإمام الحجة الثبت زكريا الأنصاري

أشعري العقيدة، والإمام أبو بكر الباقلاني والإمام النسفي والإمام الشربيني وأبو حيان النحوي... والإمام ابن جزري... الخ كل هؤلاء من أئمة الأشاعرة.. وأي خير يرجى فينا إن رمينا علماءنا الأعلام وسلفنا الصالحين بالزيف والضلال؟ وكيف يفتح الله علينا لنستفيد من علومهم إذا كنا نعتقد فيهم الانحراف والزيف عن طريق الإسلام؟) اهـ⁽¹⁾.

(1) كتاب (مفاهيم يجب أن تصحح) للعلامة السيد محمد بن علوي المالكي رحمه الله تعالى، وهو من الكتب القيمة النافعة المباركة، وقد قرّظه جمع من أكابر علماء العالم الإسلامي هذه بعض أسمائهم:
. الشيخ حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية السابق. . الشيخ محمد أحمد بن حسن الخزرجي المؤرخ الفقيه ووزير الشؤون الإسلامية والأوقاف في دولة الإمارات ورئيس لجنة التراث. . الشيخ محمد الطيب النجار رئيس مركز السنة والسيرة الدولي ورئيس جامعة الأزهر سابقاً. . الشيخ عبدالله كنون الحسيني رئيسرابطة علماء المغرب وعضو رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة. . الدكتور الحسيني هاشم وكيل الأزهر الشريف وأمين عام مجمع البحوث الإسلامية. . الدكتور رؤوف شلي وكيل الأزهر الشريف. . الدكتور عبدالفتاح بركة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية في القاهرة. . الشيخ سيد أحمد العوض مفتي السودان ورئيس مجلس الإفتاء. . شيخ الحديث ورئيس الجامعة الأشرفية وأمير جمعية الإسلام في باكستان. . مدير التعليم بجامعة العلوم الإسلامية في كراتشي. . رئيس مجلس علماء باكستان. . الدكتور حسن الفاتح قريب الله مدير الجامعة الإسلامية في السودان. . الشيخ يوسف بن أحمد الصديقي وكيل محكمة الاستئناف العليا في البحرين وعضو الرابطة الإسلامية بمكة المكرمة.

وغير هؤلاء من غالب أقطار العالم الإسلامي، مما يؤيد ما ذكرناه في البحث من أن غالب أمة الإسلام في القديم والحاضر وغالب أصقاع العالم الإسلامي على هذا المنهج السديد القويم، والله الحمد أولاً وآخرًا.

فتوى الهيئة الشرعية للإفتاء في دبي

هذا جواب سؤال كنا قد بعثنا به إلى الهيئة الشرعية للإفتاء في دبي - الإمارات عن طريق موقعهم الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شكراً على اتصالكم بنا ، وهذا ردُّ على رسالتكم التي وردت إلينا

السؤال :

إخواني الأعزاء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من هم الأشاعرة؟ وهل هم من أهل السنة والجماعة؟ وما حكم من ينتقصهم
ويبدعهم ويضلّهم؟
الجواب وبالله التوفيق:

الأشاعرة هم من أهل السنة والجماعة من أتباع أبي الحسن الأشعري، الذي سار
على منهج الصحابة والتابعين وتابعيهم، أقوالهم المنسوبة إلى السلف والأقوال المنسوبة
إلى الخلف، وكل ما ذكر مستند إلى الأدلة والنصوص، سواء إمرار الصفات على
ظاهرها أو تأويلها بما يتفق مع الآثار واللغة.

فلا يجوز انتقاصهم ولا تبديعهم ولا تضليلهم، ومن انتقصهم فهو الناقص، ومن
بدعهم فهو المبتدع، ومن ضللهم فهو الضال، لأن الأمة من خلال قرونها المتتالية
تلقت أقوالهم بالقبول واجتهاداتهم بالرضا والإنصاف.

والله وليّ التوفيق

فتوى أ.د. أحمد الحجى الكردي

ورد السؤال الآتي على الشيخ في موقعه في الشبكة الالكترونية وكان جوابه الآتي بعد ،

وهذا نص السؤال :

السلام عليكم

أود أن تشرحوا لنا أساسيات هذه الفرقة وأيضا شيئا من عقيدتها بالنسبة للأسماء
والصفات ، نسألکم العفو للإطالة وأرجو ألا تبخلوا علينا بالشرح الوافي .

الجواب :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء
 والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن تبع هداهم بإحسان إلى يوم الدين
 وبعد ...

فالإمام أبو الحسن الأشعري هو إمام هذه الفرقة وهي فرقة أهل السنة والجماعة
 وعليها عامة المسلمين في الكرة الأرضية وأصولها مشروحة في كتب العقيدة الإسلامية
 المختلفة ، ومنها كتاب العقيدة الطحاوية فيستحسن الرجوع إليها لبيان التفاصيل .

والله تعالى أعلم

أ.د. أحمد الحجى الكردي

فتوى مفتى الجمهورية اللبنانية

(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .
وبعد ...

فإن الأشاعرة هم أهل السنة والجماعة ينتسبون إلى الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رحمه الله ، وُلد سنة ستين ومئتين للهجرة على الأشهر في مدينة البصرة ، وتوفي في عام أربعة وعشرين وثلاثمئة للهجرة .
والإمام أبو الحسن الأشعري - رحمه الله تعالى - هو إمام كبير من أئمة أهل السنة والجماعة ، وعقيدة الأشاعرة هي عقيدة أهل السنة والجماعة في إثبات وجود الله تعالى وتوحيده ، وأنه تعالى ليس كمثله شيء ، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، وأنه تعالى يتّصف بكل صفات الكمال ، ويُنزّه عن كل صفات النقص .
والأشاعرة يدحضون آراء المبتدعة كالمعتزلة الذين ينكرون رؤية الله تعالى في الآخرة ، وقد أثبتها الله تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى (وجوه يومئذٍ ناضرة ، إلى ربها ناظرة)
(سورة القيامة الآية 22) .

ومن أبرز أئمة الأشاعرة : الإمام الجويني الشافعي ، والإمام الغزالي الشافعي ، والإمام اللقاني المالكي ، وكثير من المحدثين والفقهاء رضي الله عنهم أجمعين .

ومعظم بلاد الشام وغيرها من بلاد المسلمين على عقيدة أهل السنة والجماعة الأشعرية أو الماتريدية .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً
، والحمد لله رب العالمين .
مفتي الجمهورية اللبنانية

الشيخ محمد رشيد راغب قباني
بيروت 12 صفر 1425 هـ

و 22 آذار 2005 م

هذا وكتب علماء الإسلام مزينة بالثناء على الأشاعرة وأهل السنة جميعاً، لا يكاد يخلو من ذلك كتاب، وطافحة بالنكير على من انتقصهم أو عرض لهم بشتى أو سباب، وفي ما نقلنا بلاغ وكفاية لمن أنصف وتجرد، أما المتعسف فلن تغنيه الشمس في كبد السماء دليلاً على النهار. والله المستعان على ما يصفون.

* * * * *

عقيدة أهل السنة والجماعة

إن المطالع في كتب العقائد لأهل السنة يرى أنهم رحمهم الله قد اقتصروا على إثبات عشرين صفة لله تعالى، وخشية أن يسبق إلى ذهن المسلم أن أهل السنة نفوا ما سوى ذلك من الصفات نقول:

إن صفات الله تعالى من حيث الإيمان بها تنقسم إلى قسمين، قسم يجب الإيمان به ومعرفته إجمالاً، وهو ما قامت عليه الأدلة النقلية والعقلية إجمالاً، وهو جميع الكمالات في نظر العقل مثل العدل والحب والرحمة والانتقام والمغفرة والحكمة وكل ما هو صفة كمال لله تعالى. وقسم يجب معرفته والإيمان به تفصيلاً، وهو ما قامت الأدلة النقلية والعقلية عليه تفصيلاً، وهي العشرون صفة التي يذكرها العلماء في كتبهم لأنها أمهات مهمات الصفات، وكل ما يرد من صفات أخرى فهو داخل في هذه الصفات (أركان الإيمان للشيخ وهي غاوي، أركان الإسلام له أيضا 41/1 بتصرف)

قال الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله (كبرى اليقينيّات ص 108):

(يجب أن تعلم في كلمة جامعة مجملة أن الله عز وجل متصف بكل صفات الكمال ومنزه عن جميع صفات النقصان إذ إن ألوهيته تستلزم اتصافه بالكمال المطلق لزوماً بيناً بالمعنى الأخص).

ثم إن علينا بعد ذلك أن نقف على تفصيل أهم هذه الصفات، ونبين معناها وما تستلزمه من أمور ومعتقدات. وقد وصف الله تعالى نفسه في كتابه الكريم بصفات

كثيرة مختلفة إلا أن جزئيات هذه الصفات كلها تلتقي ضمن عشرين صفة رئيسية
ثبتت بدلالة الكتاب وبالبراهين القاطعة) اهـ.

وجاء في شرح جوهره التوحيد (للشيخين الفاضلين عبدالكريم تتان ومحمد أديب الكيلاني
:274/1):

(وقبل الكلام على " وجوب الوجود " نبين أنه يجب لله تعالى - على
الإجمال - كل كمال، وينزه عن كل نقصان، ويجوز في حقه فعل كل ممكن وتركه،
وعلى التفصيل يجب لله تعالى عشرون صفة قسمها العلماء - ابتغاء التعرف إليها
على أنها أمهات ما يجب لله تعالى - إلى أربعة أقسام.....) اهـ.

وقال الإمام العلامة الهدهدي (شرح السنوسية الصغرى ص45، 46) عند قول
المصنف (فمما يجب لمولانا جل وعز عشرون صفة).

قال في شرح ذلك: (من بمعنى بعض فهي للتبعض أي من بعض ما يجب، لأن
صفات مولانا جل وعز الواجبة له لا تنحصر في هذه العشرين، إذ كمالاته لا نهاية
لها، ولم يكلفنا الله إلا بمعرفة ما نصب لنا عليه دليلاً وهي هذه العشرون، وتفضل
علينا بإسقاط التكليف بما لم ينصب لنا عليه دليلاً) اهـ.

وبالجملة، فأقوال ونصوص العلماء في ذلك كثيرة، وبما نقلناه كفاية لبيان
المقصود، فإن أهل السنة الأشاعرة والماتريدية لم يكونوا معطلين للصفات ولا مشبهين
لله تعالى بالمخلوقات، وإنما هم مثبتون لله تعالى كل ما ثبت نقلاً وعقلاً من
الكمالات ومنزهون له سبحانه عن سمات النقص والآفات.

وإليك - وفقنا الله وإياك هداة - مجمل عقيدة أهل السنة الأشاعرة لكي تعلم
صفاء هذا العقيدة وتمسكها بالمأثور عن رسول الله ' وعن صحابته رضوان الله عليهم:

(الحمد لله المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، ذي العرش المجيد والبطش الشديد، الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد، السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد، المتجلي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، المعرف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له فرداً لا مثيل له صمد لا ضد له منفرد لا ند له وأنه واحد قديم لا أول له، أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

وأنه تعالى ليس بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، وأنه تعالى لا يماثل الأجسام ولا يقبل الانقسام، وأنه تعالى ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بعرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود، (ليس كمثل شيء) ولا هو مثل شيء، وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون والسموات.

وأنه تعالى مستو على عرشه على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواءً منزهاً عن المماساة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش والسماء، وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قريباً إلى العرش والسماء، كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثرى، بل هو سبحانه رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى

العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام، وأنه تعالى لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان وتقدس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان.

وأنه تعالى بائن عن خلقه بصفاته، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه ذاته، وأنه مقدس عن التغير والانتقال، لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال في نعوت جلاله منزهاً عن الزوال، وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال.

وأنه تعالى في ذاته معلوم الوجود بالعقول، مرئي الذات بالأبصار نعمة منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار، وإتماماً منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

وأنه تعالى حي قادر جبار قاهر، لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالإيجاد والإبداع، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا يشذ عن قبضته مقدور، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور، لا تحصى مقدراته ولا تنهاه معلوماته.

وأنه تعالى عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السماوات، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، مطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم أزلي قدس لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال، لا يعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال.

وأنه تعالى مرید للكائنات مدبر للحداثات، لا يجري في الملك قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر نفع أو ضرر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيتته فما شاء كان

وما لم يشأ لم يكن.

وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته، لم يزل موصوفاً بها، مريداً في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها، فوجدت في أوقاتها كما أراده في أزله من غير تقدم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تريض زمان، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن.

وأنه تعالى سميع بصير، يسمع ويرى ولا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق، ولا يحجب سمعه بُعد، ولا يدفع رؤيته ظلام، يرى من غير حدة وأحضان، ويسمع من غير أصمحة وآذان، كما يعلم من غير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.

وأنه تعالى متكلم أمرناه واعدت متوعداً بكلام أزلي قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان.

وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزيور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام، وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق.

وأن موسى 'سمع كلام الله تعالى بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض.

وإذا كانت له هذه الصفات كان حياً عالماً قادراً مريداً سمياً بصيراً متكلماً بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات.

وأنه تعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها، وأنه حكيم في أفعاله عادل في أقضيته لا يقاس عدله بعدل العباد، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره، ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً.

فكل ما سواه من إنس وحن وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس، حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعاً وأنشأه إنشأً بعد أن لم يكن شيئاً. إذ كان موجوداً وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك إظهاراً لقدرته وتحقيقاً لما سبق من إرادته، ولما حق في الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته.

وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب، ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان، إذ كان قادراً على أن يُصَبَّ على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب، ولو فعل ذلك لكان منه عدلاً ولم يكن منه قبيحاً ولا ظلماً.

وأنه تعالى يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له، إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق.

وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعدوه ووعدوه فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به.

وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمدًا صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها، وفضَّله على

سائر الأنبياء وجعله سيد البشر، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر من أمور الدنيا والآخرة.

وأنه لا يقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت.

وأوله: سؤال منكر ونكير، وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سوياً ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له: من ربك وما دينك ومن نبيك، وهما فتانا القبر.

وأن يؤمن بعذاب القبر ونعيمه وأنه حق وعدل على الجسم والروح على ما يشاء.

وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان، توزن به الأعمال بقدرة الله تعالى، وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله تعالى، وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله.

وأن يؤمن بالحوض المورود حوض نبينا محمد صلي الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب وهم المقربون، فيسأل الله تعالى من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين. ويسأل المبتدعة عن السنة ويسأل المسلمين عن الأعمال.

وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم موحد

بفضل الله تعالى، فلا يخلد في النار موحد.
وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين كل على
حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى.
وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبي
: 'أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم.'
وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثنى الله عز وجل ورسوله
عليهم أجمعين.
فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك
موقناً به كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة.
فنسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين
برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد
مصطفى⁽¹⁾.

قال الإمام العارف بالله الحبيب عبدالله بن علوي الحداد رضي الله تعالى عنه
ونفعنا به في هذه العقيدة حاثاً على الأخذ والتمسك بها (رسالة المعاونة والمظاهرة
ص/68):

(وينبغي لكل مؤمن أن يحصن معتقده بحفظ عقيدة من عقائد الأئمة المجمع
على جلالتهم ورسوخهم في العلم، ولا أحسب مبتغي ذلك يصادف عقيدة جامعة
واضحة بعيدة عن الشُّبه، سالمة من الأشياء الموهمة مثل عقيدة الإمام الغزالي رضي الله

(1) من كتاب قواعد العقائد - لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى بتصرف يسير.

عنه التي أوردها في الفصل الأول من كتاب العقائد من الإحياء، فعليك بها) اهـ.
قال الإمام عبد القاهر البغدادي - رحمه الله تعالى - بعد أن فصل هذه العقيدة
(الفرق بين الفرق ص/ 20):

(فمن قال بهذه الجهة التي ذكرناها ولم يخلط إيمانه بشيء من بدع سائر
أهل الأهواء فهو من جملة الفرقة الناجية إن ختم له بها) اهـ.

وقال الإمام أبو المظفر الاسفراييني - رحمه الله تعالى - (التبصير في الدين ص /
180):

(وأن تعلم أن كل من تدبّر بهذا الدين الذي وصفناه من اعتقاد الفرقة الناجية
فهو على الحق وعلى الصراط المستقيم، فمن بدعه فهو مبتدع، ومن ضلله فهو ضال
ومن كفره فهو كافر، لأن من اعتقد أن الإيمان كفر وأن الهداية ضلالة وأن السنة
بدعة كان اعتقاده كفراً وضلالةً وبدعةً) اهـ.

جعلنا الله تعالى من المتمسكين بهذه العقيدة العاملين بمقتضاها وختم لنا بها
آمين.

الخاتمة

هذه خاتمة تطوفنا في هذا الموضوع الذي كثر السؤال عنه، وعمّ الجهل به، على
الرغم من أهميته وخطورته، موضوع غشّى على وجه الحقيقة فيه الجهل أحياناً،
والتعصب أحياناً أخرى، فكانت النتيجة هذا الظلم الواقع على جل الأمة وجلّتها.
لقد كنا نظن أن لن يتجاوز هذا البحث ورقات قليلة، ففوجئنا به وقد أوفى على

المئة صفحة، إذ كلما أجزنا الحديث عن مسألة جرنا الحديث إلى مسألة أخرى لا تقل أهمية عن أختها التي سبقتها.

على أننا نرجوا أن نكون غطينا جوانب الموضوع بسطاً ومناقشة، وأعطيناه ما يستحق من الإيضاح والبيان، إذ هو بشتى قضاياها ومسائله بالغ الأهمية والخطورة والدقة، ولولا أن خاض به البعض فأساءوا. هداهم الله. وبلبلوا أفكار الأجيال المسلمة الناشئة، وألقوا إلى أذهانهم تضليل علماء الإسلام من الأشاعرة والماتريدية وانحرفهم عن طريق السلف، نقول لولا هذا ما ولجنا هذا الباب، ولتركتناه موصداً، ولكن ما حيلتنا وقد فتح البعض هذا الباب على مصراعيه، وانطلقوا. دون تثبت ولا بينة ولا علم. يضللون ويبدعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد حاولنا جهدنا في هذا البحث. وكما هي سمة بحوثنا. أن لا نورد قناعاتنا الشخصية، وحرصنا على الاكتفاء بالنقل عن علماء الأمة وساداتها وأكابرها، فهؤلاء الأئمة هم الذين كانوا يخاطبون القارئ في هذا البحث من خلال نقولاتهم ونصوصهم التي جمعناها فيه، وهذا الذي نقلناه - على كثرته إذ بلغت المصادر التي نقلنا منها زهاء المئة- ما هو في الحقيقة والواقع إلا نزر يسير لا يذكر من أقوال الأئمة والعلماء، ولقد اكتفينا بمن هو معروف بين العامة، ولو أردنا الاستقصاء. وأنى لنا به. لضاق الزمان والمكان، ووالله ما نقول ذلك تحريصاً وميناً، كلا، بل هي حقيقة يشهد بها التاريخ وتقرُّ بها الدنيا.

على أية حال صار هذا البحث الآن في عهدة القارئ، وهو المعنيّ باكتشاف الجهد المبذول فيه، وهو المعنيّ أيضاً بوزن الحقيقة التي اعتضدت بالبراهين والحجج العقلية والنقلية، ونخلص الآن إلى أهم النتائج التي خرجنا بها في هذا البحث، وهي:

• الأشاعرة والماتريدية هم أتباع الإمامين العظيمين أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي، إمامي أهل السنة والجماعة رضي الله عنهما، وهما لم يبتدعا طريقاً غير طريق السلف الصالح، ولم ينشئا مذهباً جديداً، بل هما مقرران لمذاهب السلف مدافعان عنها، مؤيدان لها بالأدلة العقلية، فالانتساب لهما إنما هو من حيث كونهما شَهْرًا طريقة السلف، فهما بمنزلة الأئمة الأربعة في الفروع الفقهية، إذ كما أن المنتسب إلى أحد الأربعة هو في حقيقة الأمر متبع للسلف غير مخالف لهم، فالمتبع لأحد هذين الإمامين . أيضاً . متبع للسلف غير مفارق لهم في المنهج .

• أهل السنة والجماعة مصطلح يراد به عند العلماء الأشاعرة والماتريدية وأصحاب الحديث، فإن هؤلاء هم السواد الأعظم والكثرة الغالبة التي عمّت جميع الأدوار التاريخية ومعظم مساحة الدولة الإسلامية منذ أوائل القرن الرابع إلى يوم الناس هذا، وكانوا قبل ذلك يُسَمَّون بالمتبته، لكونهم أثبتوا الصفات التي نفاها المعتزلة، ثم سُمُّوا أهل السنة بعد ظهور إمامي أهل السنة الأشعري والماتريدي لكونهما نصرورا السنة وقمعوا البدعة .

• ليس في المتشابه من نصوص الصفات إلا مذهبان صحيحان للعلماء، هما مذهب التفويض الذي ذهب إليه جمهور السلف، ومذهب التأويل الذي قال به جماعات من السلف وجمهور الخلف، وليس بعد هذين المذهبين إلا الجنوح نحو التعطيل أو التشبيه .

• لا خلاف بين مذهب التفويض والتأويل، إذ كلاهما مبني على تنزيه الله تعالى عن ظواهر المتشابهات وحقائقها اللغوية المستحيلة في حقه تعالى، والاختلاف بين المسلكين داخل في دائرة الاختلاف الجائز الذي لا يستلزم تضليلاً ولا تبديعاً، فكلا المسلكين منقول عن سلف الأمة .

- التأويل بشروطه التي بينها العلماء شعار سُنيّ لاسيبل إلى فهم كتاب الله تعالى وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم فهماً صحيحاً إلا بالأخذ به، فهو أمر لا محيد عنه، وكل من ينكره مضطر إليه في بعض النصوص.
- التأويل السُنيّ ليس تعطيلاً أو طريقاً إلى التعطيل، والذي يتهم الخلف من الأمة بالتعطيل من أجل أخذهم بالتأويل هو في حقيقة الأمر متهم لسلف الأمة الصالح بهذه التهمة، لأن جماعات من السلف قالوا بالتأويل، وقد نقلنا طرفاً من أقوالهم وتأويلاتهم ونصوص العلماء في ذلك في ثنايا البحث.
- بحسب الأشاعرة والماتريدية من شهود الإثبات التي تشهد بفضلهم وفضائلهم ومناقبتهم وسابقتهم الحسنة في الدين ما تزخر به المكتبة الإسلامية من المعارف والعلوم والمفاخر التي هي بمنزلة الدرّة اليتيمة في تاج المعارف الإنسانية، ومن أنصف ونظر نظرة سريعة خاطفة إلى المكتبة الإسلامية بشتى أقسامها من القرآن وعلومه والحديث وفنونه والفقّه وفروعه وأصوله والسير والمغازي والتواريخ واللغة والأدب وغير ذلك من المعارف التي يضيق عن تفصيلها المقام، نقول من أنصف ونظر هذه النظرة السريعة إلى ما ذكرنا خرج بيقين لا يشوبه ريب بفضل علماء الأمة من الأشاعرة والماتريدية، وتبين له بجلاء ذلك الجهد الهائل الجبار الذي بذله هؤلاء الأعلام في الذود عن الدين والدفاع عن الإسلام والمسلمين.
- لقد تواترت فتاوى علماء الأمة في جميع العصور بالثناء على الأشاعرة والماتريدية، والتنويه بفضلهم وشرفهم، كما تضافرت أقوالهم بالنكير على من عرض لهم بالانتقاص والتلب، وشنّوا عليه غاية التشنيع، وطالبوا بتعزيزه وتأديبه.

* * * * *

هذا إجمال لنتائج البحث مما قد فصلناه هناك مؤيداً بالحجة والبرهان، ومدعماً

بالعقل والنقل، ومصطحياً بأقوال أكابر الأمة وفضلائها.

على أننا - وإن أتينا بما أتينا به من حجج وبراهين - لا نكاد نخلص من متعنت مكابر، ومستسر بالإنكار ومجاهر، ممن كَبَلُوا عقولهم بالتقليد، وأغمضوا أعينهم عن الحقيقة، فهؤلاء ومن جرى مجراهم - وإن كان يعزّ علينا عننتهم وإعراضهم - لا نملك لهم إلا الدعاء بالهداية، ثم الصفح الجميل.

ولكننا نيمم شطر تلك العقول المسلمة الواعية، المتعطشة للحق، المتجردة من أجل الوصول إليه، المقدرة لسلفها الصالح وأعلام الأمة، المدركة لخطورة المرحلة التاريخية التي يمرّ بها العالم الإسلامي، والمدركة أيضاً لأهمية الوحدة الإسلامية لا سيما في هذا الوقت الذي تكالبت على الأمة فيه العداوات وتداعت من كل أصقاع الأرض، فهذه العقول سيجد هذا البحث . إن شاء الله تعالى . طريقه إليها، وسيؤتي ثماره الطيبة فيها.

ثم نقول لمن لا يتفق معنا تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم:

• ألا نقول في الله تعالى وصفاته وأفعاله إلا ما ثبت بطريق القطع واليقين، ولا نزيد على ما ثبت، فلا نقول بذاته أو على الحقيقة أو على الظاهر أو ما شابه ذلك مما لم يردّ به نصٌّ صحيح أو نفاه عقل صريح.

• ألا نضلل أعلام الأمة وعلماءها، فنهدم بهذا الفعل تلك الصروح العالية الشماء من الفضيلة في أذهان الأجيال المسلمة، ونجرّأهم على ذلك.

• ألا نصنف المسلمين - إذا خالفونا في ما لا بأس بالاختلاف فيه - إلى ضلّال ومبتدعين وفسّاق، جهلاً في الدين وجرأة على الله تعالى ورسوله.

* * *

وأخيراً.. فإننا نجأر إلى الله تعالى بأن يوحد كلمة المسلمين، ويزيل أسباب الشقاق المزروعة بينهم، ويهدينا وإخواننا جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه، ويجمعنا معهم في صف واحد، ونقول: فلنؤجّه أنظارنا إلى موجبات الوحدة والوفاق التي متعنا الله تعالى بها، ضارين صفحاً عن كل ما من شأنه أن يعكر صفو ذلك، واضعين نصب أعيننا قول الحق تبارك وتعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على عبده ورسوله محمد
وعلى آله وصحبه وسلم
تم بحمد الله